

ول
وايرل ديورانت

قصة الحضارة

عصر فولتير



قصة الحضارة

ول وَايرئيل ديورانت

عصر قولتير

مراجعة
عالم ادھم

ترجمة
محمد علي ابودرة

الجزء الثاني من المجلد السابع

٣٦



تونس



بيروت

فهرس الجزء الثانى من المجلد التاسع

عصر فولتير - (٣٦)

الكتاب الثانى

فرنسا - ١٧٢٣ - ١٧٥٦

الفصل السابع

الشعب والدولة

صفحة

- ١ - النبلاء ٦
- ٢ - رجال الدين ١٠
- ٣ - الطبقة الثالثة ١٨
- ١ - الفلاحون ١٨
- ٢ - الطبقة الكادحة (البروليتاريا) ٢١
- ٣ - البرجوازية ٢٦
- ٤ - الحكومة ٣١
- ٥ - لويس الخامس عشر ٤١
- ٦ - مدام دى بمبادور ٥٢

الفصل الثامن

الأخلاق والعادات

- ١ - التعليم ٦٢
- ٢ - الأخلاق ٦٤
- ٣ - العادات ٧١
- ٤ - الموسيقى ٧٦
- ٥ - الصالونات ٨١

الفصل التاسع

عبادة الجمال

- ١ - انتصار الروكوكو ٨٩
- ٢ - فى العمارة ٩٦

صفحة

٩٨	٣٠ — النحت
١٠١	٤ — الرسم
١٠٣	١ — في حجرة الانتظار
١٠٥	٢ — بوشيه
١١١	٣ — شاردان
١١٦	٤ — لاتور

الفصل العاشر

نشاط الذهني

١٢٢	١ — صناعة الكلام
١٢٦	٢ — المسرح
١٣٣	٣ — القصة الفرنسية
١٤١	٤ — حكماء أقل شأنا
١٤٨	٥ — مونتسكيو
١٤٨	١ — الرسائل الفارسية
١٥٤	٢ — لماذا سقطت رومه
١٥٨	٣ — روح القوانين
١٧٠	٤ — النتيجة

الفصل الحادى عشر

فولتير فى فرنسا ١٧٢٩ — ١٧٥٠

١٧٧	٢ — فى باريس ١٧٢٩ — ١٧٣٤
١٨٤	٢ — رسائل عن الانجليز
١٩٢	٣ — أنشودة الحب فى سيرى ١٧٣٤ — ١٧٤٤
٢٠٨	٤ — رجل البلاط : ١٧٤٥ — ١٧٥٨
٢١٧	٥ — موت الحبيبة
٢٢٠	٦ — مدام دنيس

الكتاب الثاني

(من المجلد التاسع)

فرنسا

١٧٥٦ - ١٧٢٣

الفصل التاسع

الشعب والدولة

كان عدد سكان فرنسا التي عاد إليها فولتير ١٧٢٧ . نحو تسعة عشر مليوناً من الأنفس ، مقسمة إلى ثلاث طبقات : رجال الدين والنبلاء ، ثم الطبقة الثالثة التي تضم بقية الشعب . وإذا أردنا أن نفهم الثورة الفرنسية فلا بد لنا من أن ندرس كل طبقة منها دراسة دقيقة .

١ - النبلاء

أطلق السادة الإقطاعيون الإقليميون الذين استملوا ألقابهم من الأرض إلى امتلاكوها (وهي ربع أرض فرنسا تقريباً) على أنفسهم اسم « نبلاء السيف » . وكانت مهمتهم الرئيسية أن ينظموا ويتولوا قيادة الدفاع عن سيادتهم وعن إقليمهم وعن وطنهم وعن مليكهم . وفي النصف الأول من القرن الثامن عشر ترأس هؤلاء النبلاء نحو ثمانين ألف أسرة تضم نحو أربعمئة ألف من الأنفس ^(١) . وكانوا شيعاً أو طبقات متحاسدة ، أعلاها طبقة ذرية الملك الذي يتربع في دست الحكم وأولاد اخوته وأخواته . وبلى هؤلاء في منزلة أدنى : طبقة أشراف فرنسا : وتضم الأمراء من أبناء الملوك السابقين . ثم سبعة أساقفة وخمسين دوقاً . ويأتي بعد ذلك الأدواق الأقل شأناً ، ثم الحاصلون على لقب مركيز ، ثم لقب كونت ، ثم لقب فيكونت ، ولقب بارون وشيفالييه (نبيل من الدرجة الدنيا) . وكانت ثمة امتيازات رسميه تميز هذه السلسلة من المراتب بعضها عن بعض . ومن هنا كان نزاع حاد فاجع حول حق السير تحت المظلة في مواكب عيد القربان أو حق الجلوس في حضرة الملك .

ومن بين نبلاء السيف هؤلاء ، تعقبت أقلية منهم أصول ألقابها وممتلكاتها عبر عدة أجيال ، واختصت نفسها باسم « النبلاء ذوي المعتقد الكريم »

ونظروا فيها بعين الازدراء إلى النبلاء الذين حصلوا على لقب النبالة عن طريق أسلاف حديثي العهد ، أو حصلوا عليه هم أنفسهم في عهد لويس الثالث عشر أو لويس الرابع عشر . كما أن بعض هذه الألقاب كانت تمنح لقاء خدمات للدولة في الحرب أو في الإدارة أو في التمويل ، كما أن بعضها كان يبيعه الملك المعظم المعوز الراحل ، مقابل ستة آلاف جنيه ، وبهذه الطريقة ، كما قال فولتير ، « حصل عدد كبير من المواطنين - رجال المصارف والجراحون والتجار والكتبة وخدم الأمراء - على براءة النبالة ^(٢) ، وثمة مناصب حكومية معينة ، مثل منصب المستشار أو كبير القضاة ، كانت تضمنى على شاغلها لقب النبالة تلقائيا . وفي عهد لويس الخامس عشر كان في مقدور أى رجل عادى أن يحصل على النبالة بشراء حق تعيينه وزيراً مقابل مائة وعشرين ألف جنيه . وفي عهد لويس السادس عشر ربما كان هناك نحو تسعمائة وزير وهمى أو صورى من هذا الطراز . كما أنه كان في الإمكان شراء اللقب بشراء ضيقة أحد النبلاء . ويحتمل أنه في ١٧٨٩ ، كان نحو ٥٩ / ، من مجموع النبلاء ينحدرون في الأصل من الطبقة الوسطى ^(٣) .

ووصلت غالبية هؤلاء إلى درجة كبيرة من الأهمية ورفعة الشأن عن طريق دراسة القانون ، ومن ثم حصلوا على مناصب القضاء والإدارة . ومن بينهم كان أعضاء البرلمانات الثلاثة عشر التي كانت بمثابة دور قضاء في كبريات المدن في فرنسا ، ولما كان يجوز للقاضى أو الحاكم ترك منصبه لابنه ، فقد تشكلت أرستقراطية وراثية - هم نبلاء الرداء (الروب) . وكان الرداء بالنسبة لرجل القضاء ، كما هو بالنسبة لرجل الدين ، يمثل نصف السلطة أو السيادة . وكان أعضاء البرلمانات وهم يرفلون في أروبيتهم للقرمزية ، وعباءاتهم الثقيلة والأكام ذات الأهداب والشعور المستعارة المضمخة والقبعات ذات الريش ، يجيئون في مرتبة أدنى من الأساقفة ونبلاء الأرض . ولكن حيث أن بعض الحكام والقضاة أصبحوا ، عن طريق الرسوم القانونية التي كانوا يقاضونها ، أكثر ثراء من معظم ملاك الأرض

ذوى الحسب والنسب ، فقد تحطمت الحواجز بين نبلاء السلاح ونبلاء الرداء وما وافي عام ١٧٨٩ حتى كان ثمة اندماج كامل تقريبا بين الطبقتين . وبلغت الطبقة التي تكونت عندئذ من وفرة العدد والقوة مبلغا لم يستطع الملك معه أن يقف في وجهها أو يقاومها ، وزعماء الثورة وحدهم هم الذين اسنطاعوا أن يقضوا على هذه الامتيازات الباهظة التكاليف .

وانتاب الفقر كثيراً من النبلاء القداى بسبب الاهمال في إدارة ممتلكاتهم أو تغيبهم عنها ، أو بسبب اتباعهم أساليب متخلفة في زراعتها ، أو لإنهاك التربة ، أو خفض قيمة العملة التي كانوا يتقاضون بها إيجار الأرض أو الرسوم الإقطاعية . ولما كان المفروض ألا يشتغل النبلاء بالتجارة أو الصناعة ، فإن نمو هذه وتلك خلق اقتصاداً قائماً على المال ، قد يمتلك المرء في ظله أرضاً شاسعة ولكنه يظل فقيراً . وكان هناك في بعض أقاليم فرنسا مئات من النبلاء يعانون من الفقر مثلما يعاني الفلاحون^(٤) . ولكن أقلية كبيرة من النبلاء تمتعت بثروات ضخمة وبذروا تديراً . فكان الدخل السنوي لمركيز دى فييت ١٥٠ ألف جنيه ، ولدوق دى شفريرز ٤٠٠ ألف جنيه ، ولدوق دى بويون ٥٠٠ ألف جنيه . وأعفى معظم النبلاء من الضرائب المباشرة ، إلا في حالة الطوارئ ، حتى تصبح الحياة لديهم أكثر احتمالا ويسرا . وخشى الملوك أن يفرضوا عليهم الضريبة حتى لا يطالبوا بدعوة مجلس الطبقات ، فقد تفرض الطبقات الثلاث في مثل هذا الاجتماع بعض الرقابة على الملك ثمنا للموافقة على الاعتمادات أو الإعانات . قال توكفيل « كان عدم المساواة في الضرائب يعمل على التفرقة بين الطبقات في كل عام حيث أعفى الأغنياء وأثقل كاهل الفقراء^(٥) » . وفي عام ١٧٤٩ فرضت على النبلاء ضريبة دخل قدرها ٥٪ ولكنهم كانوا يفاخرون بالتهرب منها .

وقبل القرن السابع عشر كان نبلاء الأرض يقومون بمهام الاقتصاد والإدارة والحرب ، وأيا كانت طريقة إحراز الممتلكات . فإن هؤلاء السادة نظموا تقسيم الأرض وفلاحتها ، إما عن طريق الرقيق أو عن طريق عقود الإيجار ، وسهروا على القانون ، وقاموا بإجراءات المحاكمة وأصدروا

الأحكام ، ونفذوا العقوبات ، وتمهلوا المدارس والمستشفيات المحلية ، وزعوا الصدقات. وفي مئات من مناطق السيادة والتفويض مارس السيد الإقطاعي هذه الوظائف والمهام ، بالقدر الذى سمحت به الأمانة الطبيعية فى الإنسان . وقد اعترف الفلاحون بانتفاعهم منه ، ومن ثم فلم يهتم أطاعوه واحترموه وفى بعض الأحيان أحبوهم .

وأدى عاملان أساسيان إلى تبديل هذه العلاقة الإقطاعية : تعيين الحكام أو المحافظين على عهد الكاردينال ريشيليو وما بعده ، وتحويل لويس الرابع عشر لكبار السادة الإقطاعيين إلى رجال حاشية . وكان هؤلاء المحافظون موظفين بيروقراطيين من الطبقة الوسطى ، يبعث بهم الملك ليحكموا الأقسام الاثنتين والثلاثين التى انقسمت إليها فرنسا من الناحية الإدارية . وكانوا عادة ذوى كفاية ومقدرة ونيات حسنة ، ولو لم يكونوا جميعاً من أمثال ترجو . وقاموا بتحسين الأحوال الصحية والإضاءة وتزيين المدن ، وأعادوا تنظيم الشؤون المالية ، وبنوا السدود والخزانات على الأنهار من أجل الري ، أو أقاموا الحواجز اتقاء لخطر الفيضانات ، وزودوا فرنسا فى هذا القرن بشبكة هائلة من الطرق لم يكن لها مثيل فى سائر أنحاء العالم . وشرعوا فى أن يغمروا على جوانبها الأشجار التى تظللها اليوم وتزينها ^(٦) . وسرعان ما زحزح تفوقهم فى الدأب على العمل والمقدرة والكفاية السادة الإقطاعيين المحليين عن حكم الأقاليم ، ورغبة فى التعجيل بهذه الزحزحة التى تركز الحكم فى أيدي هؤلاء المحافظين ، عمد لويس الرابع عشر إلى دعوة السادة الإقطاعيين للانضمام إلى بلاطه الملكى . وهناك عينهم فى وظائف بسيطة ذات ألقاب رفيعة وأوشحة مخدرة . وفقدوا الاتصال بالشئون المحلية على حين ظلوا يحصلون من مزارعهم على الموارد اللازمة للاتفاق على قصورهم وبطانتهم فى باريس أو فرساي . وتشبهوا بحقوقهم الإقطاعية بعد أن تخلوا عن واجباتهم الإقطاعية . إن ضياع المهام الإدارية التى كانوا يقومون بها فى مجال الاقتصاد والحكومة جعلهم عرضة للاتهام بأنهم كانوا طفيليات غير ضرورية عالية على فرنسا .

٢ - رجال الدين

كانت الكنيسة الكاثوليكية قوة أساسية ذات وجود بارز في كل ركن في الحكومة . وقدر رجال الدين الكاثوليك في فرنسا بنحو ٢٦٠ ألفاً في ١٦٦٧^(٧) ، و ٤٢٠ ألفاً في ١٧١٥^(٨) . و ١٩٤ ألفاً في ١٧٦٢^(٩) . وهذه الأرقام كلها من قبيل التعممين ، ولكن قد نفترض انخفاض هذا العدد بنسبة ٣٠ ٪ في القرن الثامن عشر ، على الرغم من تزايد عدد السكان ، وحسب لاكروا أن فرنسا كان فيها عام ١٧٦٣ ، ١٨ رئيس أساقفة ، ١٠٩ أساقفة ، و ٤٠ ألف قسيس ، و ٥٠ ألف مساعد قسيس ، و ٢٧ ألف رئيس دير ، و ١٢ ألف كاهن ، و ٢٠ ألف كاتب (من رجال الدين) ، ومائة ألف راهب وراهبة وعضو أخوية دينية^(١٠) ، ومن بين ٧٤٠ ديراً كان هناك ٦٢٥ ديراً يتولى شئونها مساعدو رؤساء أديار ، لمصلحة رؤساء أديار متغيبين عنها وكانوا يتمتعون باللقب وينصف أو ثلثي دخل الدير ، دون أن يكون مطلوباً منهم أن يحيا حياة كنسية .

وكان رجال الدين الأعلى مرتبة يشكلون من الوجهة العملية فرعاً من النبلاء ، وكان الملك يعين كل الأساقفة ، عادة ، بناء على ترشيح السادة الإقطاعيين المحليين ، على شرط موافقة البابا . ورغبة من الأسرات ذوات الألقاب في عدم تفتيت ممتلكاتهم بالتوريث ، كفلت لصغار أبنائها المناصب الأسقفية ومناصب رؤساء الأديار ، حتى أنه في ١٧٨٩ لم يكن من بين المائة والثلاثين أسقفاً في فرنسا إلا واحداً فقط من الأفراد العاديين غير ذوي الألقاب^(١١) . وأدخل أبناء الأسرات العريقة هؤلاء معهم إلى الكنيسة عاداتهم التي درجوا عليها في التمتع بترف الدنيا وزخرفها . ومن ذلك أن الإمبر الكاردينال إدوارد دي روهان كان في القدامى يرتدى ثوباً كهنوتياً له حواش من المخمرات المعقودة ، قدرت قيمته بمائة ألف جنيه ، وكانت أدوات مطبخه من الفضة الخالصة^(١٢) . وفسر رئيس الأساقفة ديللون دي ناربون للويس السادس عشر ، السبب في أنه أي رئيس الأساقفة ، استمر

« ممارسة الصيد بعد أن أحرمه على رجال الدين في أسقفيته ، بقوله « مولاى إن رذائل رجالى من عند أنفسهم ، ولكنى ورثت رذائلى أنا عن أسلافى » (١٣) لقد انقضى العصر الزاهر لرجال الكنيسة - من أمثال بوسويه وفينلون وبوردللو - وأفسح المرح الابيقورى الصاخب فى عهد الوصاية المجال أمام رجال مثل ديبواوتنسان للترقى فى مناصب الكنيسة على الرغم من انغماسهم فى ملذات الصيد بنوعيه ، اقتناص الحيوان واصطياد النساء . وقضى كثير من الأساقفة معظم حياتهم فى فرساي أو باريس ، مشاركين البلاط الملكى بهجته ومسراته ومبازله ، فاحتفظوا بقدم فى الآخرة وقدم الدنيا ، ولم ينسوا نصيبهم من متاعها .

وكان للأساقفة ورؤساء الأديار حقوق السادة الإقطاعيين وواجباتهم ، حتى إلى حد تقديم ثور لخدمة أبقار فلاحهم (١٤) . وكانت ممتلكاتهم الشاسعة ، التى كانت تضم أحياناً مدن بأمرها ، تدار كما تدار الممتلكات الإقطاعية . وكان جزء كبير من مدينة فرن ومعظم الأرض المحيطة بها ملكاً للأديار (١٥) ، وفى بعض الكوميونات (وحدات التقسيم الإدارى) ، عين الأسقف كل القضاة والموظفين ، وهكذا عين رئيس أساقفة كبراي الذى كان السيد الأعلى على منطقة تضم ٧٥ ألفاً من السكان كل رجال الإدارة فى كاتوكبرسيس ، ونصفهم فى كبراي (١٦) . وعمر نظام الرقيق لأطول فترة فى ضياع الأديار (١٧) وكان للكهنة فى سان كلود فى جبال جورا اثنا عشر ألفاً من الرقيق ، وقاوموا بشدة الانتقاص من الخدمات الإقطاعية (١٨) . وارتبطت حصانات الكنيسة وامتيازاتها بالنظام الاجتماعى القائم ، كما جعلت هيئة الكنيسة أقوى تأثير عاقل على القديم يناهض أى تغيير فى فرنسا .

وجمعت الكنيسة سنوياً ، مع شىء من الاعتدال ومراعاة الظروف ، العشور عن نتاج كل مالك أرض وماشية ، ولكن هذا نادراً ما كان العشر فى الواقع ، بل كان فى الكثير الغالب جزءاً من اثنى عشر ، وأحياناً جزءاً من عشرين (١٩) . وبهذه العشور ، بالإضافة إلى الهبات والوصية والتوريث ، وبدخل العقارات الثابتة ، احتفظت الكنيسة بكهنة أبرشياتها فقراء معوزين

على حين هاشر الأساقفة مترفين منعمين . وأغاثت الكنيسة المحتاجين المعدمين وعلمت الصغار ولقنتهم مبادئها . وفي المقام التالى بعد الملك وجيشه ، كانت الكنيسة أقوى وأغنى سلطة فى فرنسا . وكانت تمتلك ، طبقا لمختلف التقديرات ، ما بين ٦ ٪ و ٢٠ ٪ من الأرض (٢٠) ، وثالث الثروة (٢١) . وكان دخل أسقف سنس السنوى ٧٠ ألف جنيه ، وأسقف بوفيه ٩٠ ألفاً . ورئيس أساقفة روان ١٠٠ ألف ، ورئيس أساقفة ناريون ١٩٠ ألفاً ، ورئيس أساقفة باريس ٢٠٠ ألف . أما رئيس أساقفة ستراسبورج فقد أربى دخله السنوى على المليون من الجنيهات (٢٢) . وكان رأس مال كنيسة بريمونثريه بالقرب من لاؤون ٤٥ مليوناً من الجنيهات . أما الإخوة الدومنيكان البالغ عددهم ٢٣٦ فى تولوز فقد بلغت مقتنياتهم من الأملاك الفرنسية والمزارع فى المستعمرات ومن الرقيق الأسود ما قدرت قيمته بعدة ملايين من الجنيهات أما رهبان سانت مور فقد بلغت قيمة ممتلكاتهم ٢٤ مليوناً من الجنيهات تدر ثمانية ملايين فى العام .

ولم تدفع الكنيسة أية ضرائب عن شئ من ممتلكاتها أو دخلها ، ولكن كبار رجال الدين كانوا يقررون بصفة دورية فى المجالس الوطنية لإعانة اختيارية للدولة . وفى ١٧٧٣ بلغت هذه الإعانة ستة عشر مليوناً من الجنيهات لمدة خمس سنوات . وقد اعتبرها فولتير نسبة عادلة من دخل الكنيسة (٢٣) . وفى ١٧٤٩ اقترح ماشول دى ارنوفيل المراقب العام المالى أن يستبدل بهذه المنحة الاختيارية ضريبة مباشرة سنوية قدرها ٥ ٪ من مجموع الدخل تفرض على الكنيسة وعلى عامة الناس وخشى رجال الدين أن تكون هذه خطوة أولى نحو سلب أموال الكنيسة بغية انقاذ الدولة ، فقاوموا الفكرة فى « غضب شديد واصرار » (٢٤) . كذلك اقترح ماشول تحريم التوريث بالوصية للكنيسة دون موافقة الدولة ، وإلغاء المؤسسات الدينية التى قامت منذ ١٦٣٦ دون ترخيص من الملك ، ومطالبة شاغلى الرتب الكنسية ذوات الدخل بتقديم تقرير عن عن مواردهم إلى الحكومة . وأبت جمعية انعقدت من رجال الدين الامتثال لهذه القرارات ، وقالوا : « لن نوافق إطلاقاً على أن يصبح ما كان حتى الآن ثمرة حبتنا وإجلالنا ضريبة على طاعتنا » ، وأمر لويس الخامس عشر

بفض الاجتماع ، كما أصدر المجلس الملكي أوامره إلى المحافظين بجمع ضريبة أولية مقدارها سبعة ملايين ونصف مليون جنيه على أملاك الكنيسة .

وحاول فولتير تشجيع ماشول والملك فأصدر كتباً عنوانه « صوت الحكمة وصوت الشعب » حرض فيه الحكومة على أن تفرض سيطرتها على الكنيسة ، وأن تحول دون أن تكون الكنيسة دولة داخل الدولة ، وأن تعهد إلى فلاسفة فرنسا بالدفاع عن الملك والوزارة ضد كل قوى الخرافة^(٢٥) . ولكن لويس الخامس عشر لم ير سبباً يدعو إلى الاعتقاد بأن الفلسفة في مقدورها أن تكسب الجولة في الحرب مع الدين . وأدرك أن نصف سيادته وسلطانه يتركز على مسحه بالزيت المقدس وتوجيهه بأيدي رجال الكنيسة ، ليصبح بعد ذلك — في نظر الجماهير التي ليس في مقدورها أن تدنو منه إلى حد تستطيع معه إحصاء عدد محظياته — نائب الله الذي يتحدث بمقتضى التفويض الإلهي . ان الإرهاب الروحي الذي يبثه رجال الدين في النفوس وتعززه قوى التقاليد والعادات والاحتفالات الدينية والملابس الكهنوتية والهيبة ، نقول إن هذا الإرهاب قام مقام ألف من القوانين ومائة ألف من رجال الشرطة في المحافظة على النظام الاجتماعي ، والابقاء على طاعة الجماهير وامثالها للحكومة والملك . وهل في مقدور أية حكومة ، دون دعم من الرجاء والخوف الخارجين للطبيعة ، أن تسيطر على ما فطر عليه الناس من نزعة التمرد على القانون أو عدم الخضوع له ؟ وعقد الملك عزمه على الاستسلام للأساقفة ، ونقل ماشول إلى منصب آخر ، وصادر كتاب فولتير ، ووافق على منحة اختيارية بدلا من الضريبة على أملاك الكنيسة .

إن قوة الكنيسة كانت تعتمد أساساً على نجاح كاهن الأبرشية ، وإذا كان الناس يخشون رجال الدين الذين يضعون التيجان على رؤوسهم (الأساقفة مثلاً) ، فإنهم أحبوا الراعي المحلى الذي شاركهم فقرهم وعوزهم ، وأحياناً كدحهم وكدهم في فلاح الأرض . انهم تذرروا من جمع العشور ، ولكنهم كانوا على يقين من أن رؤساء الراعي هم الذين أرغموه على جمعها ،

وأن ثلثي هذه العصور ذهب إلى الأسقف أو إلى أحد ذوى المناصب الكنسية الغائبين عنها ، على أن كنيسة الأبرشية . ضناها ما كانت تعاني من نخل وحاجة إلى ترميم ، مما تثن منه التقوى نفسها . إن هذه الكنيسة الحبيبة كانت دار بلديتهم ، يعقدون فيها اجتماعاتهم القروية تحت رئاسة الكاهن . وفي سجل الأبرشية ، وهو شاهد بقائهم صابرين متجلدين عبر الأجيال ، كانت تدون مواليدهم وزيجاتهم ووفياتهم . وكان صوت أجراس هذه الكنيسة أنبل موسيقى ترن في آذانهم ، والاحتفالات هي المسرحية التي تشد انتباههم وتبعث فيهم النشاط ، وقصص القديسين ذخائر الأدب عندهم ، كانت أعياد تقويم الكنيسة هي العطلات المحببة إلى نفوسهم . ولم ينظر الناس إلى عظات راعي الأبرشية ونصائحه وتحذيراته أو إلى تعليمه وتربيته لأبنائهم ، على أنها تلقين مبادئ أسطورية لتدعيم لسطان الكنيسة ، بل نظروا إليها على أنها عون لا غنى عنه للنظام الأبوى والانضباط الخلقي ، وعلى أنه إيماء بنظام إلهي يتجلى فيه معنى الخلود الذي خفف من أسلوب حياتهم الممل الجاف في هذه الدنيا . فكادت العقيدة ثمينة أثيرة لديهم إلى حد الاستثارة إلى التثك بمن يحاول انتزاعها منهم . ورحب الولدان النلاحان بالدين جزءا من الواجبات اليومية في البيت ، ونقلوا إلى أولادها الأساطير الدينية ، وواظب الجميع على صلوات المساء والولدان على رأسهم . وكان راعي الأبرشية يحب الناس كما أحوه ، فانضم إليهم في الثورة .

وتناقص عدد الرهبان والراهب واخوة الطوائف الدينية ، ولكن نمت فيهم روح الفضيلة^(٢٦) كما نمت ثروتهم . ونادرا ما كانوا الآن يتسولون أو يعيشون على الصدقات لأنهم وجدوا من الحكمة ومن الخير لهم أن ينتزعوا الوصية بالتوريث من الذين يدنو أجلمهم ثمناً بدلا من أن يستجدوا بعض البنسات في القرية ، وفاضت بعض ثرواتهم على أعمال البر والاحسان ، فأنفق كثير من الأديار على المستشفيات والملاجئ ، ووزعت الطعام على الفقراء يوميا^(٢٧) . وفي ١٧٨٩ ألحت جماعات كثيرة على حكومة الثورة ألا تقضى على الأديار المحلية لأنها كانت المنظمات البارة المحسنة الوحيدة في

نطاق أراضيها . (٢٨) وأدت أديار الراهبات مهام كثيرة تؤدي الآن بطرق أخرى ، فكانت توفر مأوى للأرامل ، وللنساء اللاتي أفترقن عن أزواجهن ، ولل سيدات المراهقات مثل مدام دي ديفان التي رغبت في أن تنأى بنفسها عن صخب الدنيا . ولم تنكر الأديار متاع الحياة الدنيا وزينتها إنكاراً تاماً . فقد استخدمها الأثرياء مأوى لما زاد عن الحد من بناتهم ، وإلا فلن زواجهن إذا لم يلجأن إلى الأديار يتطلب مهوراً تنقص من ميراث الأبناء ، ولم يكن هؤلاء العذارى المنبوذات ميالات دائماً إلى التقشف . وكان للأُم أوريبي (رئيسة دير للراهبات) عربة تجرها أربعة جياد ، وكانت تستقبل في جناحها الفاخر أفراداً من الجنسين . وكانت الراهبات في ألكس يرندين الثنورات ذوات الأطواق الموسعة والأردية الحريرية المبطنة بالفرو ، وكن في أديار أخرى يتناولن العشاء ويرقصن مع ضباط من المعسكرات المجاورة (٢٩) وواضح أن هذه كانت ضرورياً من التسلية البريئة غير الآثمة ، فإن كثيراً من الأفاضل التي رويت عن الفساد الخلقي في الأديار في القرن الثامن عشر كانت مبالغت إشنيعة مثيرة استخدمت في حرب الدعاية بين المذاهب المتنازعة ، وكانت الحالات التي لزم فيها البنات الدير على غير إرادتهن نادرة (٣٠) .

وكان اليسوعيون قد ضعف سلطانهم ومكانتهم . إنهم ظلوا حتى ١٧٩٢ يسيطرون على التعليم ، وكانوا يزودون الملك والملكة بكهنة اعتراف ذوي تأثير قوى ، ولكنهم عانوا من فصاحة بسكال ، ومن تشكك أوصياء العرش غير الأتقياء ، وكانوا يخسرون معركتهم الطويلة المريعة مع الجانسينيين فإن هؤلاء الكاثوليك المتعصبين لعقيدتهم عمروا بعد الاضطهادات الملكية والمراسيم البابوية ، وكان عددهم كبير في مجال الأعمال والمهن والاشتغال بالقانون ، وكانوا يقتربون من الهيمنة على برلمان باريس وغيره من البرلمانات . وبعد موت زعيمهم اللاهوتي المتقشف فرانسوا دي باريس (١٧٢٧) حج الجانسينيون المتحمسون المغشى عليهم إلى جدته في مقبرة سان ميدارد ، وهناك جلدوا أنفسهم بالسياط ، حتى أصاب بعضهم نوبات من

التشنج ، ومن سموا « بالمتشنجين » وتوجعوا وبكوا وابتهلوا إلى الله أن يمن عليهم بالشفاء ، وادعى كثير منهم أنهم برثوا بمعجزة . وبعد ثلاثة أعوام من هذه الأحداث أغلقت السلطات هذه المقابر ، وكما قال فولتير : حرم على الله بأمر من الملك أن يأتى بمعجزات هناك ، وانقطعت التشنجات ، ولكن الباريسيين السريعي التأثير مالوا إلى تصديق المعجزات ، وفى ١٧٣٣ ذكر أحد الصحفيين فى مبالغة ظاهرة أن مدينة باريس الطيبة جانسنية قلبا وقالبا (٣١) . وتحديداً للمرسوم الملكى الصادر فى ١٧٢٠ رفض صفار رجال الدين الامتثال للأمر البابوى الصادر فى ١٧١٣ الذى استنكر فيه البابا انوسنت الثالث عشر مائة مسألة ومسألة زعموا أن الجانسنين آثاروها . وقضى رئيس أساقفة باريس بأن السر المقدس الأخير لا يجوز أن يقدم لأى فرد لم يكن قد اعترف لتقييس كان قد ارتضى الأمر البابوى . واسهم هذا النزاع فى إضعاف مركز الكنيسة المنقسمة أمام هجمات الفلاسفة .

وكان الهيجونوت وغيرهم من البروتستانت الفرنسيين لا يزالون يعتبرون خارجين على القانون ، ولكن مجموعات صغيرة منهم كانت تجتمع سرا . واعتبر القانون أن زوجة البروتستانتى عاهرة وأن أبناءها غير شرعيين ، ليس لهم أن يرثوا أية أملاك . وفى عهد لويس الخامس عشر شنت عدة حملات للاضطهاد والتعذيب . وفى ١٧١٧ قبض على أربعة وسبعين فرنسيا يقيمون الشعائر البروتستانتية ، وأرسلوا للتجديف فى القواديس أو المراكب الشراعية وزج بزوجاتهم فى السجن ، وقضى مرسوم صدر فى ١٧٢٤ بعقوبة الإعدام على الوعاظ البروتستانت ، وبمصادرة أملاك كل من يشهد اجتماعات البروتستانت ، مع إرسال الرجال للتجديف فى السفن الشراعية . وحلق شعور النساء واعتقلهن مدى الحياة (٣٢) وفى عهد الكاردينال فليرى حدث شئ من التراخي فى تنفيذ هذا المرسوم . ولكن بعث من جديد بعد موته ، بناء على طلب الأساقفة الكاثوليك فى جنوب فرنسا (٣٣) . وفى ١٧٤٩ أمر برلمان بورجو بالتفريق بين ٤٦ زوجا وزوجة ، تم زواجهم وفق الطقوس البروتستانتية .

وكان من الجائز انتزاع الأطفال الذين يشتبه في أن آباهم من البروتستانت ؛
لتربيتهم وتنشئهم في بيوت كاثوليكية . ولإناسمع عن رجل ثرى من الهيجونوت
أنفق ٢٠٠ ألف جنيه رشوة للموظفين الرسميين حتى يسمحوا له بالاحتفاظ
بأبنائه . (٣٤) وفيما بين عامى ١٧٤٤ و ١٧٥٣ سجن نحو ٦٠٠ بروتستانى ،
وحكم على ٨٠٠ آخرين بعقوبات مختلفة (٣٥) . وفى ١٧٥٢ شتق فى موبيليه
الواعظ البروتستانى بينز - البالغ من العمر ستة وعشرين عاما . وفى نفس
العام ، أمر لويس الخامس عشر ، تحت تأثير مدام دى بمبادور ، بوضع
حد لهذه الاضطهادات . (٣٦) وبعد ذلك استطاع البروتستانت فى باريس أو
قريبا منها ، أن يتفادوا العقوبات ، على شرط حضور الصلوات الكاثوليكية مرة
فى العام . (٣٧) .

وعلى الرغم من تعصب زعماء الكنيسة وانشغالهم بأمور الدنيا ورغبتهم
فى السلطة والنفوذ ، فقد كان بين رجال الدين الفرنسيين مئآت ممن أمتازوا
بالعلم الغزير والحياة التقيّة النقية . وبالإضافة إلى أولئك الأساقفة الذين بددوا
فى باريس العصور التى جمعوها من الفلاحين ، كان هناك أساقفة آخرون
اتسموا بالطهر والتقوى قدر ما سمحت به المهام الادارية . فكان الكاردينال
لويس أنطوان دى نواى رئيس أساقفة باريس رجلا ذكيا نبلا . وكان
الناس يحبون جان بابتست ماسيون أسقف كليرمونت على الرغم من عظاته
الزاخرة بألوان العلم والمعرفة ، والتى كان فولتير يحب أن يستمع إليها وقت
تناول الطعام ، لجمال أسلوبها على الأقل . أما جبرائيل دى كايوس أسقف
أوكسير فقد وهب كل ثروته للفقراء ، وباع طبقه الفضى ليطعم الجياع ،
ثم اعتذر لمن التمسوا رفته بعد ذلك بقوله « يا أبنائى ، لم يبق لدى شىء
أعطيكم إياه » (٣٨) . ولم يبرح الأسقف فونسوادى بلزونس مكانه وسط
الطاعون الرهيب الذى اجتاح مرسيليا ١٧٢٠ ، حين هلك ثلث سكان المدينة ،
وفر منها معظم الأطباء ورجال الحكم والقضاء . وفى هذا كتب ليمرنى :
« انظروا إلى بلزونس : وأنه أنفق كل ما يملك . لقد هلك كل الذين كانوا
فى خدمته بسبب العدوى ، فسار على قدميه فقيرا بائسا فى الصباح إلى مواطن

(م - ٢ قصة الحضارة)

التعاسة والشقاء ؛ كما كان يرى مساء وسط الأماكن التي اكتظ بها ولوثها أولئك الذين يعانون سكرات الموت ، ليطفئ ظمأهم ، ويواسيهم وكأنه صديق لهم ... وفي ساحة الموت هذه يأخذ بيد الأنفس التي لا معين لها . إن هذا المثل للذي ضربه هذا الأسقف الذي يبدو أنه محصن ضد أى أذى كان كفيلا بأن يدفع كهنة الأبرشيات والقساوسة والطوائف الدينية إلى محاكاته في شجاعته وبسالته ، فلا يتخلى أحد عن موقعه ، ولا يبالي أحد بما يلقي من عناء وتعب ولو ضحى بحياته . وهكذا أودى الوباء ستة وعشرين راهبا ، وبثمانية عشر من بين ستة وعشرين يسوعيا . واستدعى الكيوشيون أنحوتهم من الأقاليم الأخرى ، فسارع هؤلاء إلى الاستشهاد في خفة المسيحيين الأولين وابتهاجهم بمثل هذا العمل . وقضى الطاعون على ثلاثة وأربعين من بين خمسة وخمسين منهم . أما سلوك الرهبان الأوراتوريين (طائفة كاثوليكية) فكان أروع من هذا . فقد بذلوا غاية جهدهم ^(٣٩) .

ولندكر ، ونحن نسجل الصراع المرير بين الدين والفلسفة ، ونشارك الفلاسفة مقتهم للرقابة الخائفة والخرافة الشائنة ، أنه كان هناك بين رجال الكنيسة على اختلاف مراتبهم الورع والتقوى كما كان هناك الغنى والثراء ، بقدر سواء . كما كان هناك الاخلاص مع الفقر بين كهنة القرى ، أما الناس فقد تغلغل فيهم حب راسخ يتعذر المساس به أو النيل منه ، لعقيدة هيأت للزهو الهوى شيئا من الانضباط المنقذ من الضلال ، كما هيأت للأيام العصبية الشاقة رؤيا وجد الناس فيها شيئا من السلوى والعزاء .

٣ - الطبقة الثالثة

١ - الفلاحون :

تساءل « الاقتصاد السياسي » الذي وصمه كارليل بأنه « العلم الكئيب » هل الفقراء فقراء ، لأنهم جهلة ، أم أنهم جهلة لأنهم فقراء . ويمكن أن نجيب عن هذا السؤال ، بالموازنة بين الاستقلال البهيج الذي يفاخر به الفلاح الفرنسي اليوم ، وحالته في النصف الأول من القرن الثامن عشر .

وفي ١٧٢٣ كانت حال الفلاح آنحدة في التحسن بالمقارنة بالمسعى المنحط الذى هبطت به إليه حروب لويس الرابع عشر وابتزازاته . فإنه خضع للرسوم الاقطاعية ولعشور الكنيسة ، إلى جانب إنه امتلك نسبة متزايدة من أرض فرنسا ، كانت تتراوح بين ٢٠٪ في نورماندى وبريتانى و ٥٠٪ في لنجدوك ولیموزين^(٤٠) . ولكن متوسط حصة هؤلاء الملاك الصغار كان ضئيلا - من ثلاثة إلى خمسة أفدنة - إلى حد اضطروا معه إلى الاشتغال بأجر في المزارع الأخرى ليعولوا أسرهم . فإن معظم الأرض كانت ملكا للنبلاء أو رجال الدين أو الملك ، وكانوا يفلحها مستأجرون أو مزارعون نظير جزء من المحصول ، أو عمال مياومة تحت إشراف قهرمان أو وكيل مسئول . وكان المالك يتقاضى من المستأجر مالا وخدمة وخدمات اما المزارعون فكانوا يعطون المالك نصف المحصول في مقابل الأرض والآلات الزراعة والبلدور .

وعلى الرغم من تزايد ملكية الفلاح ظلت هناك بقايا إقطاعية كثيرة ، فإن أقلية ضئيلة من الملاك قد لا تتجاوز ٢ ٪ هي التي وضعت يدها على أراض معفاة من الرسوم الاقطاعية . وكل الفلاحين باستثناء مالكي هذه الأرض المعفاة ، كان مطلوبا منهم أن يعموا للسيد الإقطاعى المحلى لعدة أيام في السنة تكفى لحرق أرضه وبلدورها ، وحصاد محصولها وتخزينه . وكانوا يدفعون له رسوما مقابل صيد السمك في البحيرات أو الجداول المائية ومقابل رعى ماشيتهم في الحقول ، مما يقع في زمام أرضه . (في فرائش كومتيه ، وأوفرن ، وبريتانى ، حتى قيام الثورة كانوا يدفعون له مبلغا من المال مقابل الاذن لهم بالزواج^(٤١) . وكان لزاما عليهم أن يستخدموا طاحونه ونخبزه ومعصرة النبيذ أو الزيت التابعة له ، وليس غيرها . وأن يدفعوا له مالا في كل مرة يستخدمون فيها شيئا من هذه . كما نفذوه مالا عن كل مستوقد أقاموه وكل بئر حفروه وكل جسر عبروه في نطاق أرضه (إن بعض أمثال هذه الانرائب موجود بيننا الآن في أشكال متغيرة ، وتدفع للدولة) . وكانت القوانين تحرم على السيد ورفاقه الاضرار بمزروعات الفلاح

أو حيواناته عند الصيد ، ولكن هذه القوانين إغفلت إغفالا شديداً ، وكان محظورا على الفلاح أن يطلق النار على حمام السيد ، وهى تأكل محصوله^(٤٢) وبناء على تقدير يتسم بالتحفظ بلغت الرسوم الإقطاعية جملتها نحو ١٤ ٪ من إنتاج الفلاح أو دخله ، وهناك تقديرات ترفع من هذه النسبة^(٤٣) .

وفى بعض الأماكن بقى الرق بمعناه الحقيقى ، وقدر مؤرخ اقتصادى مشهور أن عدد الرقيق فى فرنسا فى القرن الثامن عشر لم يجاوز المليون^(٤٤) ، ونقص عددهم ، ولكن فى ١٧٨٩ كان لا يزال فى فرنسا نحو ٣٠٠ ألف من الأرقاء^(٤٥) ومثل هؤلاء الفلاحين كانوا مرتبطين بالأرض ولم يكونوا يستطيعون قانونا أن يهجروا أرضهم أو يبيعوها أو ينقلوها أو يغيروا محال إقامتهم دون موافقة سيدهم . فإذا ماتوا دون أبناء كانوا يعيشون معهم ، وعلى استعداد للنهوض بشئون المزرعة ، آلت المزرعة بكل معداتها إلى السيد .

وكان على الفلاح ، بعد دفع الرسوم الإقطاعية وعشور الكنيسة ، أن يجد مالا أو يبيع شيئاً من نتاجه أو ممتلكاته ليواجه الضرائب التى تفرضها عليه الدولة . ودفع الفلاح وحده ضريبة الأراضى ، وبالإضافة إلى ذلك دفع ضريبة الملح ، و ٥ ٪ من الدخل ضريبة الرأس عن كل فرد فى البيت . وبهذا كان يدفع فى الجملة ثلث دخله للمالك والكنيسة والدولة^(٤٦) وكان من سلطة جباة الضرائب أن يدخلوا أو يقتحموا كونه ، ليفتشوا عن المدخرات الخبأة ، ويستولوا على الأثاث تسديداً لمبلغ الضريبة المفروضة على الأسرة . وكما كان الفلاح ملزماً بالعمل ودفع الرسوم لسيد ، فإنه بعد ١٧٣٣ كان ملزماً بأن يعمل للدولة بدون أجر من ١٢ إلى ١٥ يوماً فى السنة ، فى إقامة الجسور وبناء الطرق أو إصلاحها (أعمال السخرة) . وكان يعاقب بالسجن إذا قاوم أو توانى .

ومنذ تصاعدت الضرائب بازدياد الدخل والتحسينات ، فإنه لم يكن ثمة ما يحفز الفلاحين على الابتكار والعمل والمغامرة . وظلت أساليب الزراعة

بدائية في فرنسا ، إذا قورنت بالأساليب في إنجلترا المعاصرة . وكانت فرنسا تتبع نظام اراحة الأرض الذى يقضى بترك كل قطعة دون زراعة سنة في كل ثلاث سنين ، على حين أدخلت إنجلترا نظام الدورة الزراعية . وكانت الزراعة المكثفة غير معروفة تقريباً ، والمحاريت الحديدية نادرة الوجود . وكانت الحيوانات قليلة العدد في المزرعة ، كمان كان السهاد قليلا . وكان متوسط الأرض المملوكة ضئيلا إلى حد لا يسمح باستخدام الآلات بشكل مجز .

وروع السائحون الإنجليز في ذلك العصر لفقر الفلاح الفرنسى . ففي ١٧١٨ كتبت السيدة مارى مونتاجو : « في كل محطة كنا نقف فيها لتبديل خيول البريد كان أهل البلدة جميعاً يخرجون إلينا يسألوننا إحسانا ، في وجوه أضناها البؤس والجوع وملابس رثة ممزقة ، وما كانوا بعد ذلك في حاجة إلى دليل أبلغ من ذلك لإقناعنا بتعاسة أحوالهم ^(٤٧) . ولم يرسم المراقبون الفرنسيون صورة أكثر إشراقاً من هذه إلا في وقت متأخر من هذا القرن . وقال سان سيمون : « في ١٨٢٥ كان الناس في نورماندى يعيشون على حشائش الحقول . ان أول ملك في أوروبا عظيم لمجرد كونه ملك الشعاذين . وتحويله مملكته إلى مستشفى فسيح الأرجاء يقيم فيه أناس يعانون سكرات الموت . انتزع منهم كل شيء دون أن يدوا شيئاً من التدمير ^(٤٨) » . وفي ١٧٤٠ حسب المركز رينيه لويس دى أرجنسون ، أن عدد الفرنسيين الذين ماتوا بسبب الفقر والعوز في العامين الأخيرين أكبر من عدد من قتلوا في حروب لويس الرابع عشر كلها ^(٤٩) . وقال بسنارد : « كانت ملابس الفقراء من الفلاحين - وكانوا كلهم تقريباً فقراء - تدعو إلى الاشفاق والرثاء ، حيث لم يكن لدى الفرد منهم إلا ثوب واحد للصيف والشتاء معا أما الحداء الوحيد (المرقع الواهى المثبت بالمسامير) الذى اقتناه عند زواجه ، فكان لزاماً أن يستعمله بقية أيام حياته ، أو على الأقل طيلة بقاء الحداء ^(٥٠) » . وقدر فولتير أن مليونى فلاح فرنسى كانوا يستخدمون نعالا خشبية في الشتاء ، وكانوا يسبرون حفاة الأقدام في الصيف ، لأن

الضرائب الباهظة المفروضة على الجلود جعلت الأحذية ضرباً من الترف (٥١) أما مسكن الفلاح فكان يبنى من الطين مع سقف من القش ، وكان عادة يتكون من غرفة واحدة ، منخفضة لا سقف لها في بعض الأجزاء في شمال فرنسا ، على أن الأكواخ كانت تبني بطريقة أقوى حتى تحتمل البرد والرياح في الشتاء . وكان طعام الفلاح يتألف من الحساء والبيض ومنتجات الألبان وخبز الشعير أو الشوفان . أما اللحم وخبز القمح فكان أكلهما إسرافاً طائفاً (٥٢) . ففي فرنسا ، كما هو الحال في أي مكان آخر ، كان أولئك الذين يطعمون الأمة لا يملكون من الغذاء إلا أقله .

ووجد الفلاح بعض العزاء والسلوى من هذه الحياة الشاقة في الخمر والدين . وكانت الحانات كثيرة وصنع الجعة في الدار مشجعاً . وكانت الأخلاق خشنة جافة ، طابعها الوحشية . وكثيراً ما تفجرت أعمال العنف بين الأفراد والأميرات والقرى . ولكن سادت الأسرة عاطفة حب قوية ، ولو أنها صامتة ، وكان الأبناء كثيرين ، ولكن اختلطت يد المنون معظمهم قبل أن يبلغوا رشدهم . وكاد ألا يكون هناك زيادة في سكان فرنسا فيما بين عامي ١٧١٥ و ١٧٤٠ . فقد أحدثت الحرب والمرض والقحط أثرها بانتظام وفق ما جاء في نظرية مالتس .

٢ - البروليتاريا العمال الكادحون .

وكان خدام المنازل أدنى مكانة من الفلاحين في السلم الاجتماعي ، وكانوا فقراء إلى حد لم يهتأ إلا لقليل منهم أن يتزوجوا . وكانت طبقة البروليتاريا في المدن أعلى قليلاً من الفلاحين ، وكانت تشكل الحرفيين في الحوانيت والمصانع وحامل البضائع ومتعهدي الخدمات وعمال البناء أو الترميم . وكان معظم الصناعة لا يزال منزلياً أو محلياً يقوم في أكواخ ريفية أو في الدور في المدن الصغيرة . وكان التجار يقدمون المواد الخام ، ويجمعون الإنتاج ، ويستولون على كل الربح تقريباً . وكانت الصناعة في المدن إلى حد كبير في الطور النقابي (نظام نقابات العمال وطوائفهم في العصور الوسطى) ، فكان هناك المعلمون والعلماء الذين يتدربون ، وعمال المياومة المهرة ،

يعملون جميعا وفقاً للقواعد القديمة التي حددت النقابة والحكومة عمقتضاهما ساعات العمل وشروطه ، وطرز الإنتاج ونوعيته وسعره والمنطقة المحدودة المسموح فيها بالبيع . إن هذه التنظيمات والقواعد جعلت من التحسينات أمراً عسيراً ، واستبعدت حافز المنافسة الخارجية ، وأسهمت مع رسوم التجارة الداخلية في تعويق التنمية الصناعية . وكانت النقابات قد أصبحت أرسقراطية عمالية ، وارتفعت الرسوم على القبول في سلك المعلمين الصناعيين إلى ألقى جنيه ، واتجهت هذه المهنة إلى أن تكون وراثية . (٥٣) وكان العمل في الحوانيت يبدأ مبكراً وينتهي متأخراً . وكان عامل المياومة حول فرساي يبدأ عمله في الرابعة صباحاً وينتهي منه في الثامنة مساءً . (٥٤) ولكن العمل كان أقل اجهداً منه في المصانع اليوم ، كما أن أعياد الكنيسة هيأت أيام عطلة كثيرة .

وكانت الصناعة في معظمها « صغيرة » تستخدم ثلاثاً أو أربعاً من « الأيدي العاملة » من خارج الأسرة . بل أن المدايغ ومصانع الزجاج والمصابيح كانت مؤسسات صغيرة . وكان عدد العمال في بوردو لا يتجاوز أربعة أمثال أصحاب العمل . واحتفظت الحكومة على أية حال ببعض مصانع كبيرة - مصانع الصابون ، ومصانع نسيج الجوبلان (المزدان بالرسوم) ومصانع الخزف الصيني في سيفر . وأخذت عملية التعدين في التوسع بعد أن حل الفحم محل الخشب في الوقود . وثارا الاحتجاجات على دخان الفحم الذي يلوث الهواء ، ولكن الصناعة آنذاك ، كما هو الحال اليوم ، مضت تشق طريقها ، وتعرضت صحة الناس في باريس ، وفي لندن على حد سواء ، للخطر نتيجة لتنفس هذا الهواء الملوث . وكانت هناك مصانع للصلب في دوفيني ، ومصانع للورق في أنجوموا . وتوسعت مصانع النسيج توسعاً ملحوظاً في الشمال ، فاستخدم فان روييه ١٥٠٠ عامل في مصنع واحد في آبقيل واستخدم فان دركروسن ثلاثة آلاف رجل في ليل (٥٥) . وشجع ازدياد العمال هذا على تقسيم العمل والتخصص فيه ، وحفز على اختراع الآلات للعمليات المكررة على نسق واحد (الروتينية) وتضمنت دائرة

معارف ديدرو (١٧٥١ وما بعدها) أوصافا ورسوماً مذهشة لآلات متنوعة معقدة أدخلت بالفعل في الصناعة في فرنسا ، ينذر أن تكون قد نالت استحساناً أو ترحيباً من البروليتاريا . وحين أقيم نول جاكوار (لحياسة الأقمشة المصورة) في ليون ، عمد بجمال نسج الحرير إلى تهشيمه ، خشية أن يلقي بهم في عرض الطريق بلا عمل ^(٥٦) .

ورغبة في تشجيع الصناعات الجديدة فإن حكومة فرنسا - كما فعلت حكومة إنجلترا في عصر الزايت - منحت عدة احتكارات ، مثال ذلك أنها منحت أسرة فإن روبية احتكار انتاج الأقمشة الهولندية الرفيعة ، كما ساعدت مشروعات أخرى بمعونات وقروض دون فوائد . وفرضت الحكومة على كل الصناعة تنظيماً صارماً موروثاً عن كولبير . وأثار هذا الأسلوب اعتراضاً متزايداً من جانب أصحاب المصانع والتجار الذين دفعوا بأن الاقتصاد ينمو ويزدهر إذا تحرر من تدخل الحكومة ، وترديداً لهذا المطلب ، قال فنسنت دى جورناى (حوالى ١٧٥٥) عبارة التاريخية اتركه وحده « اتركه يعمل » التي عبرت في الجيل التالى ، على لسان فرنسوا كنى وترجو ، عن المذهب الفيزيوقراطى الذى نادى بحرية العمل والتجارة .

واستاء الحرفيون أيضاً من هذه القواعد والتعليمات التي وقفت حجر عثرة في سبيل تنظيمهم من أجل ظروف عمل وأجور أفضل . ولكن أهم ما هاج حفيظتهم هو أن عمال الريف والمصانع كانوا ينتزعون السوق من أيدي النقابات . فما وافى عام ١٧٥٦ حتى كان أصحاب المصانع قد هبطوا بالحرفيين في المدن الكبرى - حتى بالمعملين النقابيين - إلى مستوى الإجراء الذين يعتمدون في عملهم على المقاولين أو الملتزمين . ^(٥٧) وفي نطاق النقابات أجرى المعلمون - تخفيضاً في أجور عمال المياومة الذين عمدوا إلى الاضراب على نحو دورى . وكان الفقر في القرى شديداً مثلما هو في المدن تقريباً . ووصل نقص المحاصيل بالطبقة الكادحة ، البروليتاريا ، في المدن إلى حد المجاعة والشغب كل بضع سنين ، كما حدث في تولوز ١٧٤٧ ، وفي باريس

١٧٥١ ، وفي تولوز ١٧٥٢ ^(٥٨) وكان القسيس الملحد جان مزلييه قد اقترح بالفعل ، حوالى ١٧٤٩ استبدال شيوعية قائمة على الحرية بالنظام القائم ^(٥٩) .

وفي أواسط القرن كانت باريس وروان وليمون وبوردو ومرسيليا تعج بالبروليتاريا . وتفوقت ليون بوصفها مركزا صناعيا لبعض الوقت على باريس . وقد وصفها الشاعر الانجليزى توماس جراى فى ١٧٣٩ بأنها « ثانية مدن المملكة من حيث الاتساع والمكانة . وشوارعها يالغة الضيق والقذارة ، ودورها يالغة الإرتفاع والاتساع (تتكون الدار من خمسة طوابق فى كل طابق ٢٥ غرفة) ، مكتظة بالسكان » . ^(٦٠) وكانت باريس حلية هائجة ، يقطنها ٨٠٠ ألف منهم ١٠٠ ألف خادم ، و ٢٠ ألف متسول ، وفيها الأكواخ الكثيرة والقصور الفخمة ، والأزقة والحارات المظلمة والشوارع القذرة وراء المتنزعات الأنيقة ، وفيها الفن إلى جانب الأملاق والفقير المدقع . وسارت فيها المركبات الكبيرة والمركبات العامة ذات الحواد الواحد والمحفات يصطدم بعضها ببعض مع تبادل السباب والشتائم ، واختناق شديد فى حركة المرور . وكانت بعض الشوارع قدر صفت منذ ١٦٩٠ . وفى عام ١٧٤٢ رصف تريساكيه الطرق بأحجار ملساء ، ولكن معظم الشوارع كانت قلدة تماما ، مملوءة بالحصى الكبير الذى يصلح لإقامة المتاريس فى أثناء الثورات . وبدأت مصابيح الشوارع تحل محل الفوانيس فى ١٧٤٥ ولكنها لم تكن تضاء إلا إذا لم يكن القمر بدرا . وظهرت لافتات أسماء الشوارع فى ١٧٢٨ . ولكن لم توضع للبيوت أرقام قبل الثورة . وكان للأغنياء وحدهم صنادير ماء فى بيوتهم ، أما سائر الناس فكان يزودهم بالماء عشرون ألف سقاء يحمل الواحد منهم دلوين يصعد بهما أحيانا سبع مجموعات من درجات السلم . أما المراحيض فى المنازل والحمامات المزودة بالماء الجارى الساخن والبارد ، وكانت امتيازاً لكبار الأثرياء . وظلت آف الحوانيت ، المشهورة بشعاراتها الرائعة المثيرة ، على حالتها من الفوضى فى الموازين والمقاييس المتضاربة والمشتبه فيها ، إلى أن وضعت الثورة النظام المترى (العشرى) . وكان هناك أصحاب حوانيت أمناء فى « متاجر الثقة » ، ولكن الغالبية

اشتهرت بالتطفيف في المقاييس والتلاعب في الأسعار ورداءة أنواع السلع. (٦١) وكان بعض الحوانيث ينتحل عظمة زائفة خداعة لأن أصحابها كانوا يستقلون العربات . وكان الفقراء من الناس يعتمدون في شراء حاجياتهم أسامنا على الباعة المتجولين الذين حملوا بضاعتهم جاهدين في دلاء أو سلال على ظهورهم، والذين أسهموا في موسيقى الشوارع بصيحاتهم ونداءاتهم التقليدية غير المفهومة التي يدعون بها الناس إلى الشراء ، من « البطاطس المطبوخة » إلى الموت للفئران « فقد نازعت الفيران الناس على تيسيرات السكنى في المدينة ، وزاحم الرجال والنساء والأطفال الفيران في مسابقة الحصول على الطعام . قال رجل فارسي كان في زيارة مونتيكيو : « البيوت مرتفعة إلى حد يظن معه أنه لا يقطنها إلا منجمون . ولك أن تتخيل مدينة بنيت في الهواء ، فيها أقيمت ستة أو سبعة منازل الواحد منها فوق الآخر وهي مزدحمة بالسكان ، حتى إذا نزلوا جميعا إلى الشارع ، رأيت هناك حشدا رائعا . لقد بقيت هنا شهرا ، لم يقع نظري فيه على شخص واحد يسير بخطى وثيدة . وليس في العالم كله مثل الرجل الفرنسي وهو يجتاز الطريق ، إنه يعدو أو يطير . (٦٢) أضف إلى ذلك المتسولين والمتشردين والنشالين والمغنين في الشوارع والنافخين في الأرغن والدجالين بائعي الأدوية الزائفة . وجملة القول أنهم شعب تشيع فيه مائة من أخطاء البشر ، لا يوثق به إطلاقا ، متلهف على الكسب ، مسرف في الدنس والتجديف بكل معنى الكلمة . ولكنه إذا أوتي اليسير من الطعام والنبيل فهو أطف شعوب العالم وأكرمها وأكثرها مرحا وابتهاجا .

٣ - البرجوازية :

وفيا بين الطبقتين الدنيا والعليا قامت الطبقة الوسطى . تضم لها أولاها البغض والكراهية، وتزديها الثانية ، وكانت تضم الأطباء والأساتذة ورجال الإدارة وأصحاب المصانع والتجار ورجال المال ، وهي طبقة شقت طريقها إلى الثروة والنفوذ والسلطة في حذق ومهارة وصبر وجلد .

وقام أرباب المصانع بمغامرات اقتصادية وتطلبوا من أجلها عائدا وفاقا . وشكروا من أنهم يتعرضون لمائة من المضايقات التي تسببها لهم تعليمات الحكومة ورقابة النقابات على السوق والعمال المهرة ، واغناظ التجار الذين يوزعون المنتجات من فرض ألف من المكوس والرسوم التي تعوق حركة البضائع ، ذلك أنه عند كل نهر أو قناة أو مفترق طرق كان هناك وكيل عن النبيل أو رجل النيسة مالك الأرض ، ليتقاضى رسما على الترخيص بمرور البضائع . وأوضح السيد المالك أن هذه المكوس إنما هي تعويض معقول له عما ينفق في صيانة الطرق والجسور والمعابر وإصلاحها لتبقى صالحة للاستعمال . وألغى مرسوم ملكي صادر في عام ١٧٢٤ ألفا ومائتين من هذه المكوس ، ولكن بقيت بعد ذلك منها مئتا لعبت دورا في كسب البورجوارية إلى جانب الثورة وتأييدها لها .

أما التجارة الفرنسية التي كانت معوقة في الداخل فقد انتشرت واتسعت فيما وراء البحار . وسيطرت مرسيليا ، وكانت ميناء حرة ، على تجارة أوروبا مع تركيا والشرق . ومدت شركة الهند التي أعيد تأسيسها ١٧٤٣ ، أسواقها ونفذها السياسي في البحر الكاريبي ووادى الميسيني وأجزاء من الهند . ورفعت بوردو ، وهي ، المنفذ الرئيسي لتجارة الأطلنطي ، تجارتها البحرية من أربعين مليونا من الجنيهات في عام ١٧٢٤ إلى ٢٥٠ مليونا في ١٧٤٨ . وأبحر أكثر من ٣٠٠ سفينة سنويا من بوردو ونانت إلى أمريكا ، يحمل معظمها العبيد ليعملوا في مزارع قصب السكر في جزر الأنتيل ولويزيانا^(٦٣) . وفاقت نسبة المبيعات من السكر المنتج من أمريكا الفرنسية مثيلتها من السكر الإنجليزي المنتج في جامايكا وباربادوس في الأسواق الأوروبية ،^(٦٤) وربما كان هذا من أسباب حرب السنين السبع ، وارتفعت جملة تجارة فرنسا الخارجية من ٢١٥ مليونا من الجنيهات في ١٧١٥ إلى ٦٠٠ مليون في ١٧٥٠ .^(٦٥) وقدر فولتير أن عدد السفن التجارية التي استخدمتها فرنسا زاد من ٣٠٠ سفينة في ١٧١٥ إلى ٨٠٠ في ١٧٣٨ .^(٦٦)

وكانت الأرباح المتزايدة من التجارة البحرية للدافع الأساسي لغزو

المستعمرات . وكانت حماسة التجار والمبشرين الفرنسيين قد كسبت لفرنسا معظم كندا وحوض الميسيسيبي وبعض الجزر في البحر الكاريبي . وتحدثت إنجلترا هذه الممتلكات الفرنسية على اعتبار أنها تضيق الخناق على مستعمراتها في أمريكا وتعرضها للخطر . والحرب هي التي يمكن أن تحسم هذه القضية ، ودب الخلاف بين إنجلترا وفرنسا في الهند بسبب منافسة مماثلة . وكان الفرنسيون في ١٦٨٣ قد وطلدوا مركزهم في بوندشيري على الساحل الشرقى جنوبى مدراس ، وفي ١٦٨٨ حصلوا من امبراطور المغول على حق السيطرة الكاملة على شاندرناجور شمالى كلكتا . وفي ظل القيادة النشيطة اليقظة لجوزيف دوبليكس ، استولى هذان الثغران على كثير من التجارة والثروة إلى حد أحست معه شركة الهند الشرقية الانجليزية ، التي كانت قد أقامت لها مراكز في مدراس (١٦٣٩) وبمباي (١٦٦٨) وكلكتا (١٦٨٦) - أنها مضطرة إلى خوض الحرب مع الفرنسيين من أجل مملكة المغول التي تتميز أوصالها .

ولما رأت إنجلترا وفرنسا أنهما على طرفي نقيض في حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٤) فإن ماهي دى لابوردونيه - الذي كان قد ضرب رقما قياسيا في الاقدام والمغامرة في إدارة جزر موريشيوس وبوربون الفرنسية في المحيط الهندي - عرض على حكومة فرساي خطة « للقضاء على التجارة وعلى المستعمرات الانجليزية في الهند » . (٦٧) وهاجم مدراس بأسطول فرنسي ، بموافقة دوبليكس الحسود ، وسرعان ما أرغم المدينة على الاستسلام (١٧٤٦) وتحت مسؤوليته الخاصة وقع مع السلطات الانجليزية اتفاقية تقضى بإعادة مدراس إليهم لقاء تعويض قدره ٤٢٠ ألف جنيه . ورفض دوبليه التصديق على الاتفاقية ، ولكن لابوردونيه أصر في عناد ، وأبحر على سفينة هولندية إلى أوربا : وأسرت سفينة إنجليزية ، وأطلق سراحه تحت وعد شرف ، ودخل باريس فزج به في الباستيل بتهمة التمرد والخيانة ، وطلب المحاكمة ، وبعد عامين قضاهما في السجن حوكم وقضى له بالبراءة (١٧٥١) وتوفي ١٧٥٣ . وفي تلك الأثناء حاصر أسطول إنجليزي قوى بوندشيري (أغسطس

(١٧٤٨) فدافع عنها دوبليكس دفاعا مجيدا حتى رفع الحصار عنها (أكتوبر) . وبعد ذلك بسبعة أيام وصلت الأنباء إلى الهند بأن معاهدة إكس لاشابل أعادت مدراس إلى إنجلترا . ذلك أن الحكومة الفرنسية أدركت أنه مقضى عليها بالهزيمة في الهند بسبب ضعف قواتها البحرية ، فرفضت أن تدعم مشروعات دوبليكس في الغزو والفتح ، وأرسلت إليه قوات واعتمادات هزيلة ، وأخيرا استدعته إلى فرنسا (١٧٥٤) . وامتد به الأجل حتى رأى الإنجليز يوقعون بالفرنسيون هزيمة منكرة في الطور الهندي من حرب السنين للسبع .

وكان « رجال المال » في قمة الطبقة الثالثة وكانوا من مقرضي النقود على نطاق ضيق ، من الطراز العتيق المحافظ ، أو من أصحاب المصارف بكل معنى الكلمة ، الذين يتعاملون في الودائع والقروض والاستثمارات ، أو من « ملتزمى الضرائب » الذين يعملون للدولة باعتبارهم « وكلاء الدخل » . وكانت القيود التي فرضتها الكنيسة الكاثوليكية على تقاضى فوائد الأموال قد ضعف أثرها أو أصبحت غير ذات موضوع تقريباً ، في تلك الأيام . ورأى جون لو أن نصف فرنساً مثلهف على الانحجار في الأسهم والسندات ، وافتتحت باريس سوق الأوراق المالية (البورصة) فيها سنة ١٧٢٤ .

وكان بعض (رجال المال) أغنى من معظم النبلاء . فكان باريس مونتارتل يمتلك مائة مليون جنيه ، ولينورمان دى تورنهم عشرين مليونا ، وصمويل برنارد ٣٣ مليونا ^(٦٨) . وزوج برنارد بناته من أزواج أرسقراطيين حيث دفع لكل منهن مهرأ قدره ٨٠٠ ألف جنيه ^(٦٩) . وكان سيداً مهذباً محبا لوطنه . وفي ١٧١٥ حدد بنفسه الضرائب المستحقة على ممتلكاته بمبلغ تسعة ملايين من الجنيهات ، ومن ثم كشف عن ثروة كان يمكن أن يخفيها جزئياً ^(٧٠) . وعندما قضى نحبه (١٧٣٩) ، أماغ فحص حساباته اللثام عن المدى الواسع لصدقاته الخفية ^(٧١) . أما الإخوة الأربعة الذين حملوا لقب « باريس » فقد طوروا مؤسستهم المصرفية إلى سلطة سياسية . وتعلم منهم فولتير كثيرا من براعته المالية ، فأذهل أوربا لكونه فيلسوفا و « مليونيرا » في وقت معا .

وكان « الملزمون العامون » أبغض رجال المال إلى فرنسا في القرن الثامن عشر . وكان نظام « الملزم العام » قد أدخل في ١٦٩٧ لجمع الضرائب غير المباشرة - أساساً الضرائب على الإعانات والتسجيلات والطلبات والملح والتبغ - ولكي تتفق الحكومة هذه الإيرادات قبل جمعها ألزمت بها شخصاً يدفع لها المبلغ المتعاقد عليه ، مقابل حق جبايتها على مدى ست سنوات . وانعكس ازدياد الضرائب والثروة والتضخم في ارتفاع ثمن هذا العقد الرابع : ٨٠ مليوناً ١٧٢٦ ، ٩٢ مليوناً ١٧٤٤ ، ١٥٢ مليوناً ١٧٧٤ . ولم تقع أية حكومة يوماً في حيرة جرياً وراء الطرق التي تنفق بها أموال شعبها وفوضت للمتعاقد مهمة جمع الضرائب بالتعاقد إلى أربعين « ملزماً عاماً » أو أكثر ، دفع كل منهم مليوناً من الجنيهات أو أكثر ضماناً مقدماً ، ولحق أصابعه كلما مرت بها الإيرادات ، وهكذا ، فيما بين عامي ١٧٢٦ - ١٧٣٠ تجاوزت أرباح الملزمين العامين الأربعين ١٥٦ مليوناً من الجنيهات (٧٣) وابتاع كثير من أمثال هؤلاء الجباة الضياع والألقاب وشادوا القصور الفخمة وعاشوا حياة غاية في البلخ والترف ، مما أثار حنق الأرستقراطية ورجال الكنيسة . وجمع بعضهم روائع الفن وأحاطوا أنفسهم بالفنانين والشعراء والتحليلات ، وفتحوا أبواب بيوتهم مأوى أو منتدى للصفوة من أهل الفكر وكان « أطفه الفلاسفة ، هلفشيوس ، واحداً من أكرم « الملزمين العامين » . وقضى روسو فترة طويلة في ضيافة مدام دي ايبيناي زوجة أحد الملزمين . واستمتع رامو وفانلو بكرم الضيافة لدى الاسكندر دي لا بولنير الذي اشتهر من بين رجال المال بأنه يمثل ميسيناس (رجل الدولة الروماني من رعاة الأدب صديق هوراس وفرجيل في القرن الأول ق .م) وثار كبار أفراد البورجوازية المتلهفون على الاعتراف بمكانتهم الاجتماعية ، لأنفسهم من استهجان الكنيسة واحتقار النبلاء لهم ، بمناصرة الفلاسفة ضد الكنيسة ، ثم ضد النبلاء فيما بعد ، وربما كان رجال المال هم الذين أمدوا الثورة بالمال .

٤ - الحكومة :

كانت الطبقات الوسطى آنذاك أكثر فعالية وقوة في الدولة ، لأنها شغلت كل المناصب ، فيما عدا مناصب الوزارة التي كانت تتطلب غير شجرة الأسرة أو عراقة^٢ الحسب والنسب ، وكان أفرادها يشكلون البروقراطية وصقلت مواهبهم بالانتقاء الطبيعي في ميدان الاقتصاد ، وأثبتوا أنهم أمهر وأقدر من النبلاء سليلي الأسرات الواهنين الخاملين الذين ليس لهم ما يحفزهم على الجهد والعمل . وفي الحق أن نبلاء الرداء في البرلمانات والحكام كانوا ينتسبون إلى البرجوازية من حيث الأصل والخلق . وتولت الطبقة الوسطى شئون الكوميونات والأربعين مقاطعة ، وإدارات الحرب والتكوين والمواصلات والمناجم والطرق والشوارع والجسور والأنهار والقنرات والثغور . وكان قواد الجيش من النبلاء ، ولكنهم قاموا بحملات خططها لهم في باريس رجال من الطبقة الوسطى ، بارعون في تخطيط الحرب (٧٣) . إن نمط البرجوازية الفرنسية في القرن التاسع عشر كان قد سبق تشكيله في القرن الثامن عشر .

وكان المعترف به بصفة عامة أن الإدارة في فرنسا كانت أحسن إدارة في أوروبا ، ولكن كانت تشوبها عيوب قتالة : كانت مركزية متغلغلة ، مفصلة إلى حد أنها عوقت الابتكار والمبادرة والحيوية المحلية ، وضيعت كثيراً من الوقت في نقل الأوامر والتقارير . وبالمقارنة بالإنجلترا كانت فرنسا استبدادية مطلقة خانقة . فلم يكن مسموحاً بالاجتماعات العامة ، ولم يؤخذ بالاقتراع الشعبي إلا في المسائل المحلية التافهة ، ولم يقف أى برلمان في وجه الملك . وحسن لويس الخامس عشر الحكومة بإهمالها ، ولكنه فوض إلى وزرائه سلطات ملكية مثل إصدار أوامر القبض أو الرسائل المختومة ، وغالباً ما أسيء استخدام هذه السلطة . حقاً إن مثل هذه « الرسائل السرية » ، أفلحت أحياناً في تسير شئون الحكومة بسرعة عن طريق تجنب التفاصيل الفنية في الإجراءات الإدارية « الروتين الحكومي » . ويأخذى هذه الرسائل أسس لويس الرابع عشر « الكوميدي فرانسيز » في عام ١٦٨٠ . وأنقذت بعض الرسائل سمعة إحدى الأسرات ، بالزج بوغد لثيم في السجن دون

بطاء ودون محاكمة علنية ربما كانت تكشف عن كوارث خاصة . كما أن بعض هذه الرسائل ؛ كما حدث عند اعتقال فولتير وسجنه للمرة الثانية ، حال بين أحد الحمقى الذين يمكن الصفح عنهم ، وبين إتمام حماقته . وفي حالات كثيرة صدرت الرسائل بناء على طلب والد يائس (مثل ميرابو الأكبر) من تقويم اعوجاج ابن جامع . وفي مثل هذه الحالات كان السجن خفيفاً قصير الأمد . ولكن كانت هناك حالات كثيرة من القسوة الصارخة ، ومن أمثلتها احتجاج الشاعر ديفورج لمدة ست سنوات (١٧٥٠ - ١٧٥٦) في حجرة من حديد لأنه استنكر تصرف الحكومة في نفى شارل ادوارد ستوارت حفيد جيمس الثاني من فرنسا (وكانوا يسمونه الطالب الصغير بالعرش) .^(٧٤) وإذا كان لنا أن نصدق رواية الكاتب الألماني ولهم جريم ، وهو دقيق بصفة عامة ، فإن الحكومة قدرت أعظم التقدير انتصارات موريس دى ساكس في المعارك إلى حد أنها أرسلت إلى الشاعر شارل فافار أمراً سرياً ليضم زوجته إلى قائمة خليلات دى ساكس .^(٧٥) إن أية إساعة إلى أحد النبلاء من رجل عادي ، أو أى نقد شديد يوجه إلى الحكومة ، كان من شأنه أن يؤدي إلى صدور رسالة سرية مختمة تتضمن أمراً بالقبض والزج في السجن دون محاكمة أو قضية مبينة . ومثل هذه الأوامر التعسفية أثارت استياء متزايداً على مر السنين في هذا القرن الثامن عشر .

وعوق القانون الفرنسي مع تقدم الإدارة الفرنسية ، وكان يختلف من مقاطعة إلى مقاطعة مما أعاد إلى الأذهان انفراد المقاطعات بعضها عن بعض باستقلالها الذاتي ، في سالف الأيام . وكان في مختلف أقاليم فرنسا . ٣٥٠ هيئة قانونية متباينة . وكان كولبير قد قام بمحاولة غير موفقة في تنظيم القانون الفرنسي وتحديده في « قانون العقوبات » الذي صدر في ١٦٧٠ ولكن قانونه خلط بشكل مضطرب بين تشريع العصور الوسطى والحديثة ، والتشريع الألماني والروماني ، والتشريع الكنسي والمدني . وكان الملك يسن القوانين الجديدة وفقاً لمتطلبات الساعة ، وعادة بناء على إلحاح وزرائه مع التسرع في التحقق من إنساقها مع القوانين القائمة . وكان من العسير على المواطن أن يتبين أى القوانين سارى المفعول في محل إقامته أو في قضيته .

وقولت « الشرطة الراكبة » تنفيذ قانون العقوبات في الأقاليم ، أما في المدن الكبيرة فكان يتولاها « شرطة البلدية » ، التي نظمها ودرّبها أحسن تدريب وتنظيم في باريس ، مارك رينيه دي فواييه دي أرجنسون ، الذي لم ينجب أبناء لامعين فحسب ، بل إنه كذلك بوصفه قائد الشرطة من ١٦٩٧ إلى ١٧١٨ ، اكتسب لقب « اللعين » ، لأنه كان يبدو وكأنه شيطان ، إنه كان على أية حال مصدر رعب وفزع لمجرى باريس ، لأنه كان يعرف أوكارهم وأساليبهم ، ومع ذلك كان (كما يؤكد لنا سان سيمون) « يتسم بالروح الإنسانية »^(٧٦) - عطوفا على البؤساء .

وكان الشخص المقبوض عليه يسجن قبل محاكمته ، ويعامل معاملة لا تكاد تختلف عن معاملته وهو مذنب محكوم عليه بالعقوبة . وقد يقضى - مثل جين كالاس - شهورا في السلاسل والأغلال والتعذيب العقلي ، معرضاً للمرض في كل يوم بين الأقدار . وإذا حاول الهرب تصادر ممتلكاته ، وإذا اتهم بجريمة كبرى لا يسمح له بالإتصال بمحام . ولم يكن هناك حق التحقيق في قانونية أمر الاعتقال (هايباس كوريس) ، أو حق المحاكمة عن طريق المحلفين . وكان الشهود يسألون سراً ، كل على حدة . وإذا اعتقد القاضي بأن المتهم مذنب ، ولكن ليس هناك أدلة كافية لإدانته ، كان له سلطة تعذيبه لينتزع منه اعترافاً . وقل حدوث مثل هذا التعذيب القضائي وخفت حدته على عهد لويس الخامس عشر ، ولكنه ظل حزاً من الإجراءات القانونية في فرنسا حتى ١٧٨٠ .

وتراوحت العقوبات من الغرامات إلى تمزيق الأوصال . وكانت الشهرة مفضلة في عقاب عدم الأمانة في العمل . وكان اللصوص وصغار المجرمين يجلدون بالسياط ، وهم مجرون مربوطين في ذيل عربة في الشوارع . وكان يمكن أن يكون الإعدام عقوبة الخدم إذا اقترفوا السرقة ، ولكن مخدوميهم نادراً ما تمسكوا بتنفيذ هذا القانون . وفي ١٧٤٨ أبطل بصفة رسمية الحكم بالتجديف في السفن الشراعية الكبيرة . وكان الإعدام هو العقوبة القانونية لمجموعة كبيرة متباينة من الجرائم منها السحر والشعوذة والتجديف على الله (م ٣ - قصة الحضارة)

وسفاح ذوى القربى واللواط والعلاقة الجتسية بين إنسان وحيوان . ولم يعودوا يلجأون إلى قطع العنق أو شد الحجرم إلى خازوق لإحراقه . ولكن كان يمكن أن يزيدوا من روعة تنفيذ الحكم « بسحب المحكوم عليه وتمزيق أوصاله إلى أربعة أجزاء » أو تحطيم أطرافه بقضيب حديدى وهو مربوط إلى « دولاب » التعذيب . وروى « أن الناس ، وبخاصة فى باريس ، كانوا دائماً يتطلعون فى ابتهاج وسرور إلى تنفيذ حكم الإعدام » (٧٧) .

وكان النظام القضائى معقداً مثل القانون تقريباً . وكان فى الريف آلاف المحاكم الإقطاعية التى تطبق القانون المحلى ، ويرأسها قضاة يعينهم السادة الملاك ، وكان يمكن لهذه المحاكم أن تنظر فى القضايا الصغيرة فقط . وليس لها أن تفرض من العقوبات إلا الغرامة البسيطة . وكانت أحكامها عرضة للاستئناف ، ولكن الفلاح وجد أن من العسير عليه ، ومما يكلفه نفقة باهظة أن يكسب قضية ضد السيد المالك . وعلاوة على محاكم السادة الملاك هذه كانت هناك محاكم محلية ، وكان فى كثير من المدن محاكم خاصة بالكوميونات وفوق كل هذه المحاكم الدنيا كانت هناك المحاكم الإقليمية التى تطبق القانون الملكى ، وللملك أن يعين محاكم خاصة لأغراض خاصة . وكانت الكنيسة تحاكم رجالها بمقتضى قانونها الكنسى الخاص بها فى محاكم كنسية . وكان المحامون يحشدون فى مختلف المحاكم وفيما حولها ، مستفيدين من ولع الفرنسيين بالتقاضى . وكان فى المدن الكبرى الثلاث عشرة برلمانات تتألف من قضاة يعملون على هيئته محاكم عليا لهذه المدن وما حولها ، وعلى هذا الأساس كان برلمان باريس يخدم ثلث فرنسا تقريباً . وطالب كل برلمان بأن أى مرسوم ملكى أو حكوى لا يصبح قانوناً إلا إذا عرض على البرلمان ووافق عليه وسجله . ولم يسلم المجلس الملكى للدولة بهذا المطلب قط ، ولكنه فى الغالب سمح للبرلمان بحق الاعتراض . ودارت أشد حقبة التاريخ الفرنسى كآبة حول هذه المطالب المتعارضة والمتنازع عليها بين الملك والبرلمانات .

وبين برلمان باريس والملك قام الوزراء والبلاط . وشكل كل الوزراء معاً « مجلس الدولة » وكان البلاط يتألف من الوزراء علاوة على النبلاء

أو رجال الدين أو أعيان العامة الذين كانوا قد قدموا إلى الملك ، بالإضافة إلى معاوني رجال البلاط وخدمهم . وكانت هناك مراسم صارمة (بروتوكول) تحدد وضع كل رجل في البلاط ومسوغاته وأسبقيته وامتيازاته وواجباته ، كما أنه كانت هناك قواعد تشریفاب معقدة مدروسة مفصلة تيسر الاحتكاك بين عدة مئات من الأفراد المزهوين الذين تملأ الغيرة والحقد قلوبهم ، كما تثقل كواهلهم . كما أن المراسم والتشريفات الباذخة المسرفة لطفت من رتابة نظام الحاشية . وهيات جو الغموض الذى لاغنى عنه للحكومة الملكية . وكانت ضروب التسلية الأثيرة لدى أفراد الحاشية هي الانهماك في القيل والقال والأكل ، والميسر والصيد والقنص والزنى . قال سفير نابلي « إن تسعة أعشار الناس في فرنسا يموتون جوعاً ، والعشر يموت من عسر الهضم » (٧٨) وكانت مبالغ الخسارة والمكسب على موالد القبار جسيمة . ولكي يسدد رجال الحاشية ديونهم كانوا يبيعون نفوذهم لمن يدفع مبلغاً محزماً لأحد أفراد الحاشية ، وكان لكل زوج في البلاط ، تقريباً ، عشيقة ، ولكل زوجة تقريباً عشيق . ولم ينكر أحد على الملك خليلاته ، وكل ما شكاه منه النبلاء أن الملك صعب معه إلى فراشه ، مادام دى بمبادور وهي سيدة من عامة الشعب على حين أنهم ربما أحسوا أنه قد يشرفهم أن يفترع جلالته بناتهم البكارى .

وعلى الرغم من أن لويس الخامس عشر كان قد بلغ سن الرشد رسمياً في ١٧٢٣ ، فإنه كان آنذاك في سن الثالثة عشرة ، وعهد بالإدارة إلى لويس هنرى ، الدوق دى بوربون . وكان التفكيك قد اتجه لشغل هذا المنصب إلى كونت دى تولوز ، وهو أحد أبناء لويس الرابع عشر الذين أضيفت عليهم صفة الشرعية ، ولكنه استبعد « لأنه لفرط أمانته لا يصلح لأن يكون وزيراً » (٧٩) ، وكان السيد الدوق دى تولوز « نفسه رجلاً طيب الشعور ، بذل كل ما في وسعه للتخفيف من فقر الشعب ، وفكر في تحقيق هذا الغرض عن طريق وضع نظام يحدد الأسعار والأجور بصفة رسمية . ولكن قانون العرض والطلب نهج آماله . وتجاسر على فرض ضريبة دخل قدرها ٢٪ على كل الطبقات فاحتج رجال الدين وقامروا على سقوطه » (٨٠)

وأباح لعشيقته المركزية دى برى من النفوذ والسلطان أكثر مما ينبغي، وكانت ذكية ، ولكن ذكاءها كان دون جمالها ، فاحتالت على زواج لويس الخامس عشر من ماري ليزنيسكا ، أملا في أن تستبق الملكة الشابة تحت تأثيرها . ومهما يكن من أمر فإن ماري سرعان ما فقدت نفوذها وعطفت مدام دى برى على فولتير ، وأقصت رجال الدين ودفعت الدوق إلى مهاجمة الأسقف الذى يتولى تعليم الملك ، والذى كان قد أوصى الملك باختيار الدوق ليكون وزيره الأول . ولكن الملك كان يعجب بمعلمه ويثق فيه أكثر من أى رجل آخر في الدولة .

وكان أندريه هركيل دى فليرى قد عين أسقفاً في فريجييس ١٦٩٨ ثم مؤدباً للملك ١٧١٥ . وسرعان ما أصبح ذا تأثير شديد على عقل الصبي . وكان الأسقف فارغ الطول وسيما مرناً لبقاً ، كسولا بعض الشيء لا يتعجل الحظ والثراء أبداً ، ولو أنه وصل إلى ما يصبوا إليه . واعتقد ميشيليه وسانت بييف أن فليرى ، باعتباره معلماً ، كان قد أضعف شخصية الملك الصغير بإطلاق العنان لرغباته وشهواته في ابتهاج خال من الهموم والتفكير ، ورباه على مساندة اليسوعيين والعطف عليهم ^(٨١) . ولكن فولتير ، الذى لم يكن صديقاً لرجال الدين ، أعجب بفليرى ، وقدره أعظم تقدير ، معلماً ووزيراً ، على حد سواء وأخذ فليرى على عاتقه أن يشكل ذهن تلميذه ويدربه على العمل والتكتم والاستقامة والأمانة ، وعلى أن يصون نفسه وسط تعجل الحاشية وهياجها وصخبها ، طيلة الفترة التى لم يبلغ فيها الملك سن الرشد ، والتى نعم فيها بمن تأثير الوصى وتقدير الشعب . ولم يمن فليرى قط بقيمة خدماته ، ولم يشك قط من الآخرين ، ولم يغمس يده في مكائيد الحاشية ودسائسها قط . وحاول سراً أن يتعرف على شئون المملكة في الداخل ومصالحها في الخارج . وصفوة القول إن سلوكه الواعى الحذر ومزاجه اللطيف جعله لكل فرنسا تود أن تراه على رأس الإدارة فيها ^(٨٢) .

ولما علم فليرى بأن تأثيره المستمر في تقرير السياسة استفز الدوق دى بوربون ليوصى بطرده من البلاط ، لم يبذل أى محاولة للاحتفاظ بمركزه

بل انسحب في هدوء إلى دير السليبيشيان في ISSY ، لإحدى ضواحي باريس (١٨ ديسمبر ١٧٢٥) . وأمر الملك الدوق أن يطلب إلى فليري أن يعود ، وعاد بالفعل ، وفي ١١ يونيو ، استجابة لما وضح من رغبة الحاشية ورجال الدين والجمهور ، (٨٣) أمر لويس الخامس عشر ، بشكل مفاجئ ، بـ « أن يأوى إلى شانتيللي ويبقى هناك لحين صدور أوامر أخرى » . وأبعدت مدام هـى برى إلى قصرها في نورماندى ، حيث تولاهما الضجر والسأم إلى أبعد الحدود ، فتناولات السم وفارقت الحياة (١٧٢٧) .

وظل فليري يخطر إلى الأمام بفضل تراجعه ، ولم يحظ بأى منصب رسمى ، بل إنه على العكس ، حث الملك على أن يعلن أنه سيتولى الحكم بنفسه منذ الآن . ولكن لويس آثر الصيد أو لعب القمار ، وأصبح فليري الوزير الأول في كل الشئون إلا اللقب (١١ يونيو ١٧٢٦) . وكان آنذاك في الثالثة والسبعين من العمر ، وكم من نفس طموحه تطلعت إلى أن يعاجله الموت ، ولكنه حكم فرنسا سبعة عشر عاما .

ولم ينس فليري أنه قسيس ، فألقى ضريبة ال ٢ ٪ فيما يتعلق برجال الكنيسة ، فكان جوابهم على هذا أنهم قدموا للدولة منحة اختيارية قدرها خمسة ملايين جنيه ، وطلب فليري إليهم أن يساندوه في تنصيبه كارد ينالا ، وكان في حاجة إلى هذا اللقب ليكون له حق الصدارة والأسبقية على الأذواق في مجلس الدولة ، فكان له ما أراد (٥ نوفمبر) ، ولم يحاول منذ تلك اللحظة أن يخفى الحقيقة ، تلك هى أنه كان يحكم فرنسا .

ولشد ما كانت دهشة الحاشية حين رأوه متواضعا وهو في أوج السلطة مثلما كان متواضعا وهو يمهدها . وعاش في بساطة تكاد تنسم بالتقدير ، قانعا بالحقيقة الواقعة دون امتيازات السلطة ومقتضياتها . وكتب فولتير « إن ارتفاع مكانته لم يغير من عاداته وسلوكه ، ودهش الجميع ليجدوا في شخص رئيس وزارة ، أعظم رجال الحاشية جاذبية وفي نفس الوقت أعظمهم نزاهة وتجردا » (٨٤) وقال هنرى مارتن « كان أول وزير عاش بعيداً عن الترف والبلذخ ومات فقيرا » . (٨٥) وكان أمينا غاية الأمانة ،

ولم يسنّ استغلال منصبه قط . (٨٦) وكان إلى أبعد الحدود أكثر تسامحاً ممن يحيطون به » (٨٧) وعامل فولتير معاملة ودية لطيفة وتغاضى عن ممارسة الطقوس البروتستانتية سرا ، ولكنه لم يتسامح قط مع الجانسينيين .

ولم يعكف ، بطريقته المتروية المتأنية ، على تقرير السياسة فحسب ، بل على إدارة الحكومة كذلك . - اختار معاونيه بعد حكم فاحص مدقق ، وساسهم في حزم وكياسة . وفي عهده تابع هنرى فرنسوا دى أجوسو مهمته الطويلة المدى (١٧٢٨ - ١٧٥١) في اصلاح القوانين وتنسيقها ، وأعاد فيليبيرت أورى النظام والاستقرار إلى مالية الدولة . وتجنب فليرى الحرب حتى أكره عليها بسبب الأطلاع الأسرية في الأسرة الحاكمة ، ومن ثم هياً لفرنسا فترات سلام وهدوء طويلة ، سمحت لها باستعادة الانتعاش الاقتصادى . وبدأ أن نجاحه برر مقدماً الحجج التى ردها الفيزيوقراطيون « أن نحكم حكماً يسيراً معناه أن تحكم حكماً صالحاً » (حرية التجارة والصناعة وعدم تدخل الحكومة فيهما) . ووعده بوقف التضخم ، وأوفى بوعده . واتسعت التجارة الداخلية والخارجية ، وزاد الدخل . وحيث أنفق الإيرادات في قصد أكيد بعيد عن التبذير ، وحد من نفقات مهرجانات الحاشية الملكية ، فإنه استطاع أن يلغى ضريبة الـ ٢ ٪ على الدخل بالنسبة لكل الطبقات ، وأن يخفف ضريبة الأملاك التى بهظت كاهل الفلاحين وأعاد إلى المدن الكبيرة والصغيرة الحق في انتخاب موظفيها الرسميين واقتداء بالمثل الذى ضربه فليرى في الاستقامة تحسنت أخلاق رجال البلاط على كره منهم .

وفي مقابل هذه المفاخر والمزايا تطل بعض المآخذ الجسيمة برؤوسها إنه رخص للملتزمين العامين في الاستمرار في جمع الضرائب دون تدخل من جانب الوزارة . وتعزيزاً منه للمشروع الضخم الذى وضعه المحافظون ، أقر نظام السخرة الذى فرض على الفلاحين العمل دون مقابل اللهم إلا الطعام . وأسس مدارس عسكرية لأبناء الأستقراطية ، ولكنه قبض يده بشكل مغل غير حكيم بإهماله إصلاح البحرية والتوسع فيها ، وسرعان ما باتت تجارة

فرنسا ومستعمراتها تحت رحمة الأساطيل الإنجليزية . إنه وثق ثقة عمياء في قدرته على المحافظة على السلام بينه وبين إنجلترا .

وطيلة حكم روبرت وولبول في إنجلترا نجحت سياسة السلام التي انتهجها الكاردينال . فإن الرجلين ، ولو أنهما كانا على طرفي نقيض في الخلق والطباع ، اتفقا على أن السلام أمر مرغوب فيه . على أنه في ١٧٣٣ ، حضره مستشاروه في الشؤون الخارجية على القيام بمحاولة فاشلة لاجلاس ستانسلاس لركزنسكى ، وهو حو الملك . على عرش بولندة ، ولكن ستانسلاس اقترح اصلاح دستور بولندة وتشكيل حكومة قوية ، وأثرت كل من روسيا والنمسا أن تكون بولندة عاجزة مهينة الجناح ، فرفضنا هذا الاقتراح . وفي حرب الوراثة البولندية (١٧٣٣ - ١٧٣٨) طردتا لركزنسكى من وارسو ثم من دانزج . ولما كان فليرى يعارض أى صراع خطير ، فإنه نصح ستانسلاس بأن يلجأ إلى نانسى ولونفيل حاملا لقب « ملك اللورين » . ولم تقع الكارثة ، فإن لركزنسكى والدول اتفقوا على أنه عند وفاته تعود إلى فرنسا اللورين التي كانت فرنسية إلى أبعد حد . وهذا ما حدث في ١٧٦٦ .

وجاهد فليرى الذي كان في الثامنة والثمانين قدر طاقته المتضائلة ، أن ينأى بفرنسا عن حرب الوراثة النمسية (١٧٤٠) ، ولكن امرأة فرضت سلطانها عليه . ذلك أن فليسييتيه دى نسل مركيزة فنتيميل ، التي كانت آنذاك تشارك الملك فراشه أصغت في بهجة وفرح إلى شارل أوجست فوكيه ، كونت دى بل أيل . حفيد المختلس البارع نيقولا فوكيه الذي كان لويس الرابع عشر قد أحسن صنعا بعزله . إن بل أيل هذا أبلغ المركيزة أن فليرى رجل هرم أحمق ، وأنه في مهاجمة فردريث الثاني ملك بروسيا للملكة الشابة ماريا تريزا ملكة النمسا ، فرصة ذهبية لتزيق إمبراطوريتها ، وأن فرنسا ينبغي أن تنضم إلى فردريك ، وتقتسم الغنائم . وصبت العشيقة الفاتنة هذه الكلمات في آذان الملك الولهان . وأقنعته بأن ينتزع زمام الأمور من بين يدي الكاردينال اللتين ترتعدان خوفا وجبنا ، ويستعيد مجد فرنسا .

وناشد فليرى بأن الشرف والمصلحة تحولان دون المضى فى مشروع بل آيل .
فإن لإنجلترا لن تسمح بتدمير النمسا لتصبح فرنسا عظيمة إلى حد يندربالخطر .
وأن على فرنسا أن تدخل فى حرب مع إنجلترا أيضا ، وأن فرنسا فى خير حال
فى السلم ! وفى ٧ يونية ١٧٤١ أعلن لويس الحرب على النمسا . وفى ٢٥
نوفبر استولى بل آيل على براج ، واتفقت معه كل فرنسا تقريبا على أن
فليرى عجوز أحمق .

وبعد عام فى الحرب تخلى فردريك المراوغ عن فرنسا وعقد سرا هدنة
مع النمسا ، وإذ تحورت الجيوش النمسية على هذا النحو ، تقدمت إلى بوهيميا ،
وشرعت فى تطوير براج . ولم تكن إلا مسألة وقت ، ليضطر إلى التسليم
بل آيل وجيشه المؤلف من عشرين ألف رجل ، أقض مضاجعهم وأزعجهم
الأهالى الذين أضمرؤا لهم العداء . وفى ١١ يولية ١٧٤٢ أرسل فليرى إلى
القائد النمسى كونت فون كونيغزج نداء مدلا يناشده فيه شروطا معتدلة
للحامية الفرنسية ، قال فيه « يعلم كثير من الناس كم كنت أرضى القرارات
التي اتخذناها ، وإنى أرغمت بطريقة ما على الموافقة عليها » (٨٨) فأرسل
كونيغزج الخطاب إلى مارياتريزا التي نشرته على العالم . وأرسل جيش فرنسى
لإنقاذ بل آيل ، ولكنه لم يصل إليه قط . وفى ديسمبر ترك بل آيل وراءه
سنة آلاف من المرضى والجرحى ، وغادر بقواته الأصلية براج إلى الحدود
عند ايجو ، ولكن عملية الفرار هذه حدثت فى قلب الشتاء عبر مائة ميل
جبال ومستنقعات مغطاة بالجليد أو الثلوج ، ولم تنقطع غارات العدو عليهم
طيلة انسحابهم ، وهلك من الأربعة عشر ألف رجل الذين بدأوا هذه
المسيرة اثنى عشر ألفا فى الطريق ، وامتدحت فرنسا هذا الإنقاذ الرائع
بالارتداد المذهل . وتخلى فليرى عن الوزارة ، وآوى إلى الدير فى اسى
حيث فارق الحياة (٢٩ يناير ١٧٤٣) وهو فى سن التسعين .

وأعلن الملك أنه سيتولى رئاسة الوزارة بنفسه . منذ الآن

٥ - لويس الخامس عشر

عجبا : ماذا يكون شعور الإنسان عندما يكون ملكا وهو فى سن الخامسة ؟ ان الصبى الذى قدر له أن يحكم فرنسا طيلة تسعة وخمسين عاما ، كان لا يكاد يسترعى الانتباه أو الملاحظة فى طفولته المبكرة ، كان ضعيفا هزيلا ، يتوقعون أن يعاجله الموت بين آونة وأخرى . وفجأة فى ١٧١٢ توفى والداه دوق ودوقة برجندى بالجدرى ، وأصبح الصبى وريث العرش . وبعد ثلاث سنوات كان هو الملك .

واتخذت كل الاحتياطات لجعله غير صالح للحكم . وقلقت مربيته مدام دى فتادور أشد القلق على صحته ، وعملت على وقايته من قسوة الجو ، وخرس فيه كاهن اعتراف يسوعى احتراماً رهيباً للكنيسة . وكان فليرى ، معلمه ومؤدبه ، كيسا متسامحا ، ويبدو أنه فكر فى أنه من الخير لفرنسا أن يكون ملكها كسولا بليدا . أما معلمه الخاص ماريتال دى فيلرو فقد دبر سماً عكسيا . حيث قاده إلى نافذة فى قصر التويلرى ليرى الجماهير التى احتشدت لتصفق وتهلل وتهتف له ، وهو يقول « انظر يا مولاي ، هذا الجمع وهؤلاء الناس كلهم لك تابعون لك . أنت ملكهم وسيدهم. » (٨٩) واقرنت القدرة على كل شيء بالعجز وعدم الأهلية لأى شيء .

لقد أفسد لويس هالة القداسة التى أضفوها عليه ، وكان أنانيا فى سلطته بليدا عنيدا ، ومن ثم نشأ شابا ضجرا صموتا ، مع التجاوز عن تجنبه مراقبة حراسه وفيما بعد تجنبه مراسم حاشيته وخنوعها ليوجد متنفسا فى الحفر على الخشب وشغل الابرّة وحلب البقرة واللعب مع الكلاب . (٩٠) إن عناصر القسوة التى تكمن فىنا جميعا تمكنت عنده من أن تظهر إلى السطح من خلال جبينه . ويروى أنه كان فى صباه يجد للذة فى صيد الحيوانات بل قتلها . (٩١) وفى سنّى نضجه هذب من هذه القسوة إلى مجرد الصيد ، وربما برزت فى سوء معاملته ، وسرعة نبذه للبنات اللاتى شاركنه فراشه بعد تدريبهن على ذلك فى « متنزه الأطباء » على أن معاملته

لأصدقائه تميزت بقدر من الحساسية المقرونة بالخطر والحجل ومراعاة شعورهم وحقوقهم .

وكان له ذهن سليم ، كان من الممكن أن يتفوق لو أن الاخلاق ساندته ودعمته . وأدهش الجميع بقوة ذاكرته وسرعة بديته . وكان بطبيعته يؤثر الألعاب على الدرس . ولكنه استوعب بعض التعليم الصحيح في اللاتينية والرياضيات والتاريخ وعلم النبات والفنون العسكرية . وشب فارغ الطول نحيل القوام ، ولكن عريض المنكبين ، مع بشرة جميلة وشعر ذهبي متجدد . وقال عنه ماريشال دى ريشيليو انه « أكثر الصبية وسامة وملاحة في مملكته »^(٩٢) يحتفظ متحف فرساي بصورة رسمها له فانلر ، وهو في الثالثة عشرة بالسيف والدرع ، مما يكاد يتلام مع الوجه الصبياني . وقارنه رينيه لوس دى آرجنسون باله الحب عند اليونان « ايروس » (كيوبيد عند الرومان) . ووقعت النساء في غرامه لأول نظرة . وحين مرض في ١٧٢٢ وصلت كل فرنسا من أجله ، وعندما أبل من مرضه بكت كل فرنسا فرحا وابتهجا . إن هذا الشعب الذى كثيرا ما عانى وقاسى من ملوكه طرب وابتهج لما راوده من أمل في أن الشاب سرعان ما يتزوج وينجب ابنا يحفظ العرش في الأسرة الكريمة العريقة .

والحق إنه كان قد خطب (١٧٢١) وهو في سن الحادية عشرة ، ماريا آنا فكتوريا ، وعمرها عامان ، ابنة فيليب الخامس ملك أسبانيا . وكانت قد انتقلت إلى باريس ، وكانت الآن تنتظر أن تبلغ سن الزواج . ولكن مدام دى برى رأت أنها قد تستطيع الاحتفاظ بنفوذها المتريد بنفسه هذا القران المرتقب ، وتزويج لويس من ماري لزنسكى ابنة ملك بولندة المخلوع . وشرعت في تنفيذ خطتها ، وأعيدت الأميرة إلى أسبانيا (١٧٢٥) وتلك إهانة لم يغتفرها البلاط الأسباني قط . وكان ستانلاس في مأواه في ويزمبيرج في الألزاس حين تلقى طلب ملك فرنسا يد ابنته ، فدخل إلى الحجرة التى كانب ابنته وأماها تملان فيها وقال « فلنسجد شكرا لله » . فتعجبت ماري فرحة مبهجة وقالت « أبى العزيز ، هل دعيت ثانية لارتقاء

عرش بولنדה ؟ « فأجاب ستانسلاس » بل إن الله من علينا بتعمة مذهلة أكثر . لقد أصبحت ملكة فرنسا « (٩٣) إن مارى لم تكن تحلم قط بارتقاء أعظم عرش فى أوربا . وكانت قد رأت صور لويس الخامس عشر ، شابا بكليلة المجد والرفعة ، وسيما قويا ، إلى أبعد حد . وأرسلت إليها الخزائن الفرنسية الأردية والثياب والملابس الداخلية والأحذية والقفايزات والجوهرات ، ووعدتها بمائتين وخمسين ألف جنيه لدى وصولها إلى فرساي ، وبراتب سنوى قدره عشرون ألف كراون ذهباً مدى الحياة . وتلقت مارى هذا كله فى ذهول وهى لا تكاد تصدق ، واتجهت إلى الله بالشكر على حظها السعيد . وفى ١٥ أغسطس ١٧٢٥ عقد قرانها على الملك بتوكيل فى ستراسبورج ، وسارت فرحة إلى باريس عبر طرق تحتاحها العواطف لعدة أيام قاسية . وزفت إلى الملك فى فونتنبلو فى ٥ سبتمبر . وكان هو فى الخامسة عشرة . وكانت هى فى الثالثة والعشرين من العمر ، ولم تكن جميلة ، بل طيبة فقط .

أما لويس الذى لم يكن قد أبدى بعد ولعاً بالنساء ، فإنه أفاق عندما مس عروسه المتواضعة ، وعانقها فى حرارة أدهشت حاشيته ، وكانت حياتهما لبعض الوقت مثالا للحب والسعادة ، وحظيت باحترام الناس وولائهم ، ولكنها لم تكن يوما ذات شعبية أو محبوبة . وكانت لطيفة ودودة رقيقة حساسة ، لا تعودها الدعابة المرحية ، ومع ذلك افتقدت فرساي فيها الذهن المتوقد والحديث المرح المفعم بالحياة . مما أصبح لزاما أن تتحلى به سيدات البلاط . وصعقت مارى لأخلاقيات الأرستقراطية الفرنسية ، ولكن نقدها لها لم يجاوز أنها ضربت مثالا للزوجة الأمينة المخلصة الحريصة على اسعاد زوجها وعلى انجاب وريث له . وعلى مدى اثني عشر عاما وضعت عشرة أطفال ، وفى سنوات أخرى عانت كثيراً من الاجهاض . وكان أشباع شهوة الملك معضلة واجهت الملكة . أنها توسلت إليه أن يتعفف ويستعصم ، على الأقل أيام الاحتفال بأعياد كبار القديسين ، وأصبحت فى غمرة جهودها وواجباتها « بناسور » خبيث ، والتمست « الحرارة » التى تضطرم بين جنبي

الملك منافذ أخرى . وكان عرفانها بحسن صنيع مدام دى برى والدوق دى بوربون محنة ابتليت بها وأصبغت في صبر ناقد حين هاجم الدوق بوربون فليرى في حضرة الملك . وعندما تولى فليرى زمام السلطة أرسل بناتها إلى ديرناه بحجة الاقتصاد في النفقات . ورجح نفوذه المتزايد من كفة أعدائها . ولما زاد فتور الملك نحوها آوت إلى حلقة محدودة من أصدقائها ، ولعبت الورق ونسج البسط ، وحاولت الرسم ، ووجدت بعض السلوى والعزاء في التقوى وأعمال البر . « وعاشت حياة الدير والرهبة وسط انفعالات الحاشية وعبثها » (٩٤) .

وكان ينبغي للملك أن يلهو ويتسلى ، ولكن مدام دى برى كانت قد اختارت له زوجة غير مسلية . على أنه لم يتخذ خلية إلا بعد سبعة أعوام من زواجه ، وعند ذلك اتخذ أربعاً على التعاقب ، مع قدر محدود من الاخلاص ، لأنهن كن أخوات . ولم يكن رائعات الجمال ، ولكن كن جميعاً نشيطات مسليات مفعمات بالحياة ، وكن جميعاً ما عدا واحدة ذرات خبيرة بأساليب الفنج والدلال والعبث . وواضح أنه كان للويزا دى نسل كونتيسة دى ميللى الشرف في أن تكون سبابة إلى إغراء الملك واغوائه (١٧٣٢) . انها ، مثل لويزا دى لافالير ، أحلصت في حبها لعشيقها الملوكى ، ولم تكن تسعى للثراء أو السلطة ، وكل ما سعت إليه هو أن تسعده . فلما زاحمتها أختها فلبيسيته ، وكانت لتوها قد غادرت الدير ، على مخدع الملك ، فإن لويزا شاوكتها في لويس (١٧٣٩) في قران رباعى مهرطق — لأنه ظل يتردد على الملسكة . وأزعج هذا التعقيد ضمير الملك ، وتجنب تناول القربان المقدس ، لفترة من الوقت ، بعد أن سمع قصصاً رهبة مفزعة عن أناس كانوا قد تناولوا القربان في فم آثم خاطئ . (٩٥) إن هذه المرأة المغوية الخطرة (السيرانه : عند الإغويق كائن أسطورى له رأس امرأة وجسم طائر ، كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك) — كما تروى إحدى أخواتها « كان لها شكل الغرناد (سملك بحرى) وعنق الغرنوق (طائر ذو عنق طويل) ورائحة القرد » (٩٦) . ومع ذلك احتالت

التحمل . وحفاظا على ماء الوجه وآداب المجتمع أوجد لها لويس زوجا ،
وعينها مركيزة فنتميل . وفي ١٧٤٠ آوت مدام دى ميللى إلى أحد الأديار ،
ولكنها غادرته بعد عام واحد لترعى منافستها المتصصرة التى كانت تعافى
سكرات الموت أثناء الولادة (١٧٤١) . ويكى الملك وبكت مدام دى ميللى
معه . ووجد بعض العزاء بين ذراعها ، وعادت عشيقه له من جديد .

وثمة أخت ثالثة ، أدليد نسل ، البدينة الدميعة ، وكانت بارعة ذكية ،
عملت على تسلية الملك بحركاتها الجسدية وسرعة بديتها وأجوبتها السريعة .
واستمتع الملك بها ، ووجد لها زوجا ، وظل على علاقته بها . أما الأخت
الرابعة ، مدام دى فلافاكور ، فلأنها صدت الملك وصادقت الملكة . ولكن
الأخت الخامسة ، أقدرهن جميعاً ، هى مارى آن دى نسل دى لاثورنل ،
أقنعت مدام دى ميللى بأن تقدمها للملك . ولم تغز مارى قلب الملك فحسب ،
بل إنها أصرت كذلك على أن تكون المحظية الوحيدة ، وأقصيت ميللى
فقيرة معدمة ، وهوت بين عشية وضحاها من أبهة الملكية إلى كآبة الدبر .
وهكذا أزاحت كل من الأخوات من بنات نسل أختها لها . وبعد ذلك بقليل
كانت مارى تشق طريقها لتصل إلى مقعدها فى كنيسة نوتردام ، فكان
فى هذا ازعاجا لجماعة من المصلين ، وتدمر أحدهم قائلا : « كل هسله
الضجة من أجل بنى فاجرة : » فقالت هى « سيدى ، ما دمت عرفتنى
جيذا فأرجو أن تمن على بالصلاة لله من أجلى . » (١٧) « ولا بد من أن الله
مبجحانه وجد من اليسير أن يغفر لها .

وكانت السيدة نسل الجديدة أجمل الأخوات . إن الصورة التى رسمها
لها نائيه - وجه وسيم ، صدر بارز منتفخ ، قوام رشيق ، فى ثوب من
حرير مهفوف متموج يكشف عن قدمين صغيرتين رقيقتين - لتفسر شدة
اندفاع الملك نحوها وميله إليها . وإلى هذا كله كانت تجمع ذكاء متقددا
قدر بريق عينها . وعلى النقيض من دى ميللى كانت مارى تتلف على
الثروة والسلطان . وقدرت أن نفقاتها تستحق أن يكون لها دوقية شاتورو

التي تدر ٨٥ ألف فرنك في العام ، فحصلت عليها وعلى لقب دوقه (١٧٤٣) . ودخلت التاريخ لمدة عام .

وتحيز لها وساندها حزب قوى في البلاط ، كان يأمل في استخدام نفوذها في كسب الملك إلى جانب سياسة عسكرية فعالة ، تعود فيها سلطة الحكومة من البيروقراطية البرجوازية إلى النبالة العسكرية (نبلاء السيف) وكان لويس في بعض الأحيان ، شعورا منه بالواجب ، ينهك في العمل مع وزرائه ، ولكنه على الأغلب كان يفوض إليهم سلطاته وواجباته . ونادرا ما اجتمع بهم ، أو عارضهم ، وأحيانا وقع مراسيم اقترحها أو عرضها عليه أعوان متنافسون . وهرب من قواعد التشريفات في البلاط إلى كلابه وجياده وإلى الصيد والقنص . فلماذا لم يخرج يوما للصيد قال رجال الحاشية « أن الملك لا يفعل شيئا اليوم » . وعلى الرغم من أنه لم تعوزه الشجاعة ، فإنه لم يكن يميل إلى الحرب ، وكان يؤثر الفراش على الخلد .

وفي المخذع وفي حجرة الجلوس حرضت الدولة الشهوانية اللعوب — مستعيدة ذكرى أجينيس سوريل — الملك على القيام بدور فعال في الحرب ضد إنجلترا والنمسا . وصورت له لويس الرابع عشر يقود جيشه إلى المجد والعظمة في مونزونامور ، وتساءلت : لماذا لا يتألق لويس الخامس عشر الوسيم الشجاع في درعه وسيفه على رأس جيشه ، مثلما كان يفعل جده العظيم . ونجحت الخطة ، وماتت الدوقة منتصرة . وأفاق الملك الكسول لحظة من سباته . وربما كان نتيجة لاستحثاثها وتحريضها ، إنه عندما حانت منية فليرى المسالم ، أعلن لويس أنه سيحكم ويملك معا . وفي ٢٦ أبريل ١٧٤٤ استأنفت فرنسا الحرب الفعلية ضد النمسا ، وفي ٢٢ مايو تجدد التحالف مع فردريك ملك بروسيا الذي بعث بشكره وامتنانه إلى مدام شاتوره . وتقدم لويس إلى الجبهة في أبته الملكية وتبعه بعد يوم واحد خيلياته وسائر سيدات البلاط ، تحيط بهن كل مظاهر البذخ والترف المألوفة ، وكسبت القوات الفرنسية الرئيسية التي يقودها الملك ، ولكن يخطط عملياتها

أدريان موريس دى نواى وموريس دى ساكس ، انتصارات يسيرة فى كورتراى ومنان وأبيرس وفورنيس . وبدا وكان لويس الرابع عشر والقرن العظيم ولدا من جديد .

ووسط المهرجانات والابتهاجات ترامت الأنباء بأن قوة فرنسية تخلى عن مساندتها إلى حد كاف حلفاءها البافاريون ، كانت قد هأت الفرصة لجيش نمسوى مجرى أن يحتل أجزاء من الألزاس واللورين ، مما اضطر معه ستانسلال الذى لم يفارقه سوء الطالع ، إلى الهرب من لونفيل . وترك لويس فلاندرز وأسرع إلى متزأملا فى استشارة هم الجيش المنهزم بوجوده . ولكنه ، هناك ، نتيجة المشاغل المتنوعة وسوء الهضم وحرارة أواسط الصيف ، انتابه مرض شديد ، وازدادت الحالة سوءا بسرعة إلى حد أنه فى ١١ أغسطس ظن أن فى خطر من أن يهلك ، وكانت خليلته قد لحقت به ، وهى الآن تسهر على العناية به ورفض أسقف سواسون أن يناوله الأسرار المقدمة الأخيرة إلا إذا طردت الدوقة . واستسلم لويس ، وأقصاها إلى نحو ١٥٠ ميلا بعيدا عن الحاشية (١٤ أغسطس ١٧٤٤) وشيعها الأهالى بصيحات الاحتقار والاستنكار وهى تغادو المدينة .

وفى الوقت نفسه كانت مارى لوكزنسكى قد عجلت بالسفر عبر فرنسا لتكون إلى جانب زوجها وهو طريح الفراش . وعلى الطريق التقى ركبها بعربة شاتورو وبطانتها . وعانق الملك الملكة قائلا « لقد سيبت لك مالا تستحقين من الحزن والأسى ، وأرجو أن تغتفرى لى هذا كله » . فكان جوابها « ألا تعرف أنك لست فى حاجة أبدا إلى الصفح من جانبي . إن الخطأ فى حق الله وحده » . وعندما بدأ الملك يسترد صحته كتبت الملكة إلى مدام دى موريا بأنها « أسعد مخلوقة على وجه الأرض » . واغتبطت فرنسا كلها أيما اغتباط بشفاء الملك وندمه على ما فات ، وعانق المواطنون بعضهم بعضا فى الشوارع ، وعانق بعضهم جواد الرسول الذى حمل هذه الأنباء السارة . واطلق بعضهم على الملك « لويس المحبوب جدا » ورددت الأمة هذه العبارة . وعندما سمع بها لويس تعجب قائلا « ماذا فعلت لأجعلهم يحبوننى إلى هذا الحد ؟ » (١٨) إنه كان رمز الوالد لشعبه .

وأُنقذ فرديريك الألزاس لفرنسا بغزو بوهيميا ، فإن الجيش النمساوى
المجرى ترك الألزاس لإنقاذ براج . وانضم لويس ، وهو لا يزال ضعيفا إلى
جيشه المتقدم نحو ألمانيا ، ورآه يستولى على فريبورج - أم بريسمجو . وفى
نوفمبر عاد الملك إلى فرساي ، وأعاد مدام دى شاتورو إلى سابق حظوتها
ومكانتها ، ونفى أسقف سواسون . ولكن فى ٨ ديسمبر ، وبعد أن عانت
من الحمى والهذيان لعدة أيام ، قضت الخليفة نجها . ودفنت فى ظلام الليل ،
تفاديا لامتهان الجمهور لرفاتها . واستاء الملك من رجال الدين فامتنع عن
تناول الأسرار المقدسة فى عيد الميلاد ، وظل يترقب غراما جديدا .

ونسيت الأمة لبعض الوقت خطايا « المحبوب جدا » وسط انتصارات
جيشه ، وكان قائد ألماني بروتستانتى هو بطل فرنسا . ذلك أن موريس
دى ساكس كان ابن أوجسطس القوي ناخب مكسونيا وملك بولندا .
وكانت أمه هى الكونتس ماريا أورورا فون كونجس مارك التى اشتهرت
بين محظيات الملك بالجمال والذكاء إلى حد أطلق معه فولتير عليها « أنها
أشهر امرأة على مدى قرنين من الزمان » (٩٩) . وفى سن الثانية عشرة تزوج
موريس من جرهانا فكتوريا ، كونتيس فون لوين ، وكانت سيئة الخلق
مثل أبيه . وبدد ثروتها واستنكر دعارتها وفجورها وطلقها (١٧٢١) .
وبعد أن أظهر شجاعته فى حملات كثيرة قصد إلى باريس لدراسة الرياضيات .
وفى ١٧٢٠ حصل على منصب فى الجيش الفرنسى . وبعد أن نجح من كل
محاولات زوجته السابقة لقتله بالسم ، عثر على خليفة مخلصه فى شخص
أدريين لكوفيرير التى برزت مكانتها فى الكوميدي فرانسيز آنذاك
(١٧٢١) . وفى ١٧٢٥ غادر فرنسا ليؤسس له مملكة فى كورلند (جزء
من لتفيا الحالية) . أما الممثلة العظيمة ، فإنها على الرغم من حزنها الشديد
على فقد حبيبها ، منحتة ، عوناً له على تنفيذ مشروعه ، كل ما لديها من
من فضة وحلى ومصوغات ، قيمتها أربعون ألف جنيه . وبهذا المبلغ ،
بالإضافة إلى سبعة آلاف طالير (عملة فضية ألمانية قديمة) من والدته ،
قصد إلى كورلند ، وانتخب لعرش الدوقية (١٧٢٦) . ولكن كاترين

الأولى قيصرية روسيا وأياه ساندا مجلس الديت البولندى فى مناهضة ارتقائه العرش ، وطردت القوات البولندية من كورلند ، الجندى الذى لم يكن ليقهر لولا هذه المقاومة ، ولما عاد إلى باريس (١٧٢٨) وجد أن الممثلة الكبيرة كانت تنتظره مخلصه له ، ولكنه كان قد ورث عن أبيه خلقه وتقلبه ، ورضى بها صاحبة الخطوة الأولى بين عشيقاته .

ومع هذا الانحلال الخلقى الجدير بالازدراء وتقلبه بين أحضان النساء الواحدة بعد الأخرى دون أن يبادهن اخلاصهن ، أصبح موريس فى ميدان القتال عبقرى لا يجارى فى استراتيجىة الحرب ، جريئاً فى تفكيره ، يقظاً لأى خطر يهدده ، وأية فرصة تسنح له . وقال عنه فردريك الأكبر مناسه الوحيد فى ذلك العصر إنه « قادر على تلقين الدروس لأى قائد فى أوربا » (١٠٠) وفى ربيع ١٧٤٥ عين قائدا عاما للجيش الفرنسى ، وصدرت إليه الأوامر بالتقدم نحو الجبهة . وكان على شفا الموت آنذاك فى باريس ، حيث أنهكه إفراطه فى الشراب وآلام داء الاستسقاء المبرحة ، وسأله فولتير كيف يذهب إلى ميدان القتال فى مثل هذه الحالة ، فأجابه موريس « ليس المهم أن أعيش ولكن المهم أن أبدأ » . (١٠١) . وفى ١١ مايو التحم بجيشه البالغ ٥٢ ألف رجل مع قوات الإنجليز والهولنديين البالغ عددهم ٤٦ ألفا من الرجال الأشداء ، فى فونتنوى . وكان لويس والدوفين يتابعان سير المعركة الشهيرة على ربوة قريبة ، أما موريس الذى أقعده الاستسقاء عن ركوب الخيل ، فكان يديرها وهو على كرسى من الأغصان المجدولة . ويروى لنا فولتير ، فيما كان يمكن أن يتطور إلى أسطورة وطنية ، (١٠٢) أنه عندما أصبح مشاة الأعداء وجهاً لوجه على مرمى البنادق ، صاح لورد تشارلز هاى قائد الحرس الإنجليزى « أيها الفرنسيون أطلقوا النار » فأجابه كونت دى أنتروخ عن الفرنسيين « أيها الرجال ، نحن لن نبدأ بإطلاق النار ، فهلى تبدأون أنتم » (١٠٣) وأيا كان الأمر كياسة أو خدعة حربية ، فإن الثمن كان غاليا . حيث قتل بالطلقات الأولى تسعة ضباط و ٤٣٤ من المشاة ، وجرح ٣٥ ضابطا و ٤٣٠ جنديا . (١٠٤) واضطرب المشاة الفرنسيون وتفرقوا وولوا الأدبار . وأرسل موريس إلى الملك يعرض عليه الانسحاب ، فأبى لويس ، حتى حين وصل

إلى مكانه الجنود العائدون ، وربما أحجلهم تصميمه . فما كان من موريس إلا أن امتطى صهوة جواد ، وأصدر أوامره إلى قواته من جديد وأعاد تنظيمها ، وأطلق القوات الملكية الخاصة على العدو . وقد رأى الفرنسيون مايكهم في خطر الأسر أو الهلاك ، وحيث شجعهم وجود ماريشال دى ساكس المتهور تحيط به طلقات النار من كل مكان في أية لحظة ، فإنهم جددوا القتال ، وأبدى النبلاء والعامة بطولة عظيمة مشربة بروح الانتقام في ساحة المجد . وأخيرا هزم الإنجليز واحتلت صفوفهم ، وأرسل موريس إلى الملك يبشره بالفوز في هذا الالتحام الميرير . وفقد الإنجليز والهولنديون ٧٥٠٠ رجل ، والفرنسيون ٧٢٠٠ . وحنى لويس رأسه خجلا حين حياه الجنود الباقون على قيد الحياة . والتفت إلى الدوفين ولى العهد قائلا « انظر يا بني كم يكلف النصر ، احرص على أن تكون ضنينا بدماء رعاباك » (١٠٥) . وبينما عاد الملك ومرافقوه إلى فرساي ، تقدم موريس للاستيلاء على غنت وبروجز وأودينارد وأوستند وبروكسل . ودانت الفلاندرز كلها لفرنسا فترة من الزمن .

وضيع فردريك نتائج فونتنوى بتوقيعه صلحا منفردا مع النمسا (ديسمبر ١٧٤٥) وتركت فرنسا تقاتل وحدها على ست جهات من الفلاندرز إلى إيطاليا . وبمقتضى معاهدة إكس لاشابل (١٧٤٨) تخلت عن الفلاندرز ، وكان عليها أن تقنع بالحصول على دوقيات بارما وبياشنزا وجوستيلا لصهر لويس الجديد (زوج ابنته) الأمير دون فلييب الأسباني . وعاش موريس أوف سكوسونيا حتى عام ١٧٥٠ ، غنيا معززا مكرمًا ، ومثقلا بالأمراض . وكان يجد فسحة من الوقت ، بين الغواني ، ليدون بعض نظرات فلسفية حاملة : « ماذا نرى اليوم في الأمم ! نفر من الناس يعيشون في فراغ وسرور وجدة على حساب الجواهر التي لا تعيش إلا على توفير ملذات جديدة دوما لهذه القلة من الناس . إن هذه المجموعة من الظالمين والمظلومين تشكل ما نسميه مجتمعا » (١٠٦) .

وتجاسر رجل آخر من القلة المرموقة المنعمة على أن يحلم بنظام أرحم وأكرم . ذلك أن رينيه لويس دى فوايه ، مركزيز أرجنسون الذى تولى منصب وزير الخارجية لمدة ثلاث سنوات (١٧٤٤ - ١٧٤٧) ، كتب فى ١٧٣٩ « تأملات فى حكومة فوتسا » ، ولم يجرؤ على نشره إلا فى ١٧٦٥ . وجاء فيه أن هؤلاء الذين يفلحون الأرض هم أعظم قطاع فى السكان قيمة ، وينبغى أن يتحرروا من كل الرسوم والالتزامات الإقطاعية ، والحق أنه يجدر بالحكومة ، أن تقرض صغار الفلاحين أموالا لتساعدهم على الاتفاق على زراعاتهم^(١٠٧) . والتجارة حيوية لازدهار الأمة ويجب تحريرها من المكوس والرسوم الداخلية ، بل من رسوم التصدير والاستيراد كلما أمكن ذلك . والنبلاء هم أقل العناصر قيمة فى الدولة ، أثبتوا عجزهم فى الإدارة ، وهم عالة على المجتمع » . وإذا قال أحد بأن هذه المبادئ تتفق مع الديمقراطية ، وتميل إلى القضاء على طبقة النبلاء فلن يكون مخطئا . ولأنه ليجدر بالتشريع أن يهدف إلى أكبر قدر ممكن من المساواة . وينبغى أن يحكم الكوميونات موظفون ينتخبون محليا ، على أن تبقى السلطة المطلقة الرئيسية فى يد الملك ، لأن الملكية المطلقة وحدها هى القادرة على حماية الناس من ظلم الأقوياء^(١٠٨) . واستبق دى أرجنسون الفلاسفة فى التطلع إلى الإصلاح على يد ملك مستنير ، وقصص على النبلاء ما لم يعترفوا به إلا فى ٤ أغسطس ١٧٨٩ حين تنازلوا عن امتيازاتهم الإقطاعية ، ومن ثم كان مرحلة فى طريق فرنسا إلى روسو وإلى الثورة .

وفى ١٧٤٧ استسلم لويس لتحريض نواى ومورباس وبمبادور وعزل دى أرجنسون . وفقد المركز ثقتة فى الملوك . وفى ١٧٥٣ تنبأ بما حدث فى عام ١٧٨٩ : « إن المسارئ والشرور الناجمة عن الحكومة الملكية الاستبدادية لتقنع كل فرنسا وكل أوربا بأنها أسوأ الحكومات وإن هذه الفكرة لتبرز وتنتشر وتزداد قوة ، وقد تؤدى إلى ثورة وطنية . . . وكل شئ يمهّد الطريق إلى حرب أهلية . . وأذهان الناس مهياة للتمرد

والعصيان ، ويبدو أن كل شيء يتجه إلى ثورة كبرى في الدين والحكومة معاً (١٠٩) .

أو كما قالت خلية الملك الجديدة « من بعدى الطرفان » .

مدام دى بمبادور

هى من أشهر النساء في التاريخ ، وأوتيت من الرشاقة والجمال ما أعمى أبصار معظم الرجال عن آثامها وخطاياها ، ومع ذلك وهبت من قوة الذهن ما مكناها لمدة عقد زاهر من السنين ، من أن تحكم فرنسا وتحمي فولتير وتنقذ موسوعة ديدرو ، مما أدى بالفلاسفة إلى القول بأنها تنتسب إليهم . ومن العسير أن ننظر إليها في الصورة التي رسمها لها بوشيه دون أن نفقد نزاهة المؤرخ في الافتتان بالإنسان . فهل كانت دى بمبادور إحدى روائع الطبيعة ، أو إحدى روائع بوشيه فحسب ؟

وكانت قد بلغت الثامنة والثلاثين حين رسمها ، وكانت صحتها الهزيلة تتدهور ، ولم يحط من قدرها بالحسبة أو الشهوانية السطحية في صوره العارية المشرقة . وبدلاً من ذلك أبرز تقاطيع وجهها الرائعة ، ورشاقة قوامها ، والدوق في ملابسها . والرقعة الناعمة في يديها ، « وتسريحة » شعرها الخفيف الأسمر عالياً فوق الجبين . وربما زاد من قيمة هذه المفاتن بخياله ومهارته ، ولكنه مع ذلك لم ينقل ضحكها المرحمة المستهتر ، ولا ريحها الوديعة ، بل لم ينقل ذكاءها الحاد الماكر ولا قوة شخصيتها الهادئة ، ولا صلابته لإرادتها التي لا تلين ولا ترحم أحياناً .

وكانت جميلة منذ ولادتها تقريباً . ولكنها لم تحسن اختيار والديها ، فكان عليها أن تناضل طوال حياتها ضد إزدراء الاستقرائية للطبقة الوسطى التي نبتت فيها . وكان والدها سمانا (بقالا) ، وهو فرنسوا بواسون الذي لم يستطع يوماً أن يتخلى من اسمه « السيد سملك » (بواسون بالفرنسية معناها سملك) . واتهم بالاختلاس فحكم عليه بالاعدام سناً ، ولكنه هرب إلى همبرج ، وتحايل للحصول على العفو عن جريمته ، وعاد إلى باريس

(١٧٤١) . أما والدتها فكانت ابنة « متعهد لتموين العجزة . » وشغلت بالارتقاء في أحضان الرجال ، بينما كان زوجها يستدر العطف في هبرج . واستمتعت بعلاقة غرامية طويلة بملتزم ثرى ، هو شارل فرنسو لينورمانت دى تورنيم ، الذى تولى الاتفاق على تعليم البنت الجميلة التى وضعها مدام بواسون فى ١٧٢١ .

وأتيح لهذه الابنة ، جين أنطوانيت بواسون . أحسن ما يمكن أن يتاح من المعلمين ، جليوت ، الجهير العظيم ، للغناء ، وكرييون الأب لفن الإلقاء ، حتى باتت فى الوقت المناسب تنافس نجوم المسرح فى الغناء والرقص والتمثيل . وكان صوتها فى حد ذاته اغواء « . (١١٠) وتعلمت الرسم والحفر ، وعزفت على البيان القيثاري إلى حد تحمست له مدام دى ميللى فى استحسان عزفها . ولما كانت جين فى التاسعة من عمرها ثنأت لها سيدة عجوز (كافأتها فيما بعد على نبوءتها) بأنها ستصبح يوما ما « عشيقة الملك » (١١١) ولما بلغت الخامسة عشرة دعا جمالها وأعمالها البارة أمها إلى القول بأنها « طبق شهى للملك » ، ولو أنه من المؤسف أنها لن تكون ملكة . (١١٢) ولكن « الطعام الشهى للملكى » كانت قد بدأت تسعل دما .

وفى سن العشرين أغراها مسيودى تورنيم بأن تزوج ابن أخيه شارل غليوم لينورمانت دى اتوال ، ابن أمين صندوق دارسك النقود . وهام الزوج يحب زوجته ، وقدمها إلى المنتديات مفاخرا مزهو بها . والتفت فى منتدى مدام دى تنسان بمونتسكيو وفونتنيل وديكلو وماريفو ، وأضافت فن الحديث إلى مفاتها الأخرى . وسرعان ما استضافت هى نفسها ، مع فونتنيل ، مونتسكيو وفولتير فى بيتها . وكانت سعيدة . وأنجبت طفلين وأقسمت « أنه لن يحملها أحد فى العالم ، إلا الملك ، على أن نخون زوجها أو تكون غير مخلصة له » (١١٣) أية بصيرة نافذة هذه !

وفكرت الوالدة فى أن هذا الاستثناء من للمستطاع تدبيره . ورأت أنه يمكن أن تقصد جين مستقلة مركبة فاخرة إلى غابات سينار حيث يذهب لويس للصيد . وكثيرا ما رأى الملك وجهها الذى لا يمكن نسيانه . وقدمت

الرشاوى إلى غلمان الملك ليطروا جالها له ، به . وفى ٢٨ فبراير ١٧٤٥ شهدت حفلة رقص تنكرية أقيمت فى أوتيل دى فيل بمناسبة زواج الدوفين ، وتحدثت إلى الملك ، وطلب منها أن تخلع القناع لحظة ، ففعلت ، ثم انصرفت وهى ترقص ، وفى أبريل رآها فى مسرحية هزلية تمثلها فرقة إيطالية فى فرساي . وبعد ذلك بعدة أيام أرسل إليها دعوة لتناول العشاء . ونصحتها أمها « بأن تسلى الملك رتدخل السرور على قلبه » وفعلت جين ، واستسلمت للملك . وعرض عليها جناحا فى فرساي فقبلت . وحث مسيو تورنهم الزوج على أن يأخذ المسألة بروح فلسفية : « لا تعرض نفسك للسخرية بالاسترسال فى الغضب مثل أى برجوازي ، أو بخلق مشكلة ^(١١٤) وعين الملك سيودى أقوال ملتزما عاما ، وكيف الرجل نفسه ليكون جامع ضرائب ، وابتهجت الأم بارتفاع مكانة ابنتها ، وقضت تحبها . وفى سبتمبر حصلت جين على ثروة عريضة ، وأصبحت المريضة دى بمبادور ، وقدمت بهذه الصفة إلى الحاشية وإلى الملكة التى هدأت من روعها ولاطفها فى ارتباطك طفيف . إن الملكة غفرت لها باعتبارها شرالابد منه ، ودعتها للعشاء . أما الدوفين فلأنه ، على أية حال ، أطلق عليها « مدام هور » (السيدة البنى) واستاءت الحاشية لاقتحام سيدة برجوازية مخدع الملك واستيلائها على أمواله ، وما فاتهم أن يلحظوا انزلاقها من حين إلى حين إلى التفوه بألفاظ الطبقة الوسطى أو انتهاج أساليبها . وتمتعت بباريس بالمقطوعات الساخرة والهجاء اللاذع « لخادمة الملك الشابة » . وعانت فى صمت وجلد بغض الناس لها ، حتى باتت قادرة على تثبيت انتصارها وفرض سلطانها .

ولإذ رأت لويس وقد نلغ به السأم والضجر ذروته ، وهو الذى يملك كل شيء ، ولكن كل شيء كان قد فقد عنده كل نكهته وطلاوته ، فلأنها تفننت وأظهرت عبقريتها فى تسلية والترفيه عنه . فألته بحلبات الرقص والمسرحيات الهزلية والحفلات الموسيقية وروايات الأوبرا ، وحفلات العشاء والزهاث والصيد والقنص ، وفيما بين هذا وذاك أدخلت على قلبه البهجة والسرور بمرحها وحيويتها وحديثها البارع وذكاها . وأقامت فى فرساي

« مسرح البيت الصغير » ، وأقنعت الحاشية بالقيام بأدوار على المسرح ، كما كان الحال في أيام لويس الرابع عشر ، ومثلت هي نفسها في مسرحيات موليير الهزلية ، وقامت بدورها على خير وجه ، إلى حد أن الملك قال عنها « أشد النساء فتنة في فرنسا » (١١٥) . وتنافس النبلاء على تمثيل الأدوار . وقام الدوفين الصارم نفسه بدور أمام « السيدة البغي » . وتفضل بأن يكون دمثاً معها في دنيا النفاق . وأصاب الملك بعض نوبات دينية ، فهدأت من روعه بالموسيقى الدينية التي عزفها بشكل يأسر له ، حتى نسي خوفه من الجحيم . وأصبح يعتمد عليها كل الاعتماد لولعه بالحياة وتعلقه بها ، فأكل معها ، ولعب ورقص وقاد عربته واصطاد معها ، وقضى معها كل ليلة تقريباً . وما هي إلا بضعة سنين حتى خارت قواها وتدهورت صحتها .

وشكا البلاط من أن مدام دي بمبادور صرفت الملك عن مهامه بوصفه حاكماً ، وأنها كانت عبثاً ثقيلاً على خزانة الدولة ، فقد ازدانت بأغلى الثياب والجواهر ، وتألفت غرفة ملابسها بآنية الزينة المصنوعة من البللور والفضة والذهب . وازدانت حجراتها بالأثاث المطلى باللك أو الخشب الأطلساني أو المطعم بالصدف والعاج والمعادن ، وأروع آنية الخزف المصنوعة في درسدن وسيفر والصين واليابان ، وكانت تضاء بثریات فخمة من الفضة والزجاج ، تنعكس أنوارها على مرايا ضخمة على الجدران ، أما سقفوها فكانت منقطعة بالصور التي رسمها بوشية وفانلو لإلهات الحب التي تبهج الحواس وتثيرها . ولما أحسّت بأنها مهيمنة وسط هذا الترف والبذخ ، صعبت مبالغ طائلة من المال من الملك أو من الخزانة لتشييد أو تؤثت قصوراً وبررت تجهيزاتها المسرفة وحدائقها الشاسعة بأنها لازمة لاستضافة صاحب الجلالة . وكان لها الضبيعة والقصر في كريسى في درى ، وشادت قصر « المنظر الجميل » الفخم على ضفاف السين بين سيفر ومودون . وأقامت صوامع أو أدياراً صغيرة في غابات فرساي وفونتينبلو وكومبيين واتخذت من « أوتيل دي بونشارتران مقرأ لإقامتها في باريس ، ثم انتقلت إلى قصر كونت دي افرى في شارع فوبورج سانت أونوريه ، ويبدو أن السيدة

الفاتنة أنفقت ما يبلغ في جلته ٣٦,٣٢٧,٢٦٨ جنيتها (١١٦) ، كان جزء منه فنا
بقي في حوزة فرنسا . وبلغت نفقاتها الخاصة ٣٣ ألف جنيه سنوياً (١١٧) .
واتهمتها فرنسا بأنها كانت تكلفها أكثر مما تكلفها الحرب .

وجمعت دى بمبادور من السلطة والنفوذ قدر ما جمعت من الروة وأصبحت
المجرى الرئيسى الذى يفيض بالتعيينات والرواتب وأوامر العفو وغيرها من
من النعم والعطايا من الملك . . وحصلت لدوى قرباها على المنح والهبات
والألقاب والوظائف ذات العمل اليسير والدخل الكبير . ولم تهىء لابنتها
الصغيرة ألكسندرين التى كانت تسميها « فانفان » شيئاً يذكر ، ولكنها
كانت تحمل بتزويجها لأحد أبناء لويس الخامس عشر من مدام دى فنتميل ،
ولكن فانفان ماتت في سن التاسعة ، وحطمت قلب أمها . أما أخوها آبل
— الوسيم الدمث — فإنه بنفسه كسب عطف الملك الذى كان يدعو « بالأخ
الصغير » ، وكثيراً ما كان يدعو إلى العشاء . ونصبته بمبادور مركز دى
مارينى وعينته مديراً عاماً للمبانى ، فقام بوظيفته في جد وكفاية ، إلى حد
رضى معه وسر به الجميع تقريباً . وعرضت بمبادور عليه أن ترقى به إلى
مرتبة الدوق فرفض .

وانتشر أثرها على الفن الفرنسى بل الأوربى ، ويرجع هذا إلى حد ما
إلى الملك ، ولكن أكبر الفضل فيه يرجع إلى شخصها هى . وأخفقت
محاولاتها في أن تكون هى بنفسها فنانة ، ولكنها أحبت الفن من كل قلبها ،
وما لمست شيئاً إلا وصار جيلاً . وازدهرت الفنون الصغيرة بشكل يهر
الألباب بفضل تشجيعها . وأقنعت لويس الخامس عشر بأن فرنسا تستطيع
صنع الخزف اللازم لها ، بدلا من استيراده من الصين ودرسدن ، مما
يكلفها ٥٠٠ ألف جنيه سنوياً . وثابرت على ذلك حتى تعهدت الحكومة
بتمويل مصانع الخزف في سيفر ، واكتسب الأثاث وأدوات الأكل
وساعات الحائط والمرواح والمركبات وأواني الزهر والزجاجات والصناديق
والنقوش على الأحجار الكريمة والمرايا ، واكتسب كل أولئك فنة دقيقة
سريعة الزوال حتى يتفق مع ذوقها الرفيع الذى يتطلب مهارة فائقة ،

وأصبح « ملكة الروكوكو » (١١٨) . (فن الزخرفة المعقدة) . وكان قدر كبير من إسرافها في النفقة يرجع إلى الرعاية التي أسبغت على الرسامين والمثاليين والنقاشين على الخشب والمعادن ونجاري الأثاث الفاخر والمعماريين . وأغدقت على بوشية وأودرى ولاتور ومائة غيرهم من الفنانين . وأوحث إلى فانتلو وشاردان أن يصورا مشاهد الحياة العامة ، فأنهت بذلك التكرار المبتذل لموضوعات من تاريخ العصور القديمة والوسطى وأساطيرها ، واحتملت في تسامح باسم تدمير لاتور ووقاحته ، حين كان يرسم لها صورة . وأطلق اسمها على المراوح وتسريحات الشعر والياب والأطباق والأثاث والكراسي والأشرطة ، وعلى « ورده بمبادور » المصنوعة من الخبز المفضل لديها ، وفي هذه الحقبة ، لا في عهد لويس الرابع عشر ، على الأرجح ، بلغ تأثير فرنسا على المدنية الأوروبية ذروته .

وربما كانت بمبادور أكثر نساء زمانها ثقافة . وكان لها مكتبة تضم ٣٥٠٠ مجلد منها ٧٣٨ في التاريخ ، و ٣١٥ في الفلسفة ، ومجلدات كثيرة في الفن ، وبعض مجلدات في السياسة أو القانون ، إلى جانب عدة قصص في الحب . وواضح أنها إلى جانب تسليية الملك ومكافحة أعدائها والمساعدة على حكم فرنسا ، كانت تجد فسحة من الوقت لقراءة الكتب القيمة ، لأنها هي نفسها كتبت لغة فرنسية رائعة ، في رسائل زاهرة بالمادة ساحرة البيان . وكم توسلت إلى حبيبها أن يبارى جده في رعايته للأدب ، ولكن ورعه وبخله قعدا به عن ذلك . وعندما حاولت أن تنجله وتخرجه بقولها : بأن فرديك الأكبر أجرى على دالمبرت راتبا قدره ألف ومائتا جنيه ، أجاب بقوله « هنا أفذاذ أكثر مما في بروسيا . وقد أكون مضطرا إلى إقامة مأدبة عشاء كبيرة لأجمعهم كلهم » . وبدأ يهدم على أصابعه « موبرتيوس » ، فونتيل ، لاموت ، فولتير ، فريرون ، بيرون ، ديتوش ، مونتسكيو ، كاردينال دي بولينك » . وأضاف من كانوا حوله ، « دالمبرت ، كليرو ، كريبيون الابن ، بريفوست » . . وعندئذ تهد الملك قائلا « حسناء معنى هذا أن كل هؤلاء كان يمكن أن يتناولوا الغداء أو العشاء معي طوال خمسة وعشرين عاماً (١١٩) » .

وعلى ذلك أحثت بمبادور مكان الملك في رعاية الأدب . فأنت بفولتير إلى البلاط ، وأغدقت عليه ، وحاولت أن تحميه من سوء تصرفاته ، ومساعدت مونتسكيو ، ومارمونتيل ، وديكلوس ، وبيفون وروسو ، ويسرت انضمام فولتير وديكلوس إلى الأكاديمية الفرنسية . ولما سمعت بما يعاني كريبيون الأب من الفقر أجرت عليه راتباً ، وخصصت له جناحاً في اللوفر ، وعاونت على إحياء مسرحيته « كاتيلينا » ، وأصدرت تعليقاتها إلى إدارة المطبعة الملكية بإصدار طبعة أنيقة من روايات الكاتب العجوز . واختارت فرانسوا كيرني طبيباً خاصاً لها وهو من أنصار المذهب الفزيوقراطي وخصصت له جناحاً تحت جناحها مباشرة في فرساي ، وكانت تستقبل هناك ديدرو ودالمبرت وديكلوس وهلفيشيوس وترجو ، وغيرهم ، مما كان يمكن أن تكون أفكارهم مصدر إزعاج الملك ، ويروى مارمونتيل : « ولما لم تكن تستطيع أن تدعو هذه المجموعة من الفلاسفة إلى « صالونها » فلإنها كانت تنزل لهم لتجتمع بهم على المائدة وتتجاذب معهم أطراف الحديث (١٢١) » .

وكان طبيعياً أن ينظر رجال الدين وجماعة الأتقياء في الحاشية وعلى رأسهم الدوفين ، بعين الرعب والقرع إلى تدليل هؤلاء الكفار . وفوق ذلك ، كان معروفاً أن بمبادور كانت تؤيد فكرة فرض الضرائب على أملاك الكنيسة ، بل حتى تجريدتها من الصفة الدينية أو انتزاعها من يد الكنيسة ، إذا كان هذا هو المهرب الوحيد من إفلاس الدولة (١٢١) . وأشار اليسوعيون على كاهن اعترف للملك أن يمتنع عن مناقشته الأسرار ما دام يحتفظ بعلاقته بهذه العشيقة الخطرة (١٢٢) . ودافع أبناء الملك عن رجال الدين ، واستخدمت ابنته الكبرى هنريت التي يؤثرها بحبه ، نفوذها في التفريق بينه وبين بمبادور . وكان عيد الفصح من كل عام مثار أزمة بين العاشقين . ففي ١٧٥١ أظهر لويس تلهفاً شديداً على تناول القربان المقدس . وفي محاولة منها لتهدئته واسترضاء كاهن الاعتراف ، الأب بيروسو ، واطلبت على إقامة الشعائر الدينية وحضور القداس يومياً والصلوات بشكل يلفت الأنظار ، كما أكدت للكاهن أن علاقتها الآن بالملك علاقة

أفلاطونية بريئة تماماً . ولما لم يقتنع الكاهن بهذا ، فإنه طلب إليها ، أن تغادر البلاط ، شرطاً مسبقاً للساح للملك بتناول الأسرار المقدسة . ومات بروسو ، ولكن خليفة ديمارتس وكان متشدداً مثله . وثبتت بمبادور في مكانها ، ولكنها داومت على ورعها الظاهري . ولم تفتقر قط لليسوعيين أنهم لم يأخذوا « تحوطها » مأخذ الجسد ، وربما كان لإستياها منهم دور صغير في طردهم من فرنسا في ١٧٦٢ .

وربما كان قولها الحق في أنه لم يعد لها اتصال جنسى بالملك لويس . وقد أكد دارجنسون أحد أهدائها هذه الحقيقة (١٢٣) . وكانت بالفعل قد أفضت إلى بعض خلصائها بأنها تجد مشقة متزايدة في الإستجابة للنيران المتقدة بين جنبيه (١٢٤) ، راعترفت بأن عدم تحمسها لمضاجعته ذات مرة أو هن ما اشتد من قوته ، وأصابه عجز جنسى وتملكه الغضب (١٢٥) . وتناولت « عقاقير الحب » (١٢٦) دون نتيجة تذكر ، اللهم إلا الإضرار بصحتها . وأدرك أعداؤها في البلاط هذا الوضع فجددوا مؤامرتهم لإقتلاعها من مركزها . وفي ١٧٥٣ دبر دارجنسون خطة تنفذ بها مدام دي شوازيل رومانت إلى أحضان الملك ، ولكنها طالبت بثمان باهظ ظن أنه لا يتكافأ مع توضيحيتها وسرها ما تمكنت بمبادور من طردها . وهنا آن الأوان أن تأوي المحظية الأولى المنهكة إلى « متنزه الأطباء » البغيض .

وفي « متنزه الأطباء » في طرف ناء من فرساي جهز مسكن لإقامة شابة أو شابتين مع خدمتهما ومرافقيهما حتى يحين الوقت لىستقبلهما لويس في جناحه الخاص ، أو يقصد إليهما في مسكنهما متنكراً في زى كونت بولندى عادة . وتناثرت الشائعات بأن هؤلاء البنات كن كثيرات ، وأضافت الأساطير أن سن بعضهن لم تزد على تسع سنوات أو عشر . والظاهر أنه لم يكن يوجد منهن في وقت واحد أكثر من اثنتين (١٢٧) ، وكان يؤتى بمجموعات منهن على التعاقب ، ليتدربن على أن يقدمن للملك « حق السيادة » فإذا حملت إحداهن أعطيت مبلغاً من المال يتراوح بين عشرة آلاف ومائة ألف جنيه ، يساعدها على العثور على زوج لها في الأقاليم ، وكان الأطفال

الذين يولدون عن هذا الطريق يمنحون راتباً سنوياً قدره أحد عشر ألف جنيه . وعلمت مدام دى بمبادور بأمر هذا « الحريم » الذى لا يصدق ، فلزمت الصمت . ورغبة منها فى ألا تحتل مكانها عشيقة من النبيلات ستعمل من غير شك على إبعادها عن البلاط ، بل ربما عن باريس ، آثرت أن تترك للشابات الوضيعات أن يشبعن أذواق الملك القاسده ، وانهارت حالتها المعنوية إلى الحضيض وقالت لمدام دى هوست « كل ما أضن به هو قلبه ، وكل هؤلاء الفتيات غير المتعلات لن يسلبننى إياه (١٢٨) » .

ولم تزعج الحاشية إنزعاجاً ملموساً لهذه الترتيبات الجديدة لأن كثيراً من رجالها احتفظوا هم أنفسهم بأكواخ فى « منتدى الأطباء » هذا لخليلاتهم (١٢٩) . ولكن أعداء بمبادور افترضوا أن سلطانها قد آذن بزوال . ولكن خاب فآلمهم ، فإن الملك ظل صديقها المخلص لفترة طويلة بعد أن انقطعت عن أن تكون « خليلته » . وكان فى ١٧٥٢ قد خلع عليها رسمياً لقب دوقة . وفى ١٧٥٦ ، وعلى الرغم من احتجاجات الملكة منحها المنصب الرفيع « مديرة قصر الملكة » (كبير وصيفات الملكة) . فلزمت الملكة ، وحضرت معها العشاء ورافقتها إلى القداس . ولم كانت وظيفتها الجديدة تقتضى الإقامة فى البلاط فإن اليسوعيين تنازلوا عن طلبهم إبعادها وألغى « الحرم من الكنيسة » الذى ظل مفروضاً عليها لفترة طويلة ، وأجيز لها تناول الأسرار المقدسة . أما بنات الملك اللاتي ناصبها العداوة منذ زمن طويل فكن يقصدن إلى زيارتها فى « شوازى » .

وقضى لويس معها مدة ساعات فى كل يوم تقريباً ، حيث ظل يجد لذة فى طلاوة حديثها ورقتها الفاتنة التى لا تنضب معها . واستمر يحترم ، وغالباً ما يتبع ، مشورتها فى التعيينات ، وفى المسائل الداخلية ، بل حتى فى السياسة الخارجية . وأصدرت الأوامر إلى الوزراء ، واستقبلت السفراء واختارت القواد ، ونحدثت أحياناً باسم الملك وباسمها ، وكأنها تشترك فى الحكم ، فكانت تقول « نحن » سننظر (فى الأمر) . وكان طلاب الوظائف يزحون حجرة انتظارها ، فكانت تحسن استقبالهم وتلاطفهم . وسلم أعداؤها بسعة إطلاعها المدهشة فى الشؤون السياسية ، ولباقتها فى الأحاديث الدبلوماسية ،

ونظراتها التي كثيراً ما كانت ثابتة (١٣٠) . وكانت قد أشارت منذ زمن بعيد إلى أن عجز قواد فرنسا هو أساس اضمحلالها العسكري . وفي ١٧٥٠ ، اقترحت على لويس أن ينشئ مدرسة حربية يتلقى فيها الفنون والعلوم العسكرية أبناء الموظفين والضباط الذين قتلوا أو استنزفت قواهم في خدمة الدولة . ووافق الملك ولكنه أبطأ في توفير الاعتمادات اللازمة للمشروع . فنقلت بمبادور إلى هذا المشروع دخلها الخاص لمدة عام ، ووفرت له أموالاً إضافية عن طريق « يانصيب » ، وضريبة على لعب الورق ، وأخيراً فتحت المدرسة ١٧٥٨ م'حققة « بقصر الانفاليد » .

والآن نصح هذا الوزير الساحر بلا وزارة بمراجعة جريئة لسياسة فرنسا الخارجية وإعادة تقييمها . وربما جاءت المبادرة بهذا « التقص المشؤوم للأحلاف » من كونت فون كونتز سفير النمسا في باريس . وقد عززها التنازل الكاره من جانب الإمبراطورة التقية ماريانريزا التي خاطبت بمبادور « بصديقتي العزيزة » ، و « ابنة عمي » ، كما عززها فردريك الأكبر بإشارته المهينة إلى المركيزة دي بمبادور « بحكم المرأة » في البلاط الفرنسي . وكانت مدام دي شاتورو ودارجنسون قد وجها السياسة الخارجية نحو الصداقة مع بروسيا ، وأوضح كونتز وبمبادور أن بروسيا الحديثة — التي قويت بيلانتصار في حرب الوراثة النمسية ، والتي لديها جيش قوامه ٥٠ ألف جندي أحسن تدريبهم تحت إمرة قائد قدير طموح لا يبالي بأية مبادئ خلقية ، وملك غدر بفرنسا مرتين بتوقيعه صلحاً منفرداً — إن بروسيا هذه لا بد أنها سرعان ما تشكل خطراً أشد من خطر النمسا التي كانت قد فقدت آنذاك سيليزيا ، ولم تعد تتوقع أي عون أو تأييد من أسبانيا في ظل حكم آل بوريون ، وقد انقضى تطويق النمسا لفرنسا . وقويت هذه الحجة حين عقدت بروسيا في ١٦ يناير ١٧٥٤ تحالفاً مع إنجلترا — عدوة فرنسا التقليدية ورد مجلس الدولة الفرنسي على هذا بإبرام تحالف مع النمسا (أرل مايو) . وهنا نجد أن المركيزة دي بمبادور التي عادت الآن تبصق دماً ، وكانت في الخامسة والثلاثين ، ولم يبق لها من العمر إلا ثمان سنوات ، نجد أنها قد لعبت دورها في التهديد لاشعال حرب السنين السبع .

الفصل الثامن الأخلاق والعادات

١ - التعليم

كان بين الصراعات الكثيرة الأساسية التي شهدتها فرنسا في القرن الثامن عشر ، محاولة الكنيسة الاحتفاظ بسيطرتها على التعليم ، إلى جانب محاولة الفلاسفة وغيرهم لإنهاء هذه السيطرة والقضاء عليها . وبلغ الصراع ذروته بطرد اليسوعيين من فرنسا في ١٧٦٢ ؛ ، وتأميم المدارس الفرنسية ، وغلبة التعليم العلماني في الثورة الفرنسية . وكان الخلاف قد بدأ يبرز في النصف الأول من القرن الثامن عشر فقط .

ولم تكن الغالبية العظمى من الفلاحين تعرف القراءة . وفي كثير من المجتمعات الريفية ، كانت الهيئات البلدية ، حتى إلى عام ١٧٨٩ ، « لا تكاد تعرف الكتابة » (١) . وكان في معظم الأبرشيات على أية حال « مدرسة صغيرة » يقوم فيها الكاهن بنفسه ، أو من يعينه هو ، بتعليم القراءة والكتابة والدين المسيحي على صورة سؤال وجواب ، للأولاد الذكور أساساً ، في مقابل رسم زهيد يدفعه الآباء عن كل تلميذ (٢) ، أما الأولاد الذين يعجز آباؤهم عن الدفع فكانوا يتعلمون بالهجان إذا طلبوا ذلك . وكان للحاق بهذه المدرسة مطلوباً قانوناً بمقتضى مراسيم ١٦٩٤ و ١٧٢٤ ، ولكن هذه المراسيم لم تنفذ (٣) ، وامتنع كثير من الآباء العلاحين عن إرسال أبنائهم إلى المدرسة ، لحاجتهم إليهم في المزرعة من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأنهم رأوا أن التعليم أمر مزعج لا ضرورة له لمن قدر عليهم أن يشتغلوا في الأرض . فالتعليم لم يكن يكفل أى ارتفاع في المركز الاجتماعي لأن الحواجز الطبقية كانت عقبة لا يمكن التغلب عليها تقريباً في النصف الأول من القرن . وفي القرى والمدن الصغيرة نادراً ما كان الذين تعلموا القراءة يقرأون شيئاً غير ما تعلق بعملهم اليومي . وكان كل إنسان يعرف قواعد الدين ، وفي المدن الكبيرة وحدها كان هناك شيء من المعرفة بالأدب والعلوم والتاريخ .

وفى الطبقات المتوسطة والعليا كان معظم التعليم على أيدي المربيّات والمؤدّبين ، أو المعلمين الخاصين ، وأخيرا على أيدي معلمى الرقص ، وهؤلاء الأخيرون كان مفروضاً فيهم أن يعلموا الجنسين كليهما الفنون الشاقة ، وهى فنون الجلوس والوقوف والمشى والحديث والإيماء ، فى كياسة ورقة . وتلقّت بعض الفتيات دروساً خاصة فى اللاتينية ، وفوق هذا كله تقريباً ، تعلم الفقراء الغناء والعزف على البيان القيثارى . وقام التعليم العالى للبنات فى الأديار ، حيث ارتقن فى الدين والتطريز والموسيقى والرقص وقواعد السلوك القويم الذى يجدر بالشابة أو الزوجة أن تتحلّى به .

وكان كل التعليم الثانوى للذكر تقريباً فى يد اليسوعيين ، ولو أن الرهبان الأورأتوريين والبنديكتيين أسهموا فيه . وكان المتشككون من أمثال فولتير وهلفيشيوس من بين الخريجين العديدين المرموقين فى كلية اليسوعيين « لويس الأكبر » حيث كان الأب شارل بوريه يقوم بتدريس « البلاغة » (أى اللغة والأدب وعلم الكلام) وترك فى تلاميذه ذكريات طيبة . وما كاد المنهج فى المدارس اليسوعية ليتغير طوال قرنين من الزمان . وعلى الرغم من تركيز هذا المنهج على الدين والأخلاق ، فإن مادته كانت كلاسيكية إلى حد بعيد ، فكان التلاميذ يدرسون مؤلفات رومه القديمة فى نصوصها الأصلية ، فأكب التلاميذ الصغار على دراسة الفكر الوثنى لمدة خمس أو ست سنوات ، فلا عجب أن ساورتهم بعض الريبة فى عقيدتهم المسيحية . وأكثر من هذا فإن اليسوعيين « لم يدخروا وسعا فى تنمية ذكاء تلاميذهم وغيرتهم » (٤) . فكانوا يشجعون على المناقشة والتحدث علانية وعلى تمثيل الروايات ، وكانوا يتعلمون قواعد لترتيب أفكارهم والتعبير عنها ، ومن ثم كان جزء من وضوح الأدب القرنسى وصفاته من غرس المدارس اليسوعية ، وأخيرا تلقى الطالب مناهج قاسية فى المنطق والميتافيزيقا وعلم الأخلاق عن أرسطو من ناحية وفلاسفة العصور الوسطى السكولاسيين (المدرسين) من ناحية أخرى . وهنا ، مرة أخرى ، نجد أن النتائج كانت تقليدية ، إلا أن عادة التفكير والاستنتاج والتحليل بقيت - وأصبحت بالفعل - علامة مميزة لهذا العصر

« عصر العقل » بوجه خاص . وكان الجلد بالسياط أيضا جزءا من المنهج ، حتى لطلاب الفلسفة ، ودون تميز في المرتبة أو المكانة الاجتماعية ، فقد جلد من أصبح فيما بعد مركز دارجنسون ودوق بوفلرز ، أمام أقرانها في الفصل ، لأنهما قدفا أساتذتهما الأجلاء بحبات البازلاء^(٥) .

وعلت الشكوى بالفعل من أن المنهج لم يول عناية تذكر بما وصلت إليه المعرفة من تقدم وازدهار ، وأن التعليم كان نظرياً إلى حد كبير ، ولا يعد للحياة العملية ، وإن الإلحاح الشديد على التعليم الديني قد أفسد الأذهان أو أغلقها . وفي « رسالة عن التعليم » كانت يوماً مشهورة (١٧٢٦-١٧٢٨) دافع شارل رولان رئيس جامعة باريس عن المنهج الكلاسيكي (القديم التقليدي) وعن التركيز على الدين . وكان من رأيه أن الهدف الاسمي من التعليم هو خلق أناس أفضل . وأفاضل المعلمين « لا يعنون كثيراً بالعلوم ، حيث لا تساعد هذه العلوم على التمسك بأهداب الفضيلة . ولم يكونوا يأبهون كثيراً بالتزود بألوان المعرفة ، إذا لم تقترن بالاستقامة وحسن الخلق . وكانوا يؤثرون الرجل الأمين على الرجل العالم الواسع الاطلاع^(٦) . وقال رولان إنه من الصعب أن نشكل الخلق القويم دون تأسيسه على عقيدة دينية . ومن ثم « ينبغي أن يكون الهدف من جدودنا ، والغرض من تعليمنا هو الدين »^(٧) وسرعان ما يثير الفلاسفة الجدل حول هذا الموضوع ، ويستمر الجدل حول ضرورة الدين للأخلاق طوال القرن الثامن عشر ، والقرن الذي يليه . وهو جدل حي في أيامنا هذه .

٢ - الأخلاق

ويبدو أن حجة رولان كانت تؤيدها الفروق الطبقيّة في المبادئ الأخلاقية . إن الفلاحين الذين تمسكوا بدينهم عاشوا حياة أخلاقية نسبياً . وربما كان هذا ، على أية حال راجعاً إلى حقيقة أن الأسرة كانت وحدة الإنتاج الزراعي ، وأن الأب كان أيضاً المستخدم أى صاحب العمل ، وكان نظام الأسرة يركز في جذوره على نظام اقتصادي يفرضه تعاقب الفصول ومتطلبات الأرض . واستمسكت الطبقات الوسطى بقدر كبير من العقيدة

الدينية ، مما عزز سلطة الأبوين أساساً للنظام الاجتماعى . أما مفهوم الأمة باعتبارها رابطة من الأسرات عبر الأجيال ، فقد هيا لأخلاقيات الطبقة الوسطى قوة التماسك والتقاليد . وكانت الزوجة البرجوازية نموذجاً للجد والتقوى والأمومة . وكانت تتحمل آلام الوضع فى صبر وجلد ، وسرعان ما كانت تعود إلى عملها . وكانت قانعة ببيتها وعلاقاتها مع جيرانها ، وقليل ما انزلت إلى زخرف الدنيا الخداع التى يسخر الناس فيها من الانخلاص على أنه شيء عتيق بال . ونادراً ما نسمع عن حوادث الزنى عند زوجات الطبقة الوسطى . وضرب كل من الأب والأم معا مثلاً رائعاً فى العادات القويمة والتمسك بالدين والحب المتبادل . وتلك هى الحياة التى خلده شاردان ذكرها معترابها ، فى لوحاته مثل « البركة » .

ومارست كل الطبقات أعمال البر والإحسان وكرم الضيافة . وكانت الكنيسة تجمع الصدقات وتوزعها . ودعا الفلاسفة المعادون للدين إلى عمل الخير ، وبنوا دعوتهم على أن هذا حب للإنسانية لا حب لله ، ومن ثم كانت « الإنسانية » الحديثة نتاجاً للدين والفلسفة معا . وأمدت الأديار الجلياع بالطعام ، وعينت الراهبات بالمرضى ، وقامت المستشفيات وملاجئ الفقراء والأيتام والعجزة على الأموال التى تدفعها الدولة والكنيسة والتقابات . وكان بعض الأساقفة مبشرين منصرفين إلى متاع الدنيا . ولكن نفرأ آخر منهم — مثل أساقفة أوكسير وميربوا وبولون ومرسيليا — وهبوا ثرواتهم وحياتهم لأعمال البر والإحسان . ولم يكن موظفو الدولة مجرد طالبي مناصب أو نفعيين طفيليين ، فإن موظفى بلدية باريس كانوا يوزعون الطعام وحطب الوقود والنقود على الفقراء « وفى ريمس خصص أحد أعضاء البلدية ٥٠٠ ألف جنيه للصدقات . وكان بالملك لوس الخامس عشر نزعات إلى الشفقة والعطف والحنان المشوب بالجن . وعندما خصص مبلغ ٦٠٠ ألف جنيه للألعاب النارية احتفالاً بمولود دوق برجندي الجديد (١٧٥١) ، ألغى الملك العرض وأمر بتوزيع المبلغ مهوراً لستمائة من أفقر بنات باريس ، وحذت مدن أخرى حذوه . وعاشت المالكة عيشة مقتصدة غير مسرفة وأنفقت معظم (م ٥ — قصة الحضارة)

دخلها في الأعمال الخيرية . وكذلك أنفق دوق أورليان ابن الوصى المشاغب الخليع ثروته في أعمال البر والإحسان . ويبدو الجانب غير المشرق في هذا الموضوع في الفساد والإهمال اللذين يشوها إدارة المؤسسات الخيرية . فهناك عدة أمثلة لمديرى مستشفيات استولوا لأنفسهم على الأموال التي كانت تصلهم من أجل العناية بالمرضى والفقراء .

وعكست الأخلاقيات الاجتماعية طبيعة الإنسان — أنانى وكريم ، وحشى . يخلط بين قواعد اللياقة وسفك الدماء في المعركة . ولعب رجال الطبقات العليا والدنيا ونساؤها الميسر في تهوور بالغ ، دون إحساس بالمسئولية وبددوا ثروات أسراتهم ، وكان الغش في اللعب سائداً إلى حد كبير (٨) . وفي فرنسا ، كما كان الحال في إنجلترا ، أفادت الحكومة من حب الناس للمقامرة بإنشاء « يانصيب » وطنى . أما أسوأ مظاهر الحياة الفرنسية وأكثرها مجافاة للأخلاق فهو تبذير أرستقراطية الحاشية البالغ الخلى من الرحمة ، تلك الأرستقراطية التي كانت تعيش على الدخول التي كانت تبزها من الفلاحين الفقراء . فإن ملاءات سرير الدوقة دى لافرى كانت مشغولة بالمخمرات الغالية الثمن ، وتكلفت ٤٠ ألف كراون ، وكانت لآلىء ومجوهرات مدام ابحونت تساوى ٤٠٠ ألف كراون (٩) ، وكانت الخيانة والخذاع أمرين عاديين مألوفين في أعمال الموظفين ، واستمر بيع الوظائف والمناصب ، وكان مشتروها يستغلونها في الاثراء غير المشروع تعويضاً لهم عما دفعوا فيها ولم يكن قدر كبير مما يجي من الضرائب يصل إلى خزانة الدولة . وفي غمرة هذا الفساد نمت روح الوطنية ، ولم يكف الرجل الفرنسى عن حب فرنسا ، ولم يطق الرجل الباريسى أن يعيش طويلاً بعيداً عن باريس . وامتاز كل فرنسى تقريباً بالبسالة . وفي حصار ماهون ، ورغبة من المارشال دى ريشيليو في منع جنوده من تعاطى المسكرات ، أصدر هذا القائد قراراً يقول فيه « أن أى فرد منكم يوجد ثملاً في المستقبل لن يكون له شرف الاشتراك في الهجوم » فتوقف شرب الخمر تقريباً (١٠) ، واستمرت المبارزة على الرغم من كثرة قرارات تحريمها . قال لورد تشستر فيلد « إن المرء ليلحقه الخزى والعار إذا لم يثر للإهانة ، وإنه ليلقى حتفه إذا استاء لها (١١) »

وكان عقاب اللواط الإعدام حرقاً ، ولكن هذا القانون كان ينفذ في الفقراء وحدهم ، كما حدث مع أحد رعاة البغال ١٧٢٤ . وفي ١٧٢٥ أُلقي القبض على الراهب ديفونتين ، الذى كان قد اشتغل بالتدريس في إحدى الكليات اليسوعية لمدة خمسة عشر عاماً ، واتهم بمثل هذه الفعلة ، فأُهاب بفولتير لمساعدته ، فنهض فولتير من فراش مرضه قاصداً إلى فونتينلو ، واستحث فليرى ومدام دى برى لاستصدار عفو عنه (١٢) ، وطيلة العشرين عاماً اللاحقة كان ديفونتين من أعداء فولتير . وكان بعض خدام الملك منحرفين جنسياً . ويبدو أن أحدهم ، وهو تريمويل ، اتخذ من الملك دى. الستة عشر ربيعاً غلاماً له (١٣) .

وانتشر البغاء بين الفقراء والأغنياء . وفي المدن الصغيرة كان أصحاب الأعمال ينفقون مستخدماتهم الأناث مبالغ لا تفي بتفقاتهن الضرورية ، وأجازوا لهن أن يكمنن أجورهن اليومية بالاستجداء وممارسة الدعارة ليلاً (١٤) . وقد ركّاب معاصر عدد البغايا في باريس بأربعين ألفاً . وهناك تقدير آخر بأنهن ستون ألفاً (١٥) وكان الرأى العام — فيما عدا الطبقة الوسطى متسامحاً مترفقاً بأمثال هؤلاء النسوة ، حيث أدرك أن كثيراً من النبلاء ورجال الدين ووجوه المجتمع ساعدوا على خلق هذا الطلب الذى أدى إلى هذا العرض ، وتلزع الرأى العام بشيء من الملياقة ، فأدان الفقيرات اللاتي يبعن أعراضهن أقل مما أدا أن الذين يشترون المتعة ، أى أن مسئولية هؤلاء عن هذا العمل الشائن أكبر . وكانت نظرة رجال الشرطة إلى هذا الأمر تختلف عن ذلك اللهم إلا إذا قدمت شكوى خاصة أو عامة ضد هؤلاء « البنات » وهنا يتم الاعتقال بالجملة ، تبرئة لساحة الحكومة ، وعندئذ يساق النساء للمثول أمام أحد القضاة ، وقد يحكم القاضى بإيداعهن السجن أو المستشفى ، حيث تخلق رعوسهن بالموسى ويعاقبن ويوضعن تحت المراقبة ثم يطلق سراحهن . وتنمو شعورهن من جديد . وإذا خلقن متاعب جمة لأحد ذوى النفوذ والسلطان أو أسان إليه ، فيمكن إرسالهن إلى لوزيانا . وعرضت محظيات الحاشية أو المومسات اللاتي يتردد عليهن

الأغنياء ، مركباتهن وحليهن ومجوهراتهن في طريق « كور - لا - رين » في باريس ، أو في متنزه « لونجشامب » (١٦) . وإذا حصلن على عضوية الكوميدي فرانسيز أو الأوبرا ، حتى لتمثيل الأدوار القصيرة ، اكتسبن الحصانة ضد الاعتقال بتهمة بيع مفاتهن أو أعراضهن . وارتفع بعضهن ليكن نماذج للفنانين (لرسم الصور العارية) ، أو يتخذهن النبلاء ورجال المال أخذانا لهم خاصة . واقتنص بعضهن أزواجاً ، وحصلن على ألقاب و ثروات ، وأصبحت واحدة منهن بارونة سانت شاموند .

وكانت الزيجات القائمة على الحب ، دون موافقة الأبوين ، تزداد في عددها وفي الإنتاج الأدبي . وكان من الممكن الاعتراف بشرعيتها إذا عقدت أمام كاتب العدل أو الموثق . ولكن في معظم الأحوال ، حتى بين الفلاحين ظل الآباء هم الذين يرتبون أمر الزواج باعتباره اتحاداً بين الممتلكات والأسرات ، لا مجرد اتحاد الأفراد . فالأسرة ، لا الفرد ، هي وحدة المجتمع ، ومن ثم كانوا يرون أن بقاء الأسرة وممتلكاتها أهم من الملذات العابرة أو العواطف السريعة الوهن عند الشباب المتهور . وفوق هذا قال فلاح لابنته « الحظ أقل عمى من الحب (١٧) » .

وكانت السن القانونية للزواج هي الرابعة عشرة للذكور والثالثة عشر للإناث . ولكن كان يمكن قانوناً أن تتم الخطبة في سن السابعة ، وهي التي حددها فلاسفة العصور الوسطى مبدأ « سن العقل » وكانت الشهوة الجامحة عند الشبان تدفع بهم إلى مطاردة الآنسات مطاردة عنيفة ، إلى حد أن الآباء زوجن بناتهم حالما كان ذلك ممكناً ميسوراً تفادياً لإنفصاخص البكارة قبل الأوان ، وهكذا كانت المركيزة دي سوفيف أرملة في الثالثة عشرة من عمرها . وازمت بنات الطبقتين الوسطى والعليا الدير حتى يتم اختيار الأزواج لهن ، وعندئذ يجعل بهن من حياة الدير إلى حياة الزوجية ، وكان لزاماً تشديد الحراسة عليهن في الطريق . ونهذه النظام القاسى المنافى للأخلاق السيء ، كان كل النساء تقريباً عذارى عند الزواج .

وإذا احتقرت الأرستقراطية الفرنسية التجارة والصناعة ، ونادراً ما

غطت الدخول الإقطاعية نفقات الإقامة في البلاط وما تقتضيه من مظاهر ، فإنها وطنت النفس على تزويج أبنائها للذين توافرت لهم الأرض ولم يتوافر لديهم المال ، من بنات الطبقة البرجوازية العليا اللاتي لا يملكون أرضاً ، ولكن يملكن مالا . ولما اعترض ابن دوقة شولن على زواجه من ابنة التاجر بونييه ذات الصداق الكبير . أوضحت له أمه « أن زواج المنفعة من هي دونك مرتبة ، هو مجرد حصول على الروث لتسميد أرضك » (١٨) . وفي مثل هذه الزيجات عادة ، كان الزوج النبيل أو ذو اللقب . وهو يستغل أموال زوجته ، يذكرها من حين لآخر بأصلها الوضيع ، وسرعان ما يتخذ خليلة . وفي هذا خير شاهد على احتقاره لزوجته . ولم يغب هذا أيضاً عن ذاكرة الطبقة الوسطى حين ساعدت الثورة .

ولم يوصم الزنى بأية وصمة عار اجتماعي ، في البيئه الأرستقراطية ، بل كان أمراً مقبولا باعتباره بديلاً ساراً عن الطلاق الذي حرمة الديانة الوطنية . وقد يتخذ الزوج الذي يخدم في الجيش أو في الأقاليم له خليلة ، دون أن يبدى لزوجته سبباً مقبولا للشكوى . وقد يفترقان الواحد منهما عن الآخر ، بالخدمة في الحاشية أو في الضيعة ، وهنا أيضاً قد يتخذ خليلة ومذ كان عقد الزواج يتم دون الزعم بأن العاطفة يمكن أن تتجاوز عن الثراء فإن كثيراً من الزوجين من النبلاء عاشا فترة طويلة من حياتهما منفصلين ، وأباح كل منهما للآخر زلاته ، شريطة أن تكون هذه الزلات مستورة بلباقة ، كما تكون في حالة المرأة مقصورة على رجل واحد في نفس الوقت وأجرى مونتسكيو على لسان سائح الفارسي قوله : « إن الرجل الذي يريد أن يستحوذ على زوجته له هو وحده يعتبر معكراً لصفو السعادة العامة ، غيباً يريد أن يستأثر بالاستمتاع بضوء الشمس ، ويحجبها عن سائر الناس » (١٩) . وسئل يوماً دوق دي لوزون الذي لم يكن رأى زوجته طيلة عشر سنين ، ماذا يقول لو أن زوجته أرسلت إليه تنبئه بأنها حامل ، فأجاب ، مثل أى سيد ساجد في القرن الثامن عشر : « أكتب إليها لأقول إنى مبهج فرح لأن الله بارك زواجنا ، اعتن بصحتك ، سأحضر لأقدم لك احتراماتي هذا المساء » (٢٠) ، فالغيرة كانت أمراً مرفولاً .

وكان بطل الزنى وقتى العصر ونموذج الإنافة فى ذاك الزمان هو لويس فرانسوا أرمان دى فينيرو دى بلسيس ، دوق ريشيليو حفيد أخى الكاردينال الصارم المتقشف . وقد انزلت إلى مخدعه عدة سيدات نيلات من ذوات الألقاب ، الواحدة تلو الأخرى ، تجرهن إليه مكائنه وثروته وشهرته . ولما وبخ ابنه وهو العاشرة من عمره على بطله تقدمه فى دراسته اللاتينية ، أجاب فى سرعة مفحمة : « أن أبى لا يعرف اللاتينية ، ولكنه مع ذلك يحظى بأجمل نساء فرنسا (٢١) » . وهذا لم يمنع اختياره للأكاديمية الفرنسية قبل فولتير ، صديقه ودائنه ، بثلاث وعشرين سنة . وكان فولتير يكبره بعامين . ومهما يكن من أمر فإن رأى معام استهجن سلوكه هذا الدوق لأنه كان يجلب إلى الملك النساء لهذا الغرض الدنى . ومنعته جيوفران من التردد على ندوتها لأنه يجمع بين عديد من أمهات الكبائر (٢٢) . وعمر حتى بلغ الثامنة بعد التسعين ، ومات قبل قيام الثورة بعام واحد .

وإذا كانت العلاقة بين الزوجين على هذا النحو ، فإننا نستطيع أن نتصور مصير أبنائهما . كان النبلاء يعتبرون صراحة أن أبنائهم عواقب فى طريقهم ، ويدفعون بهم عند ولادتهم إلى المروضات ، ويتولى تنشئتهم مربيات ومعلمون خاصون ، حيث يرون والديهم بين الحين والحين . وروى تاليران أنه لم ينم قط تحت السقف الذى نام تحته أبوه وأمه . وكان من رأى الأبوين أنه من الحكمة أن يباعدا بينهم وبين أبنائهم ، فكانت العلاقة الحميمة أمرا شاذا ، وكانت الألفة أمرا غير معروف . فعاطب الابن أباه بقوله « سيدى » وقيلت البنت يد أمها . وإذا كبر الأبناء أرسلوا إلى الجيش أو الكنيسة أو الدير . وكانت كل الممتلكات تؤول إلى الابن الأكبر ، كما كان الحال فى إنجلترا .

وامتصر أسلوب الحياة هذا سائدا فى نبلاء الحاشية ، حتى ارتقاء لويس السادس عشر عرش فرنسا فى ١٧٧٤ . وكشف هذا الأسلوب ، من جهة أخرى ، عن فقدان الإيمان بالدين عند الطبقات العليا . وتحلى الناس تماماً عن مفهوم الزواج فى المسيحية ، مثله فى ذلك مثل مفهوم الفروسية فى

العصور الوسطى . وأصبح الجرى وراء اللذة والمتعة « وثنيا » بشكل أشد سفورا منه في أى وقت منذ عصر رومه الامبراطورية المضمحلة . ونشرت كتب كثيرة في « الأخلاقيات في فرنسا في القرن الثامن عشر » ، ولكن كانت هناك أيضاً كتب كثيرة تعالج البذاءة والفحش بطريقة مدروسة متعمدة ، وكانت أوسع انتشاراً ورواجاً ولو كانت سرية . وكتب فردريك الأكبر يقول « إن الفرنسيين ولا سيما سكان باريس ، أصبحوا الآن مترفين متغمسين في الملذات ، أوهنتهم المتعة والدعة » (٢٣) وحوالى ١٧٤٩ رأى مركز دارجنسون في إنحطاط الوعي الخلقى نذيراً آخر بكارثة وطنية : « القلب قوة نسلب أنفسنا إياها كل يوم لأننا لا نروضه ولا ندرجه أبدا . على حين أننا نشحذ الذهن ونصقله باستمرار ، فنصبح عقلانيين - لا عاطفيين - أكثر فأكثر وإنى لأتنبأ بأن هذه المملكة لا بد هالكة ، نتيجة لاختاد القوى التى تنيع من القلب ، إننا لا نكسب أصدقاء ، ولم نعد نجرب عشيقاتنا ، فكيف نجرب بلادنا ؟ . . . إن الناس يفقدون يوماً بعد يوم تلك الخلقة الحميدة التى نسميها رقة الشعور . ويختفى الحب والحاجة إلى الحب . . . وحسابات المصلحة تشغلنا وتستنزفنا دائماً . وكل شئ سبيل إلى الدسيسة والمكيدة . . . وتنطفىء جذوة النار الداخلية (العواطف) لأننا لا نغذيها ، ومن ثم يزحف الشلل إلى القلب » (٢٤) .

وهذا هو صوت بسكال يردد مذهب طائفة بورت رويال (مذهب الجانسينيين) وصوت روسو ، قبل ظهور جثن جاك بجيل واحد ، أو صوت الأرواح المرفهة الحس في أى عصر من عصور القلق الفكرى والتحرير ، ولسوف يطرق أسماعنا ثانية .

٣ - العادات

لم ير التاريخ قط أخلاقيات طائشة مثل هذه ، مزخرفة بموهة بتهديب ورقة في السلوك وأناقة في الملبس والحديث ، وتنوع في المتع والملذات ، وقتنة في النساء ، وكياسة متأنقة في المراسلات ، وإشراق في الفكر والدكاء :

« ولم يوجد قط في فرنسا من قبل ، أو في أوروبا المعاصرة . . . بل ولا في العالم منذ وجد العالم ، مجتمع مهذب ذكى مبهج ، مثل المجتمع الفرنسى في القرن الثامن عشر » (٢٥) قال هيوم في ١٧٤١ إن الفرنسيين « أتقنوا بدرجة كبيرة ذلك الفن ، وهو أنفع الفنون وأليقها ألا وهو فن الحياة ، فن المجتمع ، فن الحديث » (٢٦) . ولم تستخدم كلمة « مدنية » إلا في أخريات هذه الحقبة ، فلم تظهر في قاموس جونسون ١٧٥٥ ، ولا في « المعجم الكبير » الذى صدر في ٣٠ مجلدا في باريس في ١٧٦٨ .

وأحس الفرنسيون بالمدنية بوجه خاص في ملابسهم ، ونافس الرجال النساء منافسه كبيرة في العناية بالثياب . واقتضى الزى العصرى السائد أن يلبس أفراد الطبقة العليا قبعات كبرى ذوات ثلاث زوايا ، مزدانة بالريش والأشرطة الذهبية ، ولما كانت هذه القبعات تفسد ترتيب شعورهم المستعارة ، فلينهم وضعوا القبعات عادة تحت أذرعهم . وكانت الشعور المستعارة آنذاك أصغر مما كانت عليه أيام الملك العظيم (لويس الرابع عشر) ، وكانت أكثر شيوعا حتى بين الحرفيين . وكان في باريس ألف ومائتا حانوت للشعور المستعارة ، يعمل فيها ستة آلاف عامل . وكان الشعر الطبيعى والمستعار يدهن بالمساحيق . وكان شعر الذكور طويلا عادة ، ويلم بشریط أو في كيس وراء الرقبة . وكانوا يرتدون سترة طويلة زاهية اللون — من الخمل عادة — فوق البدلة الداخلية التى تكشف عن صدره مفتوحة عند الخلق ، وعن قميص حريرى رقيق ، ورباط عنق عريض ، وأكمام تنتهى إلى « كشكشات » مزخرفة عند المعصم . وكانت « بنطلونات » الركوب القصيرة ملونة ، والجوارب من الحرير الأبيض . وكانت الأحذية تشد بمشابك من فضة . ولبس أفراد الحاشية أحذية ذات كعوب حمراء . علامة مميزة لهم . واستخدم بعضهم عظام فك الحوت ليحتفظوا بأذيال ستراتهم ممتدة على نحو صحيح . وتزين بعضهم بالماس في عرى ستراتهم . وكان الجميع يحملون سيوفا . وحمل بعضهم العصى . وكان حمل السيف محرما على الخدم وغلان الحرفيين والموسيقين (٢٧) . وكانت ملابس أفراد الطبقة البرجوازية

بسيطة : ستره و « بنطلون » قصير من قماش عادى قائم ، وجوارب صوفية سوداء أو رمادية ، وأحذية ذات نعال سميكه وكعوب وطبقة . وارتدى الحرفيون وخدم المنازل الأردنية التي كان الأغنياء يلبسونها . وتدمر ميرابو الأكبر من أنه كان لا يستطيع التمييز بين الحداد واللورد !

وظلت السيدات تتمتعن بحرية أرجلهن داخل الرحاب الفسيح لتنورانهن ذات الأطواق الموسعة . وشجب رجال الدين النساء اللاتي ارتدين مثل هذه التنورات « بأنهن اثاث قرده أو أعوان الشيطان » ولكن النساء أحيبها لأنها تضيء عليهن جلالا حتى ولو كن حبالى . وتروى مدام دى كريكى « أنها لم تستطع أن تهمس أذن مدام دى ايجونت لأن التنورة ذات الأطواق الموسعة حالت دون اقتراب الواحدة منهما من الأخرى » (٢٨) أما حذاء السيدة ميلادى « ذو الكعب العالى والمصنوع من جلد ملون والمرصع بتطريزات من الذهب والفضة — فقد أضفى على قدمها فتنة تسلب الألباب إذا لم يراها أحد . وارتقى صانع حذاءها إلى مصاف البرجوازية العليا بسبب إبداعه فى فنه ، وكم من قصة حب كتبت عن قدم جميلة ، وهى عادة حذاء جميل وكان مثيرا إلى مثل هذا الحد تقريبا ، ذلك « الخلف » المزين برسوم الأزهار ، الذى لا نعل له ، والذى كانت تلبسه ميلادى فى البيت . وكانت مقيدة أيضا الأهداب والحواشى والمراوح والملابس التحتية المزخرفة التى كانت تجذب عين الرجل الزائفة أو تخفى جسم المرأة الحائرة فى كل ناحية . وكان مشد الخصر والردفين (الكورسيه) المصنوع من عظام فك الحوت يساعد على تشكيل هذا الجسم فى القوام الأنيق الذى يقتضيه العصر ويلأئم المكانه الاجتماعية . وبرز جزء معقول من الصدر ليشهد بالامتلاء المناسب المريح . وكان الحلاقون وضعين بسطاء . ولم تظهر تسريحة الشعر العالية إلا فى ١٧٦٣ . وعالجت مستحضرات التجميل والتطرية لليدين والذراعين والوجه والشعر . وتحلف الرجال قليلا عن النساء فى استخدام العطور . وكان وجه السيدة ينقش ويطل بالمساحيق ، وتوضع عليه بطريقة بارعة لصوق تجميلية أو شامات من الحرير الأسود مقطعة على شكل قلوب

أو قطرات من الدموع أو أبقار أو نيازك أو نجوم ، ويمكن أن يكون للسيدة العظيمة سبع أو ثمان من هذه اللصوص على جبهتها ، وصدغيها وقرب عينيها وعلى جوانب الفم . وكانت تحمل صندوقاً للصوق فيه شامات إضافية تعوض بها ما قد يتساقط منها . وكانت المائدة في حجرة ملابس السيدة الغنية تتألف بالأدوات والمواد اللازمة لها - صناديق من الذهب والفضة أو الحجر اللازوردى ، مخصصة لحفظ أدوات الزينة . وتلايلات الجواهر الثمينة على الذراعين والرقبة والأذنين والشعر . وكان يسمح للرجال ذوى الخطوة بالدخول إلى حجرة ملابس السيدة ميلادى ليجاذبوا أطراف الحديث ، بينما كانت وصيفاتها تقمن بأعدادها لبرنامج اليوم . وكان الرجال فى الطبقة الأرستقراطية عبيداً للنساء كما استعبدوا للزى السائد للنساء ، أما الزى فيحدده مصمم ملابس النساء . وبعد ١٧٠٤ أعرضت فرنسا عن محاولات تحديد الزى أو الملابس ، عن طريق قوانين ضبط الإنفاق . واتبعت أوروبا الغربية بصفة عامة أزياء فرنسا ، ولكن كانت هناك أيضاً موجة معاكسة فإن زواج لويس الخامس عشر من مارى لوكزنسكا أتى بطرز بولندية وأدخلت الحرب ضد النمسا والمجر أزياء مجرية ، وعمل زواج الدوفين من الأميرة الإسبانية ماريا تريزا رافاييلا على انتشار « الطرحة » فى فرنسا من جديد .

ولم تكن وجبات الطعام منمقة مزخرفة مثل الثياب ، ولكنها تطلبت علماً دقيقاً متنوعاً ، كما تطلبت فناً رقيقاً . وكان المطبخ بالفعل النموذج الذى يحتذى فى العالم المسيحى وممكن الخطر فيه . وفى ١٧٤٩ حذر فولتير قومه من أن وجبات الطعام الثقيلة التى يتناولونها « قد تصيب آخر الأمر أذهانهم بالتبلد » (٢٩) . وضرب مثلاً طيباً للغذاء البسيط وسلامة العقل والفطنة . وكلما ارتقت الطبقة ، ازداد ما تتناول من طعام . وعلى هذا كانت وجبة العشاء على مائدة لويس الخامس عشر تتكون من حساء ، وشواء من لحم البقر ، وطبق من لحم العجل ، وبعض الدجاج ، والحجل والحمام . ثم الفاكهة الطازجة والفاكهة المحفوظة (٣٠) ويقول فولتير « كان نفر قليل من الفلاحين يدقون طعم اللحم لأكثر من مرة واحدة فى الشهر » (٣١) .

وكانت الخضروات ضرباً من الترف في المدينة حيث كان يصعب الاحتفاظ بها طازجة . وانتشر أكل السمك « الأنقليس » . وكان بعض السادة الكبار ينفقون ٥٠٠ ألف جنيه سنوياً على المطبخ ، وأنفق أحدهم ٧٢ ألف جنيه على مأدبة عشاء أعدها للملك والحاشية . وكان رئيس الخدم في البيوت الكبيرة شخصية مهيبة تثير الإعجاب ، يلبس ثياباً فاخرة ثمينة ، ويحمل سيفاً ، ويتألق في أصבעه خاتم من الماس . وكانت النساء الطباخات موضع ازدراء واحتقار ، وكم طمع الطباخون وجهدوا في ابتداع أطباق جديدة ليخلدوا أسماء سادتهم ، فأكلت فرنسا طبق شرائح لحم عجل المنظر الجميل (بل قى) - قصر مدام دى بمبادور المفصل لديها - « ودجاج فيلروا » وصلصة الميونيز ، تخليداً للذكرى انتصار ريشيليو في « ماهون » (٣٢) . وكانوا يتناولون الأكلة الرئيسية في الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر ، والعشاء في التاسعة أو العاشرة ليلاً .

وكانت القهوة آنذاك تنافس النبيذ شراباً . ولا بد أن ميشليه (المؤرخ الفرنسي ١٧٩٨ - ١٨٧٤) أحب القهوة كثيراً ، حيث رأى أن تزايد تدفق البن من شبه الجزيرة العربية والهند وجزيرة البوريون والبحر الكاريبي أسهم في انتعاش الروح الذي ميز عصر الاستنارة (٣٣) . وكانت كل صيدلية تبيع البن حبوباً أو القهوة المعدة للشراب على المنضدة الطويلة بداخلها . وفي ١٧١٥ كان في باريس ٣٠٠ مقهى ، وفي ١٧٥٠ زادت إلى ٦٠٠ ، كما وجد منها عدد مناسب في كل مدينة في الأقاليم وفي مقهى « بروكوب » وكان يسمى أيضاً « كاف الكهف » لأنه كان دائماً مظلماً « كان ديدرو يفشر أفكاره ، كما كان فولتير يقصد إليه متنكراً لسمع التعليقات على أحدث روياته . وكان مثل هذا المقهى منتدًى العامة حيث يلعبون الشطرنج أو « الضامه » أو « الدومينو » ، وفوق هذا وذاك يتجاذبون أطراف الحديث لأن الناس ازداد شعورهم بالوحدة والوحشة بازدياد السكان في المدن .

وكانت الأندية عبارة عن مقاه خاصة ، عضويتها مقيدة ، وتغلب عليها رعاية مصالح من نوع محدد . وحوالي ١٧٢١ أسس الراهب آلارى نادى

« دى لا ترسول » (عبارة عن طابق مسروق بين الطابق الأرضى والطابق الذى فوفه ، فى دار الراهب ، حيث كان يجتمع نحو عشرين من رجال السياسة والقضاء والحكم والأدب ليثدارسوا شئون الساعة، دينية أو سياسية وكان بولنجبروك هو الذى جاء بهذا الاسم فأدخل لفظة CLUB إلى اللغة الفرنسية ، وهناك شرح الراهب دى سانت بيير برأيه للإصلاح الاجتماعى والسلام الدائم ، مما أزعج بعضها الكاردينال فليرى فأمر بفض النادى فى ١٧٣٩ . وبعد ذلك بثلاث سنوات أسس أيضاً أنصار جيمس الثانى اللاجئون من إنجلترا فى باريس أول دار فرنسية للبنائين الأحرار (الماسونيين) ، كانت ملجأً للرؤبيين ، وكرآلدسائس السياسية ، وأصبحت منفلاً للتنفوذ الإنجليزى ومهدت الطريق للفلاسفة .

إن الرجال والنساء ، وقد أصابهم الضمجر والسأم من الكدح والنصب فى أعمالهم اليومية كانوا يقصدون زرافات ووجدانا إلى المتنزهات وقاعات الرقص والمسارح وفرق الموسيقى والأوبرا ، وأولع الأثرياء بالصيد والقتص والبرجوازيون بالتنزهات الحلوية . وكانت غابة بولونيا والشانزلرية وحدائق التويرلارى وحدائق لكسمبرج وحديقة النباتاب أو حديقة الملك ، كما كانوا يسمونها آنذاك — أماكن مفضلة للتنزه فى المركبات أو مشياً على الأقدام ، ولقاء العشاق وعروض عيد الفصح . أما إذا لزم الناس بيوتهم فإنهم كانوا يتسلون بالألعاب المنزلية والرقص والموسيقى والتمثليات الخاصة . وكان كل إنسان يرقص . وكان « البالية » قد أصبح فناً ملكياً معقداً . ظفر الملك فيه بنصيب من حين إلى حين . وكان راقص الباليه مثل كامارحو أو لاجوسان معبود الجماهير فى المدينة ومشتهى أصحاب الملايين .

٤ — الموسيقى

كانت الموسيقى فى فرنسا قد انحطت منذ تفوق لى على مولير فى تسلية الملك الأعظم فلم يكن هنا فى فرنسا هذا الجنون أو الولع الشديد بالموسيقى الذى أدى بايطاليا إلى نسيان إذلالها أو خضوعها السياسى ، ولا التفانى الشديد فى أساليب التلحين ، الذى أوجد القداسات الضخمة والألحان الموسيقية

المطولة المبنية على رواية الإنجيل لآلام المسيح في ألمانيا على عهد باخ .

وكانت الموسيقى الفرنسية في عصر انتقال من الشكل التقليدي إلى زخرفة الباروك، إلى رقة الروكوكو ، ومن الطباق المعقد ذى الألفاظ المشوهة للحن ، إلى ألحان سلسلة متدفقة وأفكار رئيسية رقيقة تتلاءم مع الطبيعة الفرنسية . واستمر مؤلفو الموسيقى يخرجون أغاني الغزل أو الهجاء أو أغاني حزينة تتحدى الفتيات ، وتحدى الملوك ، وتستنكر العزوبة والتواني . وامتدت رعاية الموسيقى من الملوك الذين يتطلبون العظمة والجلال إلى رجال المال الذين يدافعون عن حظوظهم مع الفرق الموسيقية والمسرحيات والشعر مما يستأثر به القلة من ذوى الجاه والنفوذ . وأخرجت أوبرا روسو « الموزيات الأنقيات » (إلهات تسع تحمين الشعر والغناء في الأساطير اليونانية) Les Muses Galantes في بيت الملزم العام بوبلنير . وكان لبعض الأغنياء فرق موسيقية خاصة بهم . وكانت العروض أو الحفلات المفتوحة للجمهور مقابل رسم دخول ، تقدمها بانتظام في باريس « فرق الموسيقى الروحية » التي أنشئت ١٧٢٥ وتبعها في ذلك سائر المدن . وقدمت الأوبرا في باليه رويال « في وقت متأخر بعد الظهر عادة ، حتى إذا انتهت في الثامنة والنصف مساء ، قصد المتفرجون للتنزه في حدائق التويلري ، وأطربهم المغنون والعازفون في الهواء الطلق . وكان هذا واحدا من المظاهر الفاتنة في الحياة في باريس .

وإننا لندرك من مطالعة كتاب ديدرو « ابن أخى رامو » كم من الملحنين والموسيقين البارعين أقبل الناس عليهم إقبالا شديداً في هاتيك الأيام ، على حين جر عليهم النسيان اليوم ذبوله . وثمة ملحن فرنسي واحد من تلك الحقبة خلف لنا أعمالا لا تزال تشبث بالحياة . إن جين فيليب رامو أولع أيما ولع بالموسيقى . وكان أبوه عازف الأرغن في كنيسة سانت اتين في ديجون . ويؤكد لنا كتاب السير المتحمسون أن جين استطاع في سن السابعة أن يقرأ أية موسيقى توضع أمامه بمجرد وقوع نظره عليها . وفي الكلية استغرق كل جهده في الموسيقى إلى حد أن الآباء اليسوعيين فصلوه ، وبعد ذلك

كاد جين لا يفتح كتاباً إلا في الموسيقى أو عن الموسيقى . وسرعان ما أصبح بارعا في العزف على الأرغن والبيان القيثاري والكان مما لم يكن بعده زيادة لمستزيد في ديجون . ولما وقع الشاب في شرك الغرام ، ورأى الوالد أن في هذا مضیعة لمواهبه أرسله إلى إيطاليا لیدرس أسرار الألحان فيها (١٧٠١) .

ولما عاد جان إلى فرنسا ، عمل عازفاً على الأرغن في كليرمونت فراند وخلف أباه في ديجون (١٧٠٩ - ١٧١٤) ، ثم رجع أدراجه إلى كليرمونت عازفاً على الأرغن ، في الكاتدرائية (١٧١٦) ، ثم استقر به المقام في باريس ١٧٢١ . وهناك في ١٧٢٢ وهو في التاسعة والثلاثين كتب مؤلفه الرائع عن النظرية الموسيقية في فرنسا في القرن الثامن عشر « رسالة عن علم الإيقاع موجزاً في أسسه الطبيعية » . وحاول رامو أن يبرهن أنه يوجد دائماً في التأليف الموسيقي السليم ، سواء كان موزعاً أو غير موزع - « قاعدة أساسية » يمكن أن تستمد منها كل الأنغام التي فوقها ، وأن كل النغمات المتألقة يمكن أن تستخرج من سلسلة إيقاعات النغمات الجزئية ، وأن كل هذه الأنغام يمكن أن تقلب دون أن تفقد هويتها . إن رامو كتب بأسلوب لا يفهمه إلا أكثر الموسيقيين تبحراً ومعرفة بالموسيقى ، ولكن أفكاره سرت دالمبرت الرياضي ، الذي شرحها بشكل أوفى ١٧٥٢ وإنك لتجد أن قوانين الترابط الوترى التي صاغها رامو ، مقبولة في عصرنا هذا أساساً نظرياً للتأليف الموسيقي (٣٤) .

وشن النقاد هجومهم على رامو ، فرد عليهم هو بتأليف وتفسير ، حتى حظى بالتقدير والإجلال بما أخضع له الموسيقى من قوانين ، كما فعل نيوتن بالنسبة للنجوم (٣٥) . وفي ١٧٢٦ - وهو في سن الثالثة والأربعين تزوج من ماري ماجنو ، إذ ذاك في الثامنة عشرة . وفي ١٧٢٧ وضع موسيقى مسرحية فولتير الغنائية « سمسون » ولكنهم حظروا إخراجها على أساس أن قصص الكتاب المقدس لا يجوز تحويلها إلى أوبرا . وكان على رامو أن يكسب قوته بالعمل عازفاً للأرغن في كنيسة « سانت كروادي لا بروتيري » . وبلغ الخمسين من العمر قبل أن يغزو مسرح الأوبرا .

وفي ١٧٣٣ قدم له الراهب بللجرين أوبرا « هبوليريت وأريسي » .
المبذبة على رواية راسين « فدر » ولكن الراهب حصل من رامو على صك
بمبلغ خمسمائة جنيه ضماناً في حالة سقوط الأوبرا . ولما مثلت على سبيل
التجربة ابتهج الراهب بموسيقاها أيما ابتهاج ، إلى حد أنه مزق الصك في
نهاية الفصل الأول . ولما مثلت أمام الجمهور في أكاديمية الموسيقى أدهشت
المتفرجين بخروجها الجريء عن الأنماط التي كانت قد أصبحت تقاليد مقدسة
منذ عهد لى . واعترض النقاد على ما أتى به رامو من إيقاعات جديدة
غريبة ، وتغييرات مبتدعة في طبقة الصوت وتعقيدات في التوزيع الموسيقي
بل إن الفرقة الموسيقية نفسها كرهت الموسيقى . وفكر رامو لبعض الوقت
في التخلي عن محاولاته في مجال الأوبرا ولكن محاولاته الثانية
Les Indes galantes (١٧٣٥) حظيت بإعجاب المتفرجين بتدفق ألحانها
المنسقة ، أما أوبرا ١٧٣٧ Castor et Pollux فكانت من أروع الانتصارات
في تاريخ الأوبرا الفرنسية .

وأفسده النجاح . وتفاخر بأنه في مقدوره أن يحول أى نص إلى أوبر
جيدة وأن ينقل صحيفة أى جريدة إلى موسيقى . وأنتج (٣٦) سلسلة طويلة
من الأوبرات غير الهامة . ولما ضاق مديرو أكاديمية الموسيقى ذرعاً به
انصرف إلى تأليف قطع للبيان القيثاري والكمان والفلوت . وأخذ لويس
الخامس عشر - أو بالأحرى مدام دي بمبادور - بيده ، باستخدامه في
كتابة موسيقى رواية فولتير « أميرة نافار » . التي لقيت في فرساي نجاحاً
أعاد له مكانته (١٧٤٥) ونال رضا الأكاديمية من جديد . وكتب مزيداً
من روايات الأوبرا . ولما ألقت باريس أسلوبه فإنها نسيت لى . ونادت
برامو ملكاً على دنيا الموسيقى بلا منازع .

وفي ١١٥٢ وجد نفسه يواجه تحدياً جديداً . ذلك أن بعض الفنانين
العازفين والملحنين كانوا قد قدموا من إيطاليا . ومن ثم بدأت حرب صاخبة
بين الموسيقى الفرنسية والموسيقى الإيطالية التي بلغت ذروتها في السبعينات
بالموسيقار بتشيني ينافس جلك Gluck . وفي دار الأوبرا في باريس قدمت

فرقة إيطالية مع أوبرا برجوليزى « La serva Randona » فاصلا موسيقياً وهى من روائع الأوبرا الهزلية ورد أنصار الموسيقى الفرنسية على ذلك بالنشرات وبقطع رامو . وانقسمت الحاشية إلى معسكرين وناصرت مدام بمبادور الموسيقى الفرنسية على حين دافعت الملكة عن الموسيقى الإيطالية ، وهاجم جريم الأوبرا الفرنسية بأسرها (١٧٥٢) وأعلن روسو أن الموسيقى الفرنسية بغضه لا تطاق . والعبارة الأخيرة فى مؤلفه « رسالة فى الموسيقى الفرنسية » (١٧٥٣) تدل أبليغ دلالة على خلله العاطفى قال : « وفى اعتقادى أنى قد أوضحت أن الموسيقى الفرنسية مجردة من الوزن والتناغم معاً ، لأن اللغة لا توفر لها هذا أو ذاك . والغناء الفرنسى مجرد نباح وشكوى متصلتين ولا تطيقه الأذن غير المتحيزة ، وأن إيقاعها غير مستساغ وإنها لا تعبر عن شىء ولا تشعر إلا بما تلتقت عن معلمها ، وأن النغم الفرنسى ليس نغماً ، وأن المقاطع الصوتية الفرنسية ليست مقاطع صوتية . ومن ثم انتهيت إلى أن الفرنسيين ليس لديهم موسيقى ، ولن يكون لهم شىء منها وإذا قدر لهم أن يكون لديهم شىء من الموسيقى فستكون وبالا عليهم » .

وانتقم أنصار الموسيقى الفرنسية بخمس وعشرين نشرة أصدروها ضد روسو ، وأحرقوا تمثالاً له على باب دار الأوبرا (٣٧) واستخدم رامو ، على كره منه ، عنصراً رئيسياً فى حرب المهرجين ، فلما هدأت المعركة وأعلن انتصاره فيها اعترف هو نفسه بأن الموسيقى الفرنسية لا تزال فى حاجة إلى أن تتعلم الشىء الكثير عن الموسيقى الإيطالية ، وقال إنه لو لم تكن سنه قد كبرت إلى هذا الحد ، لعاد إلى إيطاليا ليدرس طرق برجوليزى وغيره من الأساتذة الإيطاليين .

وكان رامو آنذاك فى قمة شعبيته ، ولكن كان له أعداء كثيرون قدامى وجدد . وأضاف إليهم بنشرة أصدرها يعرض فيها أخطائه التى وردت فى المقالات التى ظهرت عن الموسيقى فى دائرة المعارف . فما كان من روسو ، وهو كاتب معظم هذه المقالات إلا أن انقلب عليه وازداد مقتاً له . أما ديدرو أبو دائرة المعارف فإنه كان السباب للملحن العجوز فى لباقة تبعث

على الاحترام في « ابن أخى رامو » التي لم ينشرها تفضلاً منه وكرماً ، قال : إنه الموسيقى الشهير الذي خلصنا من موسيقى اللي المتعددة الأصوات التي ترنمنا بها لأكثر من قرن من الزمان ، والذي كتب كلاماً كثيراً خيالياً غير مفهوم وحقائق غامضة عن نظرية الموسيقى - وهي كتابات لم يفهمها هو ، ولا أحد غيره قط . إنه أخرج لنا عدداً من الأوبرات التي يجد فيها المرء أنغاماً متألّفة وشيثاً من الغناء ، والأفكار غير المترابطة والثروة في سرعة وجلبية ، والحركات السريعة ومواكب النصر والحراب والمثل العليا وألحان الرقص . . . مما سيبقى إلى الأبد (٣٨) .

وحين ظهر رامو في إحدى المقصورات ١٧٦٠ - وهو في سن السابعة والسبعين لمناسبة إعادة أوبرا « داردانوس » وهي من إخراجه ، لقي احتفاء وترحيباً حماسياً كاد يفوق ما قبل به فولتير بعد ذلك بثمانية عشر عاماً . ومنحه الملك براءة النبالة . وأعفته هو وأسرته دييجون الفخورة بابنها من الضرائب البلدية مدى الحياة . وانتابته وهو في قمة مجده حمى التيفويد ، وذبل بسرعة وقضى نحبه في ١٢ سبتمبر ١٧٦٤ وشيعته باريس باحتفال مهيب حيث ووري التراب في كنيسة سانت أوستاش . وأقامت مدن كثيرة في فرنسا الصلوات تكريماً له .

٥ - الصالونات

كانت باريس العاصمة الثقافية للعالم ، أكثر منها لفرنسا . قال ديكلوس « إن هؤلاء الذين يعيشون على مسافة مائة فرسخ من العاصمة إنما يبعدون عنها بمائة عام من حيث أساليب السلوك والتفكير (٣٩) وربما لم توجد عبر التاريخ قط مدينة تعج بحياة متنوعة الألوان . فالملتجّع الملهذب المصقول وفنون الأدب الرفيع اثتلفا في رباط وثيق مذهل . وكان الخوف من الجحيم قد زال عن الباريسيين المتعلمين وتركهم في حالة من المرح والابتهاج لم يسبق لها مثيل ، لا يلقون بالا في وثوقهم الجديد بأنه ليس هناك عملاق رهيب قدير في السموات ، يسترق السمع إلى خطاياهم ويحصيها عليهم . ومن تحرير الذهن على هذا النحو لم تنجم بعد آثار كثيفة من عالم مجرد من القداسة

(م ٦ - قصة الحضارة)

والهدف الخلقى ، عالم يرتجف في زمهرير التفاهة والحقارة ، وكان الحديث شائقا تتمخله الدعابة والمرح . وغالبا ما انتقل إلى هزل ظاهري ، وهنا كان التفكير ينحصر في ظواهر الأمور خشية عدم العثور على شيء في أعماقها . وكان القيل والقال والنضائح تنتشر بسرعة من ناد إلى ناد ومن بيت إلى بيت ، وكثيراً ما تطرق الحديث إلى آفاق خطيرة في السياسة والدين والفلسفة ، مما قد يتيسر الخوض فيه اليوم إلا نادرا .

وكان المجتمع متألقا ، لأن السيدات كن مبعث الحياة فيه . وكن المعبودات التي قدسها هذا المجتمع ، وهن اللاتي تولين توجيهه ، وبطريقة ما وبرغم العرف والعوائق أتيح لبعضهن قدر من التعليم يكفي لتبادل الحديث في فطنته وذكاء مع أئمة الفكر الذين أحبين أن يستضيفوهم . ونافس الرجال في الاستماع إلى محاضرات رجال العلم^(٤٠) . إذ عاش الرجال قليلا في المعسكرات وطالت إقامتهم في العاصمة وفي الحاشية فقد تزايد إحساسهم بالمقاتن غير الملموسة في النساء — رشاقة الحركة ، عذوبة الصوت حيوية الروح ومرحها ، بريق العينين ، رهافة الدوق ، الجزع المشوب بالحنان والحب ، النفس المشربة بالرخمة والشفقة . إن تلك الصفات جعلت المرأة محبوبية في كل مدينة ولكنا ربما لا نجد في أية ثقافة أخرى أن الطبيعة والتعليم والملابس والحلي وأدوات التجميل والزينة قد جعلت من المرأة مخلوقا يسحر الأبواب بقدر ما كانت عليه في فرنسا القرن الثامن عشر . وكل هذا المفائن والمغريات لا تستطيع على أية حال أن نفسر سلطان المرأة وقوتها . إن الذكاء في معالجة الرجال وسياستهم أمر ضروري . وبارى ذكاء النساء عقل الرجال وفي بعض الأحيان تفوق عليه . وعرف النساء الرجال أفضل مما عرف الرجال النساء . والرجال يندفعون في تهور بالغ إلى أفكار لتنضج حتى تفهم ، على حين إن التراجع المحتشم المطلوب حتى من السيدة المفتوحة ، هيأ لها فسحة من الوقت للملاحظة والتجريب وتخطيط حملتها أو هجومها .

وكلما ازدادت حساسية الرجل اتساعا وعمقا ، نما تأثير المرأة ونفوذها . وفنشت البسالة في ميدان الحب عن جزاء وفاق لها في الصالون وفي مخدع

المرأة وقى الحاشية على حد سواء . وكما اهتم الشعراء طرباً حين وجدوا آذاناً صاغية من الجنس الرقيق . وكما رفع من شأن الفلاسفة تفضل السيدات ذوات التهذيب الرفيع والمكانة العالية بالاستماع إليهم ، بل إن أغزر العلماء علماً وأوسعهم إطلاعا وجدوا في الصدور الناعمة وفي حفيف الرقص مثاراً للفكر والعقل . وهكذا مارست المرأة قبل « تحريرها » سيادة طبع العصر بطابعها المتميز . وتذكرت مدام فيجي لبرون فيما بعد « كانت المرأة تحكم آنذاك ، ثم تلت الثورة عرشها » ^(٤١) . إن النساء لم يعلمن الرجال آداب السلوك والعادات فحسب ، بل لهن كذلك رفقن أو خفضن من درجاتهن في الحياة السياسية ، بل حتى في الحياة العلمية . من ذلك أن مدام دي تنسان هيأت اختيار ماريغو بدلا من فولتير ، لعضوية مجمع اللخالدين (الأكاديمي فرانسيز) في ١٧٤٢ . وكان شعار « فقس عن المرأة » وسيلة النجاح ، فإنك إذا عثرت على المرأة التي يحبها الرجل ، كشفت عن المنفذ الذي تصل منه إلى الرجل الذي تريد .

كانت كلودين الكسندرين دي تنسان — بعد بمبادور — هي السيدة الأكثر إمتاعاً وتشويقاً بين النساء اللاتي سيطرن على فرنسا في النصف الأول من القرن الثامن عشر . وقد عرفنا كيف هربت من أحد الأديار . وأنجبت دالمبرت ، واتخذت لها مسكناً في باريس في شارع سانت أونوريه حيث استقبلت مجموعة متعاقبة من العشاق ، بينهم بولنجروك ، ريشيليو ، فونتنيل (صموت ولكنه نشيط قوى في سن السبعين) وعددًا من الرهبان ومدير الشرطة في باريس . وأضافت الشائعات أخاها بيير إلى قائمة المترددين عليها ، ولكن ربما أحبته لمجرد أنها أخت حنون مصممة على تنصيبه كاردينالا ، إن لم يكن رئيساً للوزراء . وعن طريقه وعن طريق غيره دبرت أن تكون ركنًا قويا في حياة فرنسا .

إنها جمعت المال أولا : . واستثمرته على طريقة دكتور لو ، ولكنها باعت الأسهم في الوقت المناسب . وقبلت الحراسة على ثروة شارل جوزيف دي لا فرزني ، ثم أبت إعادتها إليه ، فانتحرت في دارها ، تاركة وصية

يتهمها فيها بالسرقة (١٧٢٦) ، وأرسلت إلى الباستيل ولكن أصدقائها دبروا أمر الإفراج عنها ، واحتفظت بمعظم الثروة . ونجحت ثروة المدينة والحاشية ، وخرجت منها سالمة .

وحوالى ١٧٢٨ أفاضت مدام دى تنسان إلى مخدعها صالوناً اتخذته سلماً ترقى به إلى السلطة والقوة ، واستقبلت فيه مساء يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، على مائدة العشاء عدداً من الرجال البارزين ، أطلقت عليهم « معرض الوحوش » منهم مونتيل ، مونتسكيو ، ماريغو ، بريفوست ، هلفشيوس ، استروك ، مارمونتل ، هينولت ، ديكلوس ، مابلي ، كوندرسيه ، وأحياناً تشسترفيلد . وكانت المجموعة كلها من الرجال عادة لأن تنسان لم تكن تطيق على مائلتها أية منافسات . ولكنها أطلقت « لوحوشها » العنان ، ولم تغضب قط لرفضهم السافر للمسيحية . وتساوى كل الناس من كل الطبقات هناك ، فكان الكونت النبيل فى مستوى الرجل من العامة ، وقد تروى التقاليد فيما بعد أنه هنا كانت تجرى أكثر المناقشات تألفاً ودقة طوال هذا القرن ، قرن الحديث الذى لا حدود له (٤٢) .

وعن طريق ضيوفها وعشاقها وكهنة اعترافها استخدمت نفوذها لتحقيق أهدافها بطريقة سرية فيما بين فرنسا ورومة . ولم يكن أخوها طموحاً ، بل كان يتوق إلى البساطة فى الحياة والهدوء فى الأقاليم ، ولكنها سعت حتى عين رئيس أساقفة ثم كاردينالا ، وأخيراً وزيراً فى مجلس الدولة . وعاونت على أن تجعل من مدام شاتورو خليعة للملك ، واستحثتها على حث الملك ليقود جيشه فى الحرب . لأنها رأت فى بلاده لويس وتكاسله مصدراً للاضمحلال السياسى ونذيراً بهذا الاضمحلال . وربما كانت على صواب فيما فكرت فيه من أنها لو تولت رئاسة الوزارة للقيت الحكومة نجاحاً أكبر ، وأظهرت نشاطاً وحيوية أكثر . وناقش رواد صالونها فى جرأة انحلال الملك واحتمال قيام الثورة .

ون شيمخونتها نسيت خطاياها ، وانضمت إلى اليسوعيين وشنت الحملات على الجانسينيين ، ونبادت رسائل المودة مع البابا بندكت الرابع عشر الذى

أرسل إليها صورته اعترافاً منه بخدماتها للكنيسة . إن رقة الفؤاد التي ازدانت بها أخطاؤها ، وجدت لها منافذ كثيرة . ولما قابل الجمهور في بداية الأمر كتاب مونتسكيو « روح القوانين » (١٧٤٨) بعدم الاكتراث اشترت تنسان كل نسخ الطبعة الأولى تقريباً ، ووزعتها مجاناً على أصدقائها الكثيرين . وتولت رعاية مونتزل الشاب وأسدت إليه النصيح أن يعقد فوق كل شيء ، أواصر الصداقة مع النساء ، لا الرجال ، وسيلة للارتقاء والصعود في هذا العالم ^(١٣) . وأصبحت هي نفسها ، في سني شيخوختها وضعفها الأخيرة ، كاتبة ومؤلفة ، وستررت الطيش والحماقة بإغفال ذكر اسمها على ما ألقت . وقارن أصدقاؤها النقاد قصتها بقصة مدام دي لافاييت (برنيسيس دي كليف Princesse de Cleves) .

وفارقت مدام تنسان الحياة في ١٧٤٩ وهي في الثامنة والستين . وعندئذ تساءل فونتينيل العجوز « أين أتناول العشاء مساء الثلاثاء الآن ؟ » ولكنه أجاب لنفسه في ابتهاج على الفور « حسناً » ، عند مدام جيوفرين ^(١٤) . وربما ألتقينا به هناك .

كان صالون مدام دي دفاند قديماً قدم صالون تنسان ، كما عمر مثل ما عمر صالون جيوفرين تقريباً . إن ماري دي فيشي شامروند باتت يتيمة وهي في سن السابعة فوضعت في دير اشتهر بالتعليم ، فبدأت تدرس وتتأمل في سن مبكرة الألوان ، وكانت تلقى أسئلة تنسم بالتشكك إلى حد مزعج ، ولإذ وقعت الراهبة في حيرة من أمر الصبية وأسئلتها فلإنها أحالتها إلى الواعظ المتفقه ماسيون ، الذي عجز عن تفسير المسائل الغامضة ، فتخلى عنها يأساً من إنقاذها من الضلال . وفي سن الحادية والعشرين أصبحت مركيزة دي ديفان بزواج تم عن تراض بين الطرفين ، ولكنها سرعان ما تبينت أن زوجها شخص مبتدل يمل إلى حد لا يحتمل ، فافترقا بعد اتفاق وفر لها ثروة لا بأس بها . وفي باريس وفرساي انصرفت إلى لعب الميسر في اندفاع شديد « لم أفكر في شيء إلا القمار » ولكن بعد ثلاثة أشهر منبت فيها بنحائر فادحة ، « تولاني جزع شديد ، وحزنت على ما أنا فيه ، ونأيت بنفسى

عن هذه الحماقة » . وقضيت فترة قصيرة خلية للوصى^(٤٥) . ثم تنحت عنه إلى عدوته الدوقة دى مين . وفي مسكو ألتقت بشارل هنولت رئيس مجلس التحقيق العسكرى ، الذى أصبح عشيقاً لها ، ثم صديقاً مدى الحياة .

وبعد أن أقامت لبعض الوقت مع أخيها انتقلت إلى نفس الدار فى شارع دى بون ، التى قضى فيها فولتير نحبه . وإذا اشتهرت بجملها وعينها البراقنتين وذكاها الحاد ، فإنها جذبت إلى مائدتها (حوالى ١٧٣٩) نفراً من مشاهير الرجال الذين جاءوا ليؤلفوا صالونا يذيع صيته كما ذاع صيت صالون تنسان تقريباً : هنولت ، مونتسكيو ، فولتير ، مدام دى شانيليه ، ديدرو ، دالمبرث ، مارمونتيل ، مدام دى ستال دى لونية وفى ١٧٤٧ ، وقد بلغت آنذاك الخمسين ، وخفضت من غلوائها بعض الشيء ، استأجرت شقة جميلة فى دير سان جوزيف فى شارع سان دومينك . وكان من عادة الأديار تأجير غرف للعرائس والأرامل والنساء اللائي افترقن عن أزواجهن ، وكانت هذه المساكن عادة فى أبنية خارج المبنى الأساسى الخاص بالراهبات . ولكن فى حالة هذه المتشككة الثرية ، كان المسكن داخل جدران الدير ، والحق إنه المسكن الذى كان قد آوى تحت سقفه مؤسسة هذا الدير الآثمة ، مدام دى مونتسبان . وتبع صالون المركزية شخصها إلى مقرها الجديد . ولكن ربما أزعجت البيئة المحيطة به الفلاسفة ، فلم يعد ديدرو يحضر ونادراً ما كان يحجى مارمونتيل ، وكان جريم يتردد بين الحين والحين ، وسرعان ما انقطع دالمبرث . ومعظم المجموعة الجديدة فى سان جوزيف كانوا من سلالة الأرستقراطية القديمة : مارشال لكسمبرج ومارشال ميربوا وعقياتهما ، دوقا ودوقتا دى بوفلوز ودى شوازيل ودوقات اجوبون وجرامونت وفيلروا وصديق مدام دى ديفاند من أيام طفولتها ومدى الحياة ، وهو بونت دى فيل . وكانوا يلتقون فى السادسة ، ويتناولون العشاء فى التاسعة ثم يلعبون الورق والميسر ؛ ويتناولون بالتحليل والتفصيل الأحداث الجارية فى عالم السياسة والأدب والفن ، ثم يفرقون . فى نحو الساعة الثامنة صباحاً . وكان الأجانب البارزون ، الوافدون على باريس يحتالون للحصول على

دعوة إلى « مأوى النبلاء » هذا . وروى لورد باث في ١٧٥١ « انى لا ذكر أمسية دار الحديث فيها عن تاريخ إنجلترا ، وكم دهشت وارتبكت حين وجدت أن هؤلاء القوم عرفوا من تاريخ بلادنا خيراً مما عرفنا نحن عنه ! »^(٤٦)

وتفردت دى ديفاند بأصنى دهن وأسوأ خلق بين صاحبات الصالونات فكانت مغرورة متغطرة عيابة شكاقة ، أنانية أكثر مما يليق بالمرء أن يكون . ولما عالج كتاب هلفشيوس « الروح » ما ذهب إليه لاروشفوكول من أن كل الدوافع الإنسانية أنانية ، علقت هى بقولها فى ازدراء « إنه إنما كشف عن سر كل إنسان »^(٤٧) وكانت تجيد الهجاء المشوب بالحقد والضعف كما فعلت فى وصفها مدام دى شاتيليه . ولم تر فى الحياة الفرنسية إلا الجوانب التافهة الضعيفة . وذهبت إلى أن الفقراء اشتروا ، بقدر ما سمحت به ظروفهم فى رذائل الأغنياء ومساوئهم . ولم تضيف شيئاً إلى التطلعات المثالية للفلاسفة سوى ما جاءت به العقيدة العتيقة من أساطير مغرية مريحة للنفس . وتجنّب الاستنتاجات وآثرت العادات القويمة . واحتقرت ديدرو ونعته بأنه جلف ساذج . وأحبت دالمبرث ثم عادت فكرهته . وأعجبت بفولتير لأنه سبى السلوك حاد الدهن . والتقت به فى ١٧٢١ وعندما هرب من باريس ، ثم شرعت فى ١٧٣٦ تبادل الرسائل التى تعد من الروائع فى الأدب الفرنسى ولم تقل رسائلها عن رسائله . رقة وعمقاً وصفاء وروعة ولكنها لم تبلغ ما بلغه هو فى رسائله من لطف وسهولة وبعد عن التكلف والكياسة .

وفى سن الخامسة والخمسين بدأت تفقد بصرها ، واستشارت كل متخصص فى طب العيون ، ثم لجأت إلى كل دجال ومشعوذ . ويعد ثلاث سنوات من الكفاح والعناء ذهب بصرها تماماً (١٧٥٤) ، ويومذاك أنذرت أصدقاءها بأنهم إذا استمروا فى شهود أمسياتها فإنه يجدر بهم أن يحتملوا السيدة المعجوز الضريرة . وعلى الرغم من هذا قصدوا إليها . وأكد لها فولتير من جنييف أن ذكاءها وفطنتها باتا أكثر تألقاً مما كانت حتى وهى مبصرة ، وشجعها على المضى فى الحياة حتى لمجرد أن تثير غضب من يدفعون لها

رواتها السنوية . ووجدت في جولى دى لسبيناس شابة لطيفة نشيطة فاتنة تعاونها على أن تستقبل وتستضيف الأصدقاء . وكانت هي آنذاك تتصدر المائدة وكأنها هومر الأعمى يتصدر مائدة مستديرة وحوله الحكماء وشعراء الملاحم البطولية ، وكانت تنتقل هنا وهناك وقورة شائخة متحدية لمدة ستة وعشرين عاماً آخر . ولنا لنأمل أن نلتقي بها هي أيضاً مرة أخرى .

ولقد كان عصرًا مشرقًا زاهيًا ، لأن النساء تألقن فيه ، وجمعن فيه بين الذكاء والجمال ، مما لم يسبق له مثيل . وبفضلهن ألهم الكتاب الفرنسيون الفكر بالعاطفة ، وزينوا الفلسفة بالظرف وخفة الروح . وكيف كان يتسنى لفولتير أن يكون فولتير بغير وجودهن ؟ حتى ديدور الفظ الغامض اعترف بقوله « إن النساء عودتنا أن نناقش أشد الموضوعات جفافاً وتعقيداً ، بشكل ساحر واضح ، إننا نحدثهم حديثاً متواصلاً ، ونريد منهن الإصغاء إلينا ، ونخشى أن يتولاهن التعب أو الضجر . ومن ثم كنا نستخدم طريقة معينة في لبضاح آرائنا لهن في يسر وسهولة . وكانت هذه الطريقة تنتقل من مجرد الكلام إلى أسلوب » (٤٨) وبفضل النساء أصبح النثر الفرنسي أكثر إشراقاً ووضاءة من الشعر واكتسبت اللغة الفرنسية صمراً رقيقاً ، ورشاقة في العبارة ولباقة في الحديث مما جعلها بهيجة ذات مكانة رفيعة . وبفضل النساء انتقل الفن الفرنسي من طراز الباروك الغريب الشاذ إلى الشكل المذهب المصقول واللوق الرفيع ، مما ازدانت به كل مظاهر الحياة في فرنسا .



الفصل التاسع

عبادة الجمال

١ — انتصار الروكوكو

في هذا العصر ، فيما بين الوصايا وحرب السنين السبع — عصر طراز لويس الخامس عشر — كانت النساء تتحدى الآلهة : أى الفريقين أحق بالعبادة ، وكان السعى وراء الجمال ينافس الإنصراف إلى التبتل والورع ، والإندفاع إلى الحرب . وفي الفن والموسيقى ، كما في العلوم والفلسفة ، تراجع كل ما هو فوق الطبيعة أمام كل ما هو طبيعي . إن هيمنة المرأة على ملك حساس شهواني ، هيأت اعتباراً جديداً أو مكانة جديدة للرہافة ورقة الوجدان . كما أن الاتجاه إلى مذهب اللذة والمتعة في الحياة الذي كان قد بدأ على عهد فيليب دى أورليان ، بلغ ذروته في أيام بمبادور . وأصبح الجمال أكثر من أى وقت مضى ، أمراً ذا « قيم ملموسة » فكان شيئاً يسر المرأ أن يلمسه بيده أو تقع عليه عيناه ، ابتداء من خزف سفير إلى لوحات بوشيه العارية . وتخلّى المهيب الفخم عن مكانه للبهيج السار والجليل الراقور للرشيقي المرقيق ، وكبر الحجم لفتنة الرشاقة ، وكان الروكوكو فن أقلية أبيقورية غنية متلهفة على الاستمتاع بكل لذة قبل انقضاء دنياها السريعة الزوال ، في نعمة طوفان من التغيير تتعجل حسدوثة . وفي هذا الطراز الديوى الصريح طفرت الخطوط فرحاً ، ورقّت الألوان ، وخلت الأزهار من الأشواك ، وتجنبت الموضوعات الفاجعة لتؤكد الإمكانيات الباسمة المشرقة في الحياة ، وكان الروكوكو آخر مرحلة في الباروك من ترمذ الخيال على الحقيقة والواقع ، ومن ثورة الحرية والإنطلاق على النظام والقواعد . ومع ذلك لم تكن حرية مخلة ، بل ظل إنتاجها يحتفظ بالمنطق والتركيب ، ويعطى المغزى شكلاً . ولكنها كرهت الخطوط المستقيمة والزوايا الحادة ، ونفرت من التماثل ، وآلمها أن تترك أية قطعة أثاث ذون نقوش . وعلى

الرغم من أناقة الروكوكو الجمذابة ، فإنه أنتج آلافاً من الأشياء التي لا يفوقها شيء في رشاقتها وزخرفتها . ولمدة نصف قرن من الزمان جعل الروكوكو من الفنون الصغيرة أسمى فن في فرنسا .

وعلى قدر علمنا لم يوجد قط مثل هذا النشاط من قبل . وقليل ما كان مثل هذا التفوق والامتياز ، في مجالات الأعمال الجمالية . تلك المجالات التي كانت يوماً أقل شأنًا . وفي تلك الحقبة صار الفنان والحرفي مرة أخرى شخصاً واحداً كما كان الحال في أوروبا في العصور الوسطى . وكان هؤلاء القادرون على تجميل الجوانب الخصوصية في الحياة ووضع تكريم مع الرسامين والمثاليين والمعماريين في هذا العصر .

ولم يبلغ الأثاث قط من قبل هذه الدرجة من الروعة والاتقان . ولم يعد أثاث طراز « لويس الخامس عشر » مثل ما كان في عهد الملك العظيم ، وقد كان تصميمه مقصوداً للراحة ، ولا للعظمة والوقار ، وكان أكثر ملاءمة لجسم المرأة وملابسها ، منه للجلال والتباهي ، واتخذت الأثاث أشكالاً شتى ، لتناسب مع الأوضاع الجسمية والأمزجة . وكتب فولتير « إن السلوك الاجتماعي أيسر اليوم منه في الماضي ، ويمكن أن ترى السيدات يقرأن على الأرائك أو أسرة النهار (سرير ضيق يحول في النهار إلى أريكة) دون أن يسببن أى إزعاج أو مضايقة لأصدقائهن ومعارفهن^(١) . وكان السرير يتوج بظلة رقيقة جميلة وتزين ألواح بالصور والرسوم أو تنجد ، وتنقش قوائمها نقشاً جميلاً . وطورت أنماط جديدة من الأثاث لتواجه حاجات جيل آثر فينوس على مارس (آثر آلهة الجمال على إله الحرب) وأخذ الكرسي المنجد ذو الدراعين والوسادة الوثيرة (البرجير) والأريكة المكسوة بنسيج مزدان بالصور والرسوم ، والكرسي الطويل (شيزلنج) ومائدة الكتابة القراء (ما يوضع عليه الكتاب عند القراءة) ومنضدة الحوض في حجرة النوم والمائدة المثبتة إلى الحائط تحت مرآة (الكونسول) ، ومسدد القلمين ، والخزانة العالية ذات الأدراج ، وصوان السفرة - كل هذه الأشياء أخذت آنذاك أشكالها ، وفي الغالب أسماءها التي احتفظت في الواقع

بها إلى يومنا هذا . وأسرفوا في النقش وغيره من ألوان الزخرفة والتزيين إلى حد أثار رد فعل في النصف الثاني من القرن ، وتطعيم خشب الأثاث بالصدف أو المعادن الذي أدخله أندريه شارل بوليه في عهد لويس الرابع عشر ، وأهمله أبنائه من بعده ، حيث كانوا نجاري الأثاث لدى لويس الخامس عشر وغطت تشكيلة كبيرة من التطعيم سطح الخشب الملون أو المكسو بقشرة رقيقة أو المدهون بورنيش الك « ووضع فولتير » أشغال الك « في فرنسا القرن الثامن عشر ، في مرتبة سواء مع ما كان يرد منها من الصين أو اليابان . أما الحرفيون من أمثال كرسنت ، أو بورد اوبن ، كافيري ، وميسونيه فقد بلغوا من التفوق والتبريز في تصميم الأثاث وزخرفته درجة حدت بنجاري الأثاث الأجانب إلى القدوم إلى فرنسا لدراسة أساليبهم ، ثم نشروا الطراز الفرنسية من لندن إلى بطرسبرج . وجمع جوست أوريل ميسونيه بين عشرة فنون أو تزيد ، فبنى البيوت ، وزخرف أجزاءها الداخلية ، وصنع الأثاث على أحدث طراز ، وصنع « الشمعدانات » والآنية الفضية للمائدة وصمم علب السعوط وأغطية الساعات ، ونظم المشاهد الفاخرة ، وألف عدة كتب دون فيها مهارانه وفنونه . وكاد أن يكون الرجل العالمي في زمانه .

وقد حلت الألفة والعلاقات الحميمة في الحياة على عهد لويس الخامس عشر محل التمسك بالرسميات الذي ساد القرن السابع عشر ، فإن الزخرفة الداخلية انتقلت من الفخامة والأبهة إلى الرقة . وفي هذا أيضاً بلغ العصر الذروة ، فالأثاث والبسط والسجاد والتنجيد والقطع الفنية ، وساعات الحائط والمرايا ، والإطارات والأنسجة المزدانة بالصور والرسوم والستائر واللوحات والسقوف والشمعدانات ، حتى خزائن الكتب — صنعت كلها في تناسق في الألوان والطراز يسر الناظرين . وقد يساورنا الظن بأن الكتب كانت تشتري للون جلدها والمادة المصنوعة منها قدر ما تشتري من أجل محتوياتها ، ولكننا يمكن أن ندرك هذه اللذة أيضاً . ولنا لننظر بعين الحسد إلى المكتبات الشخصية الخاصة المرصوفة وراء الزجاج في خزائن جميلة

مرتكزة إلى الحائط : وكانت حجرات الطعام نادرة في فرنسا قبل ١٧٥٠ ، أما موائد الطعام فكانت تصنع بحيث يمكن بسهولة تمديدتها لمضاعفة عدد الجالسين إليها وإزالتها ، لأن ضيوف العشاء قد يبلغون عدد كبيراً لا يمكن التنبؤ به . ولم تعد المدافئ من ذلك الطراز الضخم الذي كان قد انحدر من العصور الوسطى إلى عشر لويس الرابع عشر ، ولكنها إزدانت بزخرفة مترفة ، وفي بعض الأحيان (وهذا مثال نادر للذوق السقيم في هذه الحقبة) كانت تماثيل للمرأة تستخدم بمثابة أعمدة تحمل رفوف المدفأة . وكانت كل التدفئة تقريباً عن طريق مدافئ مفتوحة تسرّها حواجز مزخرفة ، ولكننا كنا نجد هنا وهناك في فرنسا ، كما كان في ألمانيا ، موقداً مكسواً بالخزف المزخرف . وكانت الإضاءة بالشموع التي تثبت بمائة طريقة مختلفة ، تبلغ أقصى روعتها في الشمعدان الضخم المتألق ، المصنوع من البللور أو الزجاج أو البرونز . ولنا لنعجب من كثرة القراءة على ضوء الشموع ، ولكن ربما قللت المشاق من إنتاج الهراء واستهلاكه .

ومع تقدم القرن ، حلت اللوحات الحائطية الزاهية الألوان والمزخرفة زخرفة رقيقة محل النسيج المزدان بالصور والرسوم ، وفي هذه الفترة كانت قمة ازدهار فن هذا النسيج . وفي كل أنواع النسيج تقريباً — من اللممسي والمطرزات والمقصيات إلى البسط والسجاجيد والستائر الممتازة تحدث فرنسا في تلك الأيام أفخر منسوجات الشرق . وتخصصت أميان في الخمل المنقوش واشتهرت ليون وتور ونيم بالحريز المزركش . وفي ليون ابتدع جان بيلمنت وجان بابتست هويه وغيرهما بمجيد تعلق على الجدران ممهورة ومخيطة بموضوعات ومناظر صينية أو تركية أسرت لب بمبادور . وكان هذا النسيج يصنع في المصانع المؤممة في باريس وبوفيه ، وفي الحوانيت الخاصة في أوبيسون وليل . وكانت هذه المنسوجات إذ ذاك قد فقدت وظيفتها في الانتفاع بها للحماية من الرطوبة والتيارات الهوائية ، وأصبحت للزين فقط وغالباً ما صغر حجمها لتلتئم مع النزعة إلى تصغير الحجرات . وسار النساجون في مصانع الجوبلان وبوفيه في عملهم وفق التصميمات والرسوم

التي وضعها ، والألوان التي تصبح باستخدامها أئمة الرسم في ذلك العصر ، وكانت جميلة بصفة خاصة تلك القطع الخمس عشرة التي نسجتها مصانع جوبلان (١٧١٧) وفق الرسوم التي أعدها شارل أنطوان كويل لتصوير قصة « دون كيشوت » . أما نساجو بوفيه فإنهم ، كما سنرى انتجوا قطعاً رائعة من هذا النسيج ، صمم رسومها الفنان بوشيه . وفي ١٧١٢ أعيد تنظيم مصانع « سافونيرى » وكانت في الأصل لصنع الصابون - وأطلق عليها المصنع الملكي لصناعة السجاد على طراز سجاد فارس والشرق الأدنى وسرعان ما أنتج سجاجيد ضخمة امتازت برسوم دقيقة وألوان متنوعة ووبر ناعم مخملى ، وهذه أجمل سجاجيد ذات وبر في فرنسا القرن الثامن عشر . وكانت مصانع النسيج المزدان بالصور والرسوم هي التي تقوم بالتنجيد الذي يتطلب المثابرة وبذل أقصى الجهد لكراسى الأثرياء ، ولا بد أن كثيراً من الأصابع المتواضعة الدليلة قد تعبت وتصلبت لتوفر لهؤلاء الأثرياء مقاعد وثيرة تقيمهم عناء الجلوس .

وأقبل الخزافون الفرنسيون على عصر من المغامرة . وهيات لهم حروب لويس الرابع عشر الفرصة . ذلك أن الملك العجوز صهر ما لديه من فضة لتمويل جيوشه وأحل الخزف مكان الفضة ، وأمر رعاياه بأن يخلدوا حنوه . وسرعان ما لبث مصانع الخزف في روان وليل وسكو وستراسبورج وموسستير سانت مارى ومرسيليا هذا المطلب الجديد . وبعد موت لويس الرابع عشر شجع الميل إلى الأطباق وغيرها من الأشياء المصنوعة من الخزف - شجع الخزافين إلى إنتاج أجمل ما عرف منها في تاريخ أوروبا . ورسم مشاهير الفنانين من أمثال بوشيه وفلكوניה وباجو المناظر على الخزف الفرنسى وابتدعوا أشكالاً كثيرة منه .

وفي نفس الوقت كانت فرنسا تتجه إلى إنتاج الخزف الصينى . وكانت أنواع متعددة من العجينة الناعمة الملساء تصنع في أوروبا منذ مدة طويلة ترجع إلى ١٥٨٢ في فلورنسه و ١٦٧٣ في روان ، وكانت كلها على أية حال تقليداً للتأذج الصينية . ولم تكن مصنوعة من العجينة الصلبة المأخوذة

من مادة الكاولين أى الصلصال الصينى ، أو حجر الطفل الصينى الذى يذاب فى درجة حرارة عالية فى الشرق الأقصى . وإنما كانت من صلصال أقل صلابة يسخن فى درجة حرارة منخفضة ثم يغطى « بالغرقة » وهى مادة متكلسة أو شبه منصهرة ومصقولة . وحتى هذا الخزف الصينى المصنوع من العجينة الطرية - وبخاصة فى شانتللى ، وفنسن ومنسى - فيلروا (بالقرب من باريس) كان جميلاً جداً ، واستمر استيراد الخزف المصنوع من الصلصال الصلب من الصين أو درسدن . وفى ١٧٤٠ انتزعت مدام دى بمبادور مائه ألف جنيه من لويس الخامس عشر ، و ٢٥٠ ألفاً من مصادر خاصة للتوسع فى إنتاج الخزف من العجينة الطرية فى فنسن . وفى ١٧٥٦ نقلت عمال فنسن المائة إلى مبنى أوسع وأوفى بالغرض فى سيفر (بين باريس وفرساي) وهناك فى ١٧٦٩ بدأت فرنسا إنتاج الخزف الصينى الحقيقى من الصلصال الصلب .

وأفاد صائغو الذهب والفضة من أن ملك فرنسا استخدم من منتجاتهم رصيذاً إحتياطياً قومياً ، محولاً السبائك إلى أشكال مسرفة فى الجمال ، ولكن يمكن فى الحال صهرها إذا دعت الضرورة . وفى عهد لويس الخامس عشر ازداد طلب الطبقات المتوسطة على المشغولات الفضية بوصفها أدوات ناعمة أو وسائل للزينة . وتكاد كل أنماط السكاكين التى نستعملها اليوم تكون قد اتخذت شكلها الراهن فى فرنسا القرن الثامن عشر : شوكات المحار ، ملاعق المثلجات ، ملاعق السكر ، أطقم الصيد ، طقم الرحلات ، سكاكين وشوكات الأكل ، أضف إلى ذلك مملحة المائدة ، وفناجين الشاي والأباريق والأواني وأدوات التجميل والشمعدانات ، وكلها مزدانة بنقوش بديعة أو مصنوعة فى أشكال جميلة . . « وكان أحسنها فى هذا المجال طراز لويس الخامس عشر من بين كل الطرز الفرنسية (٢) » وصنع صائغو الذهب والفضة صناديق أو علبا صغيرة حملها الرجال والنساء على السواء ، لحفظ السعوط أو الأقراص أو الساحيق أو الحلوى ، كما صنعوا مائة صنف من الأواني والأوعية والصناديق لمنضدة الزينة وحجرة النوم والملابس . وكان فى حوزة

الأمير دى كورتى مجموعة من ثمانمائة صندوق من مختلف الأشكال ، من المعادن النفيسة ، وكلها رائعة متقنة الصنع . واستخدمت مواد أخرى كثيرة لمثل هذه الأغراض : العقيق ، عرق اللؤلؤ ، اللازورد وكان قطع الجواهر وتركيبها الامتياز الذى تفرد به ٣٥٠ من مهرة الحرفيين الذين ضمتهم نقابة الصائغين .

وحملت أشغال المعادن سبعة العصر فى رقة القوالب والأشكال والصقل والإتقان . واتخذت مناصب أو مساند الحطب المشتعل أشكالاً خرافية من التصميمات أو الرسوم المعقدة من الحيوانات الخيالية عادة . واستخدم البرونز الذهبى اللون لصنع أو زخرفة هذه المناصب والمشاعل والشعدانات ذوات الشعب أو تحليتها بالزخارف ، أو لتركيب ساعة الحائط أو البارومتر أو حجر البشب أو الخزف الصينى . فبلغ البرونز الحديث ذروه استخدامه فى القرن الثامن عشر ، فكان من الممكن أن تكون ساعات الحائط فى أشكال ضخمة غريبة وساعات الجيب أو اليد صلبة جميلة — من البرونز أو المينا أو الفضة أو الذهب ، ومزدانة بنقوش غاية فى الجمال والإتقان . وكانت المشاعل فى بعض الأحيان تحفاً رائعة فى فن النحت ، مثل تلك التى أبدعها فالكونيه لقصر فرساي . وكانت المنمنات والرسوم الفاخرة من روائع هذا العصر . وأنتجت أسرة واحدة هى أسرة رومتيير ، خمسة أشكال من الرصائع (الميداليات) المحفورة على مدى قرن من الزمان ، تميزت كلها بدقة الصنع إلى حد أن الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة رحبت بانضمامهم إليها ، فى عداد كبار الرسامين والمثاليين . إن القرن الثامن عشر عرض فى الأشياء الصغيرة فى الحياة أعظم ثروته وخلوها من الهموم ، كما عرض أكثر فنونه دقة وإتقاناً . وقال تللبران « إن أولئك الذين لم يعيشوا قبل ١٧٨٩ لن يدركوا أبداً إلى أى حد يمكن أن الحياة حلوة » (٣) ، إذا تسنى للمرء أن يختار الطبقة التى ينتمى إليها ويتفادى المقصلة .

٢ - فن العمارة

وتجاهل فن العمارة الروكوكو تقريباً . وتتغير الطرز ببطء في البناء أكثر منها في الزخرفة لأن مقتضيات الرسوخ والثبات أقل مرونة من تقلبات الذوق . وكانت الأكاديمية الملكية لفن العمارة التي نظمها كولبير في ١٦٨١ بتولى توجيهها الآن ورثة تقاليد لويس الرابع عشر . وواصل روبرت دى كوت عمل جول هردوين مانسار الذى كان قد أكمل قصر فرساي . وكان جرمين بوفران تلميذاً لمانسار ، وكان جاك جول جبرائيل وابنه جاك آنج خلفين غير مباشرين لمانسار ، ومن ثم حصر تيار هذه التقاليد مجراه في قوة وصلابة ، واحتفظ هؤلاء الرجال بطراز الباروك ، بل بالطراز نصف الكلاسيكي ، بالمظاهر الخارجية التي سادت في القرن العظيم ، مثل الأعمدة وتيجانها والعتبات ، ولكنهم سمحوا بمسحة من الروكوكو فيما شادو من مباني .

ونخفف ضعف الإيمان من حدة التحمس لبناء كنائس جديدة ، ولكن جددت على أية حال واجهتا كنيسةين قديمتين . ذلك أنه في ١٧٣٦ أقام روبرت دى كوت لكنيسة سانت روش أعمدة وقوصرة (مثلث أعلى الواجهة) كلاسيكية . وفيما بين ١٧٣٤ - ١٧٤٥ زود جان نيقولا سرفاندوني كنيسة سانت سولبيس برواق ضخم ذي طابقين في مدخلها ، قائم على أعمدة دورية وأيونية من طراز بللاديو الروماني الكثيب ، ولكن العمارة المدنية هي التي عبرت عن روح العصر وتحولت فيما بعد عدة قصور بنيت في تلك الفترة إلى وزارات وطنية أو دور للسفارات الأجنبية . من ذلك قصر ماثيون ١٧٢١ الذي أصبح سفارة النمسا ، ثم داراً لرئيس الوزراء ، وقصر البوربون (١٧٢٢ - ١٧٥٠) الذي أدمج جزء منه في مجلس النواب ، وقصر سويس (الذي عدل بناؤه ١٧٤٢) والذي أصبح داراً للمحفوظات الوطنية .

وفي عهد المركز دى ماريني ، مدير المباني ، ازدهرت أحوال عدد

كبير من المهندسين المخمريين والمثاليين والرسامين ومهندسي الزخرفة ، ووجد مساكن وأعمالاً لهم ورأى أنهم يؤجرون أجراً حسناً . وكان المهندس المعماري الأثير لديه هو جاك آنج جيرابيل الذي ارتضى التقليد الكلاسيكي عن طيب خاطر . وبعد صلح اكس لاشابل (١٧٤٨) انهمك إدم بوشاردون في إقامة تمثال فارس للملك لويس الخامس عشر ، وعهد إلى جيرابيل بتصميم المكان الذي يحيط بالتمثال . فوضع حول مساحة مكشوفة بين حدائق التويلري والشانزليزيه ، دائرة من « الدرابزينات » والحدائق الغائرة ، وشاد في الطرف الشمالي قصر كحريون الحالى ووزارة البحرية الحالية ، وكلاهما على طراز كلاسيكي بحت ، وعهد إلى تزوين الميدان بإقامة أربعة تماثيل أسطورية سرعان ما أطلق عليها الباريسيون أسماء خيليات الملك — ميللى فنتيميل ، شاتورو ، بمبادور . وأطلق على الميدان اسم لويس الخامس عشر ، ونسبته اليوم ميدان الكونكوردد . وقد يسرنا أن نعلم أنه كان هناك ازدحام في حركة المرور منذ مائتي عام . وجيمس انجل جبرائيل هذا هو نفسه الذى شاد في ١٧٥٢ المدرسة الحربية المتناسقة الأجزاء إلى حد بالغ والتي تضاهى رشاقته أعمدتها مثلتها في أية ساحة رومانية قديمة . ولم تكن باريس هي وحدها التي جددت مبانيها وغيّرت وجهها في هذا العصر ففي شاتيللي عهد دوق بوربون إلى جان أو بيرت بإقامة اسطبلات لحياده وكلابه ، بلغت من الفخامة حداً يدعو إلى المقابلة بينها وبين أكواخ الفلاحين . وفي اللورين جعل ستانسلاس لوكزنسكى من نانسي واحدة من أجمل مدن فرنسا ، وهناك أكل بوفران بناء الكاتدرائية التي كان قد بدأها أستاذه جول هاردوين « انصار » وفيما بين عامي ١٧٥٠—١٧٥٧ أقام أمانويل هيري دي كورني « المدينة الجديدة » في نانسي : دار البلدية من طراز الوكوكو ، وميدان ستانسلاس الذى يؤدى عبر حديقة عامة وقوس للنصر إلى ميدان دي لاكارير ودار الحكومة ، وأحاط جان لامور ميدان ستانسلاس بجواجز من قضبان حديدية متصالية (١٧٥١ — ١٧٥٥) هي أجمل ما صنع من نوعها في الفن الحديث . وأقامت ليون آنذاك ميدان.

نويس الأكبر وافتتحت كل من نانت وروان وريمس وبوردو ميدان الملك . وشادت تولوز مبنى فخما للبرلمان ، وأقامت روان نافورات جميلة وزينت الجسور الفخمة مدينة سنس . وعمت المتنزهات الواسعة نانت وبلوا ومونبلييه . وفيما بين عامي ١٧٣٠ - ١٧٦٠ حول جان جاك جبرائيل بوردو إلى مدينة حديثة ذات ميادين شاسعة وشوارع واسعة ومتنزهات طليقة الهواء وواجهة جميلة تطل على المياه ، وشيدت فيها المباني العامة على طراز عصر النهضة الرائع .

وأخيرا تخطت العمارة الفرنسية الحدود ، فعهد إلى رجال العمارة الفرنسيين بإقامة المباني في سويسرا وألمانيا والدنمرك وروسيا وإيطاليا وإسبانيا . وفي أواسط القرن وحين ضعفت قوة فرنسا العسكرية ومكانتها السياسية نجد أنها بلغت ذروة النفوذ والتأثير في مجال العادات والفن .

٣ - النحت

خاض النحت في تلك الحقبة معركة مريرة في محاولة للاعتراف به فنا هاماً كبيراً . وكانت مهمته قد اقتضت لعهد طويل على أن تكون زخرفية أو تزيينية . وفي عهد لويس الرابع عشر أقيمت التماثيل لتضفي زينة وبهاء على القصور الفخمة والحدائق الشاسعة . أما الآن فقد قل الاهتمام بالنحت لأن الولع بالبناء قد استنفد أغراضه كما استنزف فرنسا ، وقبح الأغنياء في مبان أصغر حجماً ، ولم تجد التماثيل الضخمة لها مكاناً في قاعات الاستقبال أو النوم . وشكا المثالون من أن الأكاديمية الملكية للرسم والنحت منحت معظم جوائزها للرسميين . واقترح ييجال أن يكون هناك مثال ملكي على غرار الرسام أو المصور الملكي ، وأيد بشخصه حملة طائفة سان ميشيل لكسر التقليد الذي جرى عليه العمل وهو تكريم الرسامين وحدهم بمثل هذه المهمة . وانصرف المثالون على كره منهم إلى زخرفة البيوت بقطع صغيرة وبالزهريرات والنقوش البارزة ، وسعوا إلى منافسة رسامي الأشخاص بأن يشكلوا الجسم الفاني في صورة خداعة من البرونز أو الحجر الذي لا يبلى ، ما داموا يتقاضون الأجر . ولما تهاى بعض هؤلاء المثالين مزيد

من الفرص للعمل اختاروا طراز الروكوكو الرشيق الطبيعي اللعوب المرح على حين ظلوا يحبذون وقار الخطوط الكلاسيكية .

وكما هو الحال مع الرسامين والحرفيين مال فن النحت إلى أن ينموا في أسرات بعينها . وساعد نيقولا كوستو أستاذه أنطوان كويسيفوكس في تزيين القصور الملكية في مارلي وفرساي ، وصمم الشخصيات العظيمة ، رامزا إلى أنهار فرنسا ، وهى الآن في البلدية دار البلدية في ليون . ولا يزال تمثاله « النزول من الصليب » في كنيسة نوتردام دى باريس ، و « الراعى الصياد » واحداً من اثنا عشر تمثالا رائعاً تغلب الزمن والجو في حدائق التويلرى . ونحت غليوم كوستو الأول الأخ الأصغر لنقولا ، تمثالا من المرمم لماري لوكز نسكا ، مثل تمثال جونو^(٤) (زوجة جوبيتر في الأساطير الرومانية) كما نحت تمثال « جياد مارلي » القوية (١٧٤٠ - ١٧٤٥) لذلك القصر أساسا ، ولكنها الآن متمردة على اللجام في المدخلين الغربى والشرقى لقصر الكونكورد . أما ابنه غليوم كوستو الثانى ، فقد حفر للدوفين مقبرة في كاتلدراية سنس .

وانجبت مدينة نانسى أسرة أخرى من الفنانين فورت جاكوب مجسرت آدم أبناءه الثلاثة النحت والعمارة ، وقضى لمبرت مجسرت آدم عشر سنوات في الدرس والتحصيل في رومه ، عاد بعدها إلى باريس ، حيث تعاون مع أخيه الأصغر نقولا سباستيان في إقامة نافورة « نبتيون وامفترت » (إله وإلهة البحر) في حدائق فرساي ثم قصد إلى بوتسدام حيث حفر لفرديك الأكبر - هدية من لويس الخامس عشر - مجموعتين من الرخام - صيد الحيوان وصيد السمك - لقصر سان سوسى . ثم رجع نقولا سباستيان إلى نانسى وشاد مقبرة كثرين أو بالنسكا في كنيسة نوتردام دى بون سيكور ، وثمة أخ ثالث ، وهو فرنسوا بلتازار جيسبار ، أسهم في تزيين عاصمة ستانسلاس .

وهناك أسرة ثالثة من النحاتين بدأت بالمثال فيلبوكافيرى الذى غادر إيطاليا في ١٦٦٠ ليعمل مع ابنه فرنسوا شارل في حلقة لويس الرابع عشر -

وثمة ابن آخر هو جاك كافيرى الذى بلغ بعبقريته الأسرة إلى الذروة متفوقاً على كل معاصريه فى أشغال البرونز . وتنافست القصور الملكية كلها تقريباً فى الإفادة من فنه فى زمانه . وفى قصر فرساي اشترك مع ابنه فيليب فى المدفأة فى جناح الدوفين وفى صنع قاعدة برونزية من طراز الروكوكو لساعة الملك الفلكية المشهورة الآن . وتعد التركيبات والسنادات البرونزية التى صنعها للأثاث أثمن وأعلى قيمة من الأثاث نفسه^(٥) .

وارتضى آدم بوشاردون — الذى أسماه فولتير « فيداس » فرنسا^(٦) (نحات أغريقى فى القرن الخامس ق . م) — ارتضى تماماً كل القواعد الكلاسيكية التى نادى بها راعيه كونت دى كايلوس . وجد لعدة سنين منانا للمثال بيعال حتى خيل لهذا الأخير أنه غلب على أمره . وأورد ديدرو ذكر بوشاردون فى قوله « لم أدخل قط إلى مرسم (ستوديو) إلا خرجت منه بشعور من القنوط سيطر على لعدة أسابيع »^(٧) ورأى ديدرو أن تمثال « الحب — كيوييد »^(٨) الذى صنعه بوشاردون مكتوب له انخلود ، ولكنه لا يكاد يتلظى بنار الحب ، وخير منه النافورة التى أقامها المثال نفسه فى شارع جرينل فى باريس ، وهى تحفه رائعة فى جلالها الكلاسيكى وعظمتها وفى ١٧٤٩ عهدت إليه المدينة بصنع تمثال فارس فارس للملك لويس الخامس عشر ، وأكب على العمل فيه لمدة تسع سنين ، وصبه فى ١٧٥٨ ، لكن لم يممه القدر ليراه قائماً وطلب إلى السلطات البلدية ، وهو على فراش الموت ١٧٦٢ ، أن تكل إلى بيعال اكمال المشروع ، وهكذا اختتمت المنافسة التى طال أمدها بين هذين المثالين ، فيما بنى عن الأعجاب والثقة بينهما ، ونصب التمثال فى ميدان لويس الخامس عشر ، ثم جاءت الثورة الفرنسية فحطمت ١٧٩٢ باعتباره رمزاً بغيضاً :

ونبذ جان بابتيست ليموين كل القيود والقواعد الكلاسيكية ، لأنها تحكم على النحت بالفناء . لماذا لا يعبر الرخام أو البرونز — مثل صور الألوان المائية أو الزيتية عن الحركة والوجدان والضحك والفرح والحزن — مما تجرأت التماثيل الهلينية على أن تعبر عنه ؟ وبهذه الروح صمم ليموين

مقبرتي كاردينال فليري والرسام بيير مينارد لكنيسة سان روش ، وكذلك في تمثال مونتسكيو الذى نحتته لمدينة بوردو . أبرز الممثل المؤلف « روح للقوانين » ساخرا مكتئباً شكاكاً ، وسطا بين سناتور روماني وفياسوف إقليمي يسخر من أساليب الباريسين في حياتهم . وأصبحت تلك البسمة العابرة هي العلامة المميزة للعديد من التماثيل النصفية التي صنعها ليموين بأمر من الملك لكثير من رجال فرنسا البارزين . وانتصر هذا الأسلوب التعبيري الممتع على كلاسيكية بوشاردون ، وانتقل إلى بيجال وباجو وهودون وفالكوئيه في عصر من أعظم عصور النحت في فرنسا .

٤ - الرسم

كان الرسامون هم أصحاب اليد الطولى بين الفنانين آنذاك . وعكست سيطرة بوشيه مرة أخرى نفوذ النساء وتأثيرهن على الفنون ، وأحست مركيزة بمبادور أن الرسامين قد أضاعوا كثيراً من الوقت مع أبطال الرومان وقديسي المسيحية وآلهة الإغريق ، وقد آن الأوان لينظروا إلى فتنة الأحياء من النساء في أبهى حللهن وتورد خدودهن ، ويبرزوا بالخطوط والألوان رشاقة العصر التي لم يسبق لها مثيل في تقاطيع الوجوه ، وفي الثياب وفي العادات وفي كل الكماليات في حياة الأقلية الثرية . وكانت المرأة يوما خطيئة ، وهي تعلن أنها لا تزال خطيئة ، لكن لا شيء إلا أن تكون أكثر إغراء وفتنة . إنها تأرت لنفسها من تلك القرون المربعة التي أذلها فيها الكنيسة ودمغتها بأنها أس البلاء ، ومصدر اللعنة . وسمح لها بدخول جنة لا يغشاها إلا الخصبان بفضل عذرية أم الإله فقط . وليس ثمة شيء ينم في جرة أكبر على اضمحلال الديانة في فرنسا من زحزحة السيدة العذراء عن الفن الفرنسي .

وحل الملك والأرستقراطية ورجال المال محل الكنيسة في رعاية الفن . وفي باريس أصبحت أكاديمية سان لوك للرسامين منافسا ومستحثا للأكاديمية الملكية للفنون الجميلة المحافظة المتمسكة بالقديم . وفي الأقاليم نشأت أكاديميات إضافية في ليون ونانسى ومتزومرسيليا وتولوز وبوردو وكلبرمنت

فراند وبووديجون وريمس . وفضلا عن جائزة رومه السنوية وضعت
ثنتا عشرة مسابقة وجائزة ، بعثت في دنيا الفن حركة دائبة واهتياجاً
شديداً ، وفي بعض الأحيان كان الملك أو غيره من رعاة الفن ، يواسون
من لم يفوزوا في هذه المسابقات بشراء بعض لوحاتهم أو منحهم بعض المال
الذى يكفل لهم الإقامة لبعض الوقت في إيطاليا .

وعرض الرسامون لوحاتهم في الشوارع ، وفي بعض الأعياد الدينية
كانوا يثبتونها في السناثر التي تتدلى من نوافذ الأتقياء في الطرق التي يمر بها
الموكب الديني . ورغبة في تعويق ما بدا للفنانين المعترف بهم أنه نهج غير
ملائم ، استأنفت الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة في ١٧٣٧ وبعد انقطاع
ثلاث وثلاثين سنة ، إقامة المعرض العام للرسم والنحت المعاصرين في
« القاعة المربعة » في متحف اللوفر . وهذا المعرض السنوى أو الذى كان
يقام كل عامين بعد ١٧٥١ أصبح في أواخر أغسطس وطوال سبتمبر حدثاً
مثيراً في الحياة الفنية والاجتماعية في باريس ، وفي دنيا الأدب ، وجعل
الصراع بين المحافظين في الأكاديمية والمتمردين داخلها أو خارجها ، من
الفن معركة تنافس معارك الحديد عن الجنس بل معارك الحرب الحقيقية
في أحاديث الناس في العاصمة . واحتقر أنصار الخطوط البسيطة المحتشمة
غير المبالغ في رخرقها ، والتهديب الذى يعاون على الإصلاح — كما كانوا
هم أنفسهم موضع احتقار — أنصار اللون والتجريب والابتكار والحرية .
وأصبح النقد الفنى عملاً ناجحاً . وكانت « تأملات في فن الرسم » للكونت
دى كابوس تقرأ في إسهاب على الملاء في الأكاديمية . وروى جريم أنباء
المعارض لقراء رسائله . وتخلى ديدرون عن هجومه على المسيحية ليصبح
واحداً من أشد النقاد الفنين معارضة في ذلك العصر . وأثار الحفارون على
الخشب والمعادن مثل جاك لى بلون ولورنت كارز الهياج بنشر نسخ مطبوعة
من الأعمال المشهورة وتزيين الكتب بالصور ، وإنتاج روائع من عملهم
هم أنفسهم . وكان لى بلون أول من بدأ الحفر بالألوان في ١٧٢٠ .

ولم يكسب الفنانون قط من قبل . اللهم إلا في مجال الفنون الدينية ،

مثل هذا الجمهور المتحمس ، أو مثل هذه الرعاية على نطاق واسع . ويأت الرسام الآن بوجه نشاطه إلى العالم بأسره .

١ — في حجرة الانتظار .

ارتفع عدد كبير من الرسامين إلى قمة المجد في تلك الحقبة ، حتى أنه ليشق علينا هنا مجرد ذكرهم ، ولسوف نعرض في تفصيل أكثر لبوشيه وشاردان ولاتور . ولكن هناك من قد يزعجهم إغفالنا ذكرهم .

فهناك الرسام المبرز جان فرنسوا دي تروى ، ولكنه كانت تعوزه الحيوية ، وكان رسمياً إلى درجة لا يصلح معها أن يكون عظيماً . وأحبه الجميع ، ووافق إلى حد كبير على أن يستخدم ملامح وجهه وكأنها ملامح وجه السيد المسيح « آلام المسيح في البستان^(١) » ووجد في إغراء السيدات لذة أكثر منها في رسمهن ، وترك وراءه كثيراً من القلوب الكسيرة المحطمة والأعمال المشوهة ، وزخرف فرنسوا ليموين (ويجب ألا تخلط بينه وبين الماثل جان بابتست) عقد قاعة هركيول في قصر فرساي بنحو ١٤٦ شكلاً ضخماً ، ونقل إلى تلميذه بوشيه فن إحلال اللون الوردى الذى تؤثره مدام دي بمبادور محل اللون الأسمر المائل للحمرة في لوحات رامبرانت واستبق شارل أنطوان كوييل ، وهو ابن وحفيد لرسامين ، شاردان في رسم مشاهد الحياة اليومية وأحداثها ، وقد التقينا به رساماً للوصى ، وفي ١٧٤٧ أصبح الرسام الأول للملك لويس الخامس عشر .

وقد سر فرديك الأكبر باقتناء لوحته « سيدة أمام المرأة » لقصر سان سوسى ، ولا يزال اللوفر يعرض لوحته « الحب والأميرة فاتنة الجمال التى أحبها كيوييد » من نسيج الجوبلان المنقوش ، وهى تركيب نفيس من طبيعة بشرية وقماش .

وحظى جان مارك ناتير بشعبية ورواج في رسم الأشخاص لأنه عرف ، عن طريق الوضعية (كيف يكون وضع المرء أمام الرسام) واللون وحركة الضوء ، كيف يخلص المجالسين أمامه من العيوب أو التشوهات التى أصابتهن بفعل الوراثة أو أحداث الحياة ، حتى أن كل السيدات اللاتي

رحمهن ، فيما عدا واحدة ، سررن حين وجدن أنفسهن في لوحاته ، فائنات مغريات كما اعتقدن دائماً في أنفسهن . ولوحته « مدام دي بمبادور » معلقة في فرساي ، بشعرها الجميل الملون بلون خفيف ، وعينيها الوديعتين اللتين لا تكادان تكشفان عن لفتها عل السلطان والسيطرة وتنافس الملوك والملكات على الظفر بالفتان ناثير . فقد رسم ماري لوكزنسكا سيدة برجوازية تشرع في القيام بنزعة في الريف ^(١٠) وأنصف كل الانصاف جمال أدليد ^(١١) ابنة الملكة . وعند ما زار بطرس الأكبر باريس رسم ناثير لوحتين له ولزوجته القيصرة ، ودعاه بطرس للانتقال إلى روسيا فأبى ، فما كان من القيصر إلا أن حمل اللوحتين دون أن ينقله أجرا . وأحضر جاك أندريه أفيد المولود ، الفلاندرز بعض لوحات فلمنيكية واقعية تصور الناس كما هم ، ولا بد أن ميرابو الأكبر جزع عندما رأى نفسه كما رآه أفيد فصوره ^(١٢) . ولكنها على أية حال من أعظم لوحات هذا القرن .

وعلى كل هؤلاء السادة الجالسين في حجرة الانتظار — حتى على بوشيه وشاردان — نجد جريم وديدرو ويثران كارل فانلو ، وهو سليل أسرة كبيرة من الرسامين تحمل اسم فانلو ، نعرف منهم تسعة بأسمائهم . ولد في نيس ١٧٠٥ . واصطحبه معه رفيقه الرسام جان بابتست إلى رومه حيث درس بالازميل والفرشاة معا . وفي باريس فاز بجائزة رومه ١٧٢٤ ، ثم قضى في إيطاليا فصلا دراسيا آخر ، عاد بعده إلى فرنسا وأرضى الأكاديمية وأغضب بوشيه ، باتباعه كل القواعد الأكاديمية . وحيث أنه أفرغ كل جهده وقضى كل وقته في الاشتغال بفنه ، ولم يدخر منه شيئاً ليتعلم القراءة والكتابة والعادات القويمة والحديث المذهب ، فإن مدام بمبادور نفرت منه في شيء من الاشمزاز ^(١٣) بأنه « وحش مزعج » ومع ذلك عهدت إليه برسم (مناقشة إسبانية) . ولفترة وجيزة ارتضى مزاج العصر . ورسم سيدات متشحات بأردية ملتصقة بأجسامهن ، ولكنه سرعان ما ركن إلى الرزانة والهدوء في حياة أسرية نموذجية ، فعخوراً بزوجه البارعة المصقولة ولوعاً بابنته كارولين . وفي ١٧٥٣ اشترك مع بوشيه في زخرفة قاعة المجلس

الرائعة فى قصر فونتنبلو ، وبلغ درجة كبيرة من الشهرة إلى حد أنه عندما اتخذ مقعده فى الكوميدي فرانسيز ، بعد مرض عضال كاد يودى بحياته ، نهض الحاضر دن وحيوه وصفقوا له مظهرين بهذه العلاقة الوثيقة بين الفن والأدب فى هذا العصر الذى تميز بثقافة عالية .

وسجل جان بابتست أودرى رحلات الصيد الملكية فى أعمال النقش والرسم على القماش . واختارته الملكة معلما لها . وكانت تتولاها الدهشة والعجب حين ترقبه وهو يعمل . وزودت بعض قطعه المنقوشة نساجى القماش بتوجيهات ونماذج ممتازة يهتلون بها فى عملهم ، وسرعان ما عين أودرى مديرا للمصنع الملكى فى يوفيه ، فلم يجد هناك إلا الفوضى والتدهور ، فأعاد تنظيم العمل فى حزم وشدة ، وأثارهم العمال بحماسة ؛ وصمم لهم سلسلة من قطع النسيج المزدان بالرسوم ، موضعا بصور الحيوانات المبهجة قصص لافونتين الخرافية . وهناك أيضا وضع الرسم التمهيدى للمجموعة الأخاذة من النساء والوحوش المعلقة فى اللوفر ، فى « ديانا دى بورتير » . وتملكت النساجين فى الجوبلان الغيرة من السجاح الذى أصابه مصنع بوفيه ، فاقنعوا الملك بنقل أودرى إلى المصنع القديم ، وهناك أفنى نفسه فى صراع مرير لحمل النساجين على قبول الألوان التى وضعها . وفى الوقت نفسه أسهم فى كل من بوفيه وباريس فى تدريب المواهب والقدرات المتشعبة لدى أكثر فنانى منتصف القرن فى فرنسا امتيازاً وتألقاً ، وأكثر من نال منهم تعنيفاً قاسياً .

٢ — بوشيه : ١٧٠٣ — ١٧٧٠ .

استمع إلى ديدرو وهو يتأمل فى لوحات بوشيه العارية : أية ألوان ، وأية تشكيلة ، وأية وفرة فى المواد والأفكار ! إن هذا الرجل توفر لديه كل شئ إلا الصدق . إن انحطاط الذوق واللون . وأسلوب التركيب ، والشخصية والتعبير ، كل هذا تبع خطوة بخطوة انحلال الخلق وماذا عسى هذا الرجل أن يرسم إلا ما تصوره فى خياله ؟ وماذا يمكن أن يتخيل رجل يقضى حياته برفقة نساء المدينة ؟ إن هذا الرجل

لا يمسك بفكراته إلا ليرز الأرداف والصدور . إنه لا يدرك ما هو الجمال فإن الكياسة والأمانة والبراءة والبساطة أصبحت كلها غريبة عليه . إنه لم ير الطبيعة لحظة واحدة قط ، وعلى الأقل الطبيعة التي تدخل البهجة على نفسى ، وعلى نفسك ، مثل طفل كريم المولد ، أو امرأة ذات وجدان حى . إنه مجرد من الذوق والواقع إنه فى تلك اللحظة بعينها ، عين الرسام الأول للملك (١٧٦٥) (١٤) .

ويمتثل ألا يكون بوشيه قد اطلع على هذا النقد قط لأنه كان موجهاً إلى قراء جريم الأجانب . فلنلق نحن نظرة على الفنان دون نية مبيتة للحقد عليه أو الإساءة إليه .

كان بوشيه ابناً صميماً من أبناء باريس . وكان أبوه يشتغل بوضع التصاميم ، يملك محلاً بالقرب من الأوفر ، ولقن ابنه فرنسوا مبادئ الرسم والنحت ، وإذا أظهر الفتى استعداداً وموهبة فقد تتلمذ على النقاش لورنت كارز ثم على الرسام فرنسوا اليموين . وحيث اشتغل برسم المشاهد للابرا ، فإنه اجتمع هناك بنفر من الممثلات وبنات الفرقة الموسيقية . وانغمس فى مبادل عهد الوصاية ، بقدر ما أتاحت له إمكاناته (١٥) ويروى لنا إنه وقع مرة فى حب رومانتيكى مع بائعة فاكهة جميلة اسمها روزيت ، وبدأ له أنه قد تجسدت فيها البساطة والطهارة معا ، فاتخذ منها نموذجاً للوحة لمريم العذراء ، أفرغ فيها كل ما تبقى له من تقوى طفولته وصباه . ولكنه ، وهو لما يكمل بعد هذه اللوحة انزلق إلى اتصال جنسى غير شرعى ، وحين حاول أن يكملها أفلت منه الوحى والإلهام ، كما أفلتت منه روزيت . ولم يسترجع قط لحظات هذا الخيال الرقيق اللطيف (١٦) .

وتطورت مهارته ونمت بسرعة تحت ارشاد ليموين . وفى هذا الرسم تعلم شيئاً من نزعة كوريجيو إلى الأشكال النسوية ذات التقاطيع الكلاسيكية والركة الناعمة . وفى قصر لكسمبرج درس اللوحات الزيتية المتألقة على القماش التى كان روينز قد حول فيها الحياة لمارى مديتشى إلى ملحمة من اللون « وعظمة الثياب » . وفى ١٧٢٣ ، وهو فى سن العشرين فاز بجائزة رومه

التي أهلتها للإقامة الكاملة في باريس لمدة ثلاثة سنوات ، مع راتب قدره ٣٠٠ جنيه ، ثم أربع سنوات في رومه . وإنا لنحصل على صورة حياة الطالب في عهد الوصاية إذا علمنا أن رفاق الفائز بهذه الجائزة حملوه على الأكتاف وطاقوا به حول ميدان اللوفر .

وفي ١٧٢٧ رافق كارل فانلو إلى إيطاليا . ويقول مدير الأكاديمية الملكية الفرنسية في رومه وجد « للشاب الصغير المدعو بوشيه جحراً صغيراً في غرفة ، وأسكنه فيه . وأخشى ألا يزيد حقيقة عن جحر ، ولكنه على الأقل سيقم تحت السقف^(١٧) . ولكن لم يكن لزاماً على الشاب المتواضع ، كما وصفه المدير ، دوماً أن ينام في هذا الحجر ، لأنه وجد كثيراً من المضاجع ترحب به في رومه . وإنه لمن علائم تغير الذوق إنه لم يبدأ ولعاً بأعمال رافاييل أو ميكلائجلو ، ولكنه عقد أواصر الصداقة مع تيبولو (رسام فينيسى ١٦٩٦ - ١٧٧٠) .

ولما عاد إلى باريس (١٧٣١) استمر يوقد الشمعة من طرفيها (يمسك بالعصا من وسطها) ، ونادراً ما كان يقنع بشيء إلا المعرفة المباشرة بنماذجه ، ومع ذلك وجد فسحة من الوقت ليرسم بعض لوحات رائعة مثل « اغتصاب يوروبا » في الأساطير اليونانية (أميرة فينيقية أحبها زيوس واختطفها) وهي من بين عروضه التي لا تحصى لشكل المرأة . وخيل إليه في ١٧٣٣ أنه وقع على فينوس نفسها في نموذج جين بوزو ، وعلى الرغم من أنه أحس « بأن الزواج لا يلتئم معه »^(١٨) فإنه اتخذ منها زوجة ، ولم يرع عهد الزوجية إلا قليلاً . وكالت له هي بنفس الكيل . ومن المحتمل أنها جلست أمامه ليرسم لوحة « رينوو آرميد »^(١٩) التي كسبت له العضوية الكاملة في أكاديمية الفنون الجميلة (١٧٣٤) . وحينذاك عهد إليه لويس الخامس عشر برسم مناظر سارة في حجرة نوم الملكة التي كانت لا تزال تتمتع بحبه ، وعند إعادة افتتاح المعرض ١٧٣٧ اتسعت شهرة الفنان وكثر رعاة فنه . ولم يلق بعد ذلك طعم الفاقة ، ولم يعد له منافس .

وتخصص بوشيه في رسم « العاريات » وحتى زواجه لم يكن قد تريت

طويلاً إلا نادراً مع امرأة واحدة ليكشف شيئاً أكثر من بشرتها . ولكنه كان قد وجد أن ذلك المظهر الخارجى ممتع بلا حدود ، وبدأ أنه عقد العزم على رسمه من كل الأركان والزوايا ، وفي كل الأشكال والأوضاع ، من الشعر الأشقر الحريري الناعم إلى الأقدام العارية التى لم تنتعل قط . وكان بوشيه هو الروكوكو قلباً وقالبا .

ولكنه كان أكثر من ذلك . وعلى الرغم من أن النقاد المتأخرين عابوا عمله من الناحية الفنية ، فإنه كان بالفعل فناناً حاذقاً فى التأليف واللون والخط ، على أنه فى بعض الأحيان تعجل فى العمل ، ولم يعط الفن حقه رغبة فى سرعة الحصول على الأجر ، وهلل كثير من المعاصرين إعجاباً بروح التأثيرية الثورية فى لوحاته وخصوبة خياله والرشاقة البسيطة فى خطوطه . وقال ديدرو الذى ناصبه العداء ، « لم يعرف أحد قدر ما عرف بوشيه ، فن الضوء والظل ^(٢٠) وكاد أى فرع من الرسم والتصوير ألا يروغ من مهارته . إن هؤلاء الذين لا يعرفون منا إلا بعض لوحاته الزيتية وقطعه المصورة على القماش ليدهبون إذ يعلمون أن « شعبية بوشيه ترجع إلى رسوماته قدر ما ترجع إلى لوحاته الزيتية ^(٢١) . وكانت رسوماته مادة ثمينة طيلة حياته ، وتنافس فى الحصول عليها مشاهير جامعى الرسومات . وكانت تشتري لتستخدم مساند أو حوامل ، وتعلق فى حجرات النوم والجلوس على الجدران ، وكانت من عجائب الاقتصاد - نقرة فى الخلد تعبر عنها نقطة أو بقعة صغيرة وبسمة يطبعها خط ، وكل بريق وحفيف التنورات الحريريّة ينبثق فى إعجاز من قطعة من الطباشير . ومن المحقق أنه ليس من أجل الثروة وحدها ، ولكن بفضل العبقرية والخيال المتفجرين فيه ، يضيئان عينيه ويقودان يديه ، أكب بوشيه على العمل عشر ساعات يومياً فى رسمه ، تاركاً بصماته على كل شيء يلمسه تقريباً . وفضلاً عن ألف لوحة ، رسم بوشيه المراوح وبيض النعام والحرف والرصائع والستائر والأثاث والمركبات ومناظر المسرح وجدران وسقوف المسارح . وقصّدت كل باريس النشيطة لترى الزخرفة التى أعدها خلفية (لباليه نوفير : الأعياد

الصينية « ١٧٥٤ . ولم يكن به ميل شديد إلى المناظر الطبيعية ، لأنه كان صغيراً فروديت إلهة الحب والجمال إلى اللوفر ، ومع ذلك احتفظ بشخصياته البشرية في الغابات والحقول ، بجوار المياه القوارة والاطلال الظليلة وتحت السحب البيضاء في السماء الزرقاء ، وشمس دافئة تغري بحرارة الدم وتطريها . وربما ظن المرء أن مشاهد الحياة اليومية لا تلائم ، ومع ذلك رسم لوحة « منظر أسرة » ، أبرز - وكأنما أراد أن يحرر نفسه من عبودية الجمال - فناء المزرعة وحظيرة الماشية وبرج الحمام ، وعربة اليد ، والأنقاض في الفناء الخلفي ، والحمبر ترزح تحت أحمال من الأوعية والآنية التي تحدث قعقة . واستكمالاً للخيرته أصبح أعظم مصمم لرسوم النسيج في هذا القرن .

وفي ١٧٣٦ دعاه أودرى إلى مدينة بوفيه ليضع ثصميات للنساجين هناك حيث بدأ بأربعة عشر رسماً لمناظر قروية إيطالية (٢٢) . وقد لاقت هذه الرسوم نجاحاً كبيراً إلى حد أنها نسجت اثنتا عشرة مرة على الأقل قبل وفاته . ثم انتقل إلى موضوع أكثر نموذجية « قصة الأميرة الفاتنة » - خمس استار تعلق على الجدران ، شكلتها مدام بوشيه ، وهي من التحف الرائعة في فن القرن الثامن عشر . وتوج أعماله بست قطع من النسيج المزدان بالرسوم والنقوش أطلق عليها « الحياة الريفية الكريمة » (٢٣) إحداها وهي « صائد الطير » تمثل حبيبين فاتنين من أروع ما أخرج من الحرير والصوف . وشكا النقاد من أنه بسبب أودرى وبوشيه أصبح النسيج المزدان بالنقوش أقرب شبهاً باللوحات الزيتية ، وأنه فقد خصائصه المميزة . ولم يأبه لويس الخامس عشر بهذا كثيراً ، لأنه عند ما توفي أودرى (١٧٥٥) رقى بوشيه إلى رئيس مصانع الجوبلان .

وفي الوقت نفسه حظى الفنان المنتصر الظافر برعاية بمبادور المثقفة حماسة وغيره . فزخرف لها قصر « المنظر الجميل » وصمم أثاثه . وللمسرح الذي سمعت به إلى الترفيه والتسرية عن الملك رسم المناظر وابتكر الملابس ورسم لها عدة لوحات آتية في الجمال الأخاذ والركة يحار الناظرون إليها في الحكم عليها . وإن الاتهام بأن بوشيه لم يصل قط إلى ما وراء الجسد قد

سقط الآن وأخرس ، فإنه لم يهين لنا إن نرى كثيراً من مفاتن جسد العشيقة قدر ما هيأ لنا أن نلمس مناقب الذكاء والركة التي حببتها إلى الملك ، والاهتمام بالثقافة الذي جعل منها معبودة الفلاسفة ، والذوق الفني النسوى الرفيع في الثياب الذي أضفى في كل يوم فتنة جديدة على مفاتن الجسد العانية . ويفضل هذه اللوحات ولوحة . الرحلة - لاتور « استطاعت بمبادور تذكير الملك في هدوء بالجمال الذي ولى والفتنة الأرق التي بقيت . وربما استخدمت بمبادور كذلك لوحات بوشيه الحسية الشهوانية في ارضاء رغبة الملك الجنسية القوية . ولا عجب إذن في أنها جعلت من بوشيه صديقاً أثيراً لديها ، ووفرت له جناحاً في الوفرة ، وتلقت عنه درساً في النقش ، وبحث معه مشروعاتها في زخرفة قصورها ، والارتقاء بالفنون . ورسم لها (١٧٥٣) لوحتين من أعظم لوحاته الشروق والغروب » (٢٤) وفي كلتا اللوحتين ، بطبيعة الحال ، كانت الأشكال البشرية تفوق الشمس بهاء وبريقاً .

وعمر بوشيه بعد بمبادور ، وبعد الحرب الفاجعة مع إنجلترا وفردريك الأكبر ، وظلت أحواله في ازدهار إلى سن السابعة والستين حيث وافته المنية . وتكاثر عليه التكليف بعمل اللوحات ، وأصبح ثرياً ، ولكن لم تقل حماسته وغيرته في العمل عن ذى قبل ، وظهر ثروته بالبذل والسخاء . وكان عرييذاً محسناً خيراً ، لا يكل ولا يمل من الفسق والدعارة ولكنه دائماً أبداً مرح ودود ، « لطيف كريم غير متعيز ، ينأى بنفسه عن الأحقاد الدينية به مناعة ضد التلهف الحقير على كسب المال » (٢٥) وكان متعجلاً في عمله إلى حد لم يبلغ معه قمة الامتياز . وأطلق تخياله عنان الحرية إلى درجة لم يلمس معها جوانب الحقيقة والواقع . وأبلغ رينولدز أنه ليس في حاجة إلى نماذج ، وأنه يؤثر الرسم من الذاكرة ، ولكن ذاكرته جاءت بأشكال مثالية . ولما لم يصوب له الواقع ذاكرته ، فإنه بات مهملاً في رسمه مبالغاً في ألوانه . واتهمه جريم وديدروو وآخرين بأنه أخطأ فحسب الظرف واللطف جمالاً ، وأنه هبط بجلال الفن إلى مجرد

زخرفة سطحية ذات مظهر خداع ، وبأنه افسد أخلاق العصر باعلاء قيمة مفاتن الجسد . وعاب عليه ديدرو واستنكر ابتساماته المتكلفة وتصنعه . . . وشامات الجمال ، واللون الأحمر على الخدود . . . ونساء العابثات ، ورجاله الفاسقين الشهوانيين وأولاد باخوس وسيلينوس غير الشرعيين (إله الخمر والعريضة في الأساطير اليونانية) (٢٦) ومات بوشيه وهو يعمل في مرسمه تاركاً على الحامل لوحة لم يكملها « تزين فينوس » وكأنما يتحدى بها ديدرو . وعند ما سمع ديدرو بموت الفنان أحس بالندم وقال « لقد أسأت إلى بوشيه كثيراً بكلامي عنه ، وإني لأكف الآن عن الحديث عنه . (٢٧) ولنكتف نحن بهذا القدر »

٣ - شاردان : ١٦٩٩ - ١٧٧٩

كم اختلف عالم بوشيه عن دنيا شاردان - أى تباين بينهما في مفاهيم الجمال وفي الخلق وفي الذكاء ! كانت هنا تقريبا حرب طبقية ، ثورة الطبقة المتوسطة ضد الابقورية المفسدة المبذرة عند رجال المال والأرستقراطية والحاشية . ولدجان مابتست سيمفون شاردان برجوازيا ، وظل برجوازيا قانعا ، وصور الحياة البرجوازية في اخلاص بالغ . وكان أبوه معلم نجارة ذا مكانه عالية في نقابته ، يمتلك داراً في شارع السين على الضفة اليسرى من النهر ، ولما كان يظن أن ابنته جان سيخلق في مهنته ، فإنه لم يعن بتعليمه في المدرسة قدر عنايته بتدريبه على الأعمال اليدوية . وأسف شاردان على ما فاتته من تعليم وعلى ضالة ما حصل منه ، ولكن هذا منعه من ارتياد مجالات الفن القديمة ، فولى وجهه وقرشاته شطر الأشياء التي حوله في المصنع والبيت . وسرعان ما أحب الرسم وتلهف على التصوير ، وسمح له والده بالالتحاق بمرسم بيير جاك كيز ، ثم بتسجيل اسمه رساما في البلاط الملكي .

ولم يكن الشاب سعيدا هناك ، فإن النماذج التقليدية التي طلب إليه أن ينسخ عنها بدت له بعيدة بشكل مخيف عن الحياة التي عرفها وألفها . وعندما طلب إليه جراح صديق لوالده أن يعد له لافتة تعلن عن مهنة الخلاق الجراح ، وتبرز أدواتها ، فإن جان - وربما تذكر عند ذاك شعار الرسام

اتو لجرسانت — رسم لافطة ضخمة تمثل رجلا جرح في مباررة ، يقوم على العناية به جراح ومساعدته ، ومن حسن التدبير أضاف إلى هذا سقاء وشرطيا وبعضا من حراس الليل ، ومركية ، وامرأة تحديق النظر من نافذتها ، وحشدا من المتفرجين يحملون من فوق الرؤوس — كل أولئك في منظر رائع عن الصخب والايماء والاثارة . وغضب الجراح ورأى أن يلقي باللافتة عرض الحائط ، ولكنها جذبت انتباه المارة ونالت استحسانهم إلى حد كبير إلى درجة أن الجراح استبقاها على بابه ، ولم نسمع بعد ذلك شيئا عن شاردان ، حتى كان عام ١٧٢٨ ، حين حظيت باطراء خاص ، لوحته « السمكة » ولوحته « الخوان » (البوفيه) — طبق فضى فيه فاكهة — في معرض في الهواء الطلق في ميدان الدوفين . ودعاه بعض أعضاء الأكاديمية ليطلب الانضمام إلى عضويتها . ودبر أن يعرض بعض من لوحاته هناك غفلا من اسمه ، فأعلن من رأوها أنها تحف رائعة ، ونسبوها إلى فلمنج ، ثم اعترف شاردان بأنه صاحبها ، فاستنكروا هذه الخدعة ، ولكنه على أية حال فاز بعضوية الأكاديمية (١٧٢٨) .

وفي ١٧٣١ خطب مرجريت سنكتار التي وعده أبواها بصداد كبير ، ولكن في فترة الخطوبة منى الوالدان بنسائر جسيمة وفارقا الحياة ، تاركين مرجريت لا تملك شروى نفير ، وتزوجها شاردان على الرغم من ذلك ، وهيا لهما أبوه مسكنا في الطابق الثالث من منزل كان قد اشتراه حديثا على ناصية شارع دى فور وشارع البرنسيس . وهالك أقام الفنان مرسمه الذى كان أيضا مطبخه ، فقد اختار الآن بصفة نهائية أن يرسم الحياة الهائلة ومشاهد الحياة اليومية . وأصبحت الخضر والفاكهة والسملك والخبز واللحم كل الأشياء التى تبعثت في أنحاء الغرفة ، نماذج لقرشاته تارة ، وصنوف قائمة طعامه تارة أخرى .

وافتن شاردان بالأشكال والألوان المتغيرة في الأشياء العادية ، ورأى فيها خصائص في البيئة والتركيب والضوء قلما تلمحظها العين الغافلة . فإن جانبي التفاحة أو خديها كانا بالنسبة له يحملان طابعا رومانتيكيا مثل تورد

وجنتى عذراء ، وبريق السكين فوق مفرش المائدة الأخضر تحده أن يمسك به فى حركته السريعة ، ويحاول تثبيته فى فنه . وأبرز هذه الأشياء الصغيرة البسيطة فى أمانة وتبصر ، وبراعة فنية فى اللون والمناسيب والضوء والظل ، مما لم يتيسر إلا لقلة من الفنانين أن يبلغوه . وإننا لننظر إلى هذه الأشياء الطبيعية المينة ، ونحس بأنها حية وإننا لم نرها رؤية صادقة قط من قبل ، وأننا لم نتحقق قط من تعقيد أشكالها وتفرداها . ومن الفروق الدقيقة بين ظلال ألوانها ، ولم يجد الشعر فقط فى إناء من الأزهار أو عنقود من العنب . بل فى مرجل قديم محطم ، وفى جوزة ، وفى قشرة برتقالة . وفى فتات كسرة خبز جاف . فى هذه كلها شعر دائماً كما كان الفلمنكيون والهولنديون قد عرفوا من قبل ، ولكن من فى فرنسا بوشيه وبمبادور خامره يوماً شعور بوجود هذا الشعر . وكان جمال هذه الأشياء بطبيعة الحال فى عين الرائي أو المشاهد أو بالأحرى فى نفسه . إن شعور شاردان القوى وبصيرته النافذة - وفقره - كل أولئك هو الذى جعل من مخزن حفظ الأطعمة قصيدة غنائية ، ومن قائمة الطعام ملحمة شعرية .

وكل إنسان يعرف هذه القصة - أو الاسطورة ؟ - كيف انساق شاردان إلى رسم الأشكال البشرية . إنه سمع ذات يوم صديقه أفيد يرفض ٤٠٠ جنيه أجراً لرسم لوحة لأحد الأشخاص ، فعجب شاردان أشد العجب ، وهو المعتاد على الأجور الضئيلة ، لهذا الرفض . فما كان جواب أفيد إلا أن قال « هل تظن أن رسم إنسان سهل مثل رسم مرقق التوابل (الصلصة) . » (٢٨) . وكانت سخيرية لازعة . ولكن مفيدة . إن شاردان كان قد ضيق مجال موضوعاته تضيقاً شديداً ، وسرعان ما كان يمكنه أن يشبع رغبات زبائنه وعملائه فى الأطباق وألوان الطعام ، وعقد العزم على رسم الأشخاص . وكشف فى نفسه عن عبقرية فى رسم الأشخاص فى رقة وتعاطف ، وكان هو الذى هباً لهذه العبقرية أن تتخذ . وقبل التحدى من فوره . ورسم لوحة لصديقه أفيد نفسه ، « المتفاخر » (٢٩) . وأتبعها بلوحة أحسن منها « دار لعب الورق » . ولكن هنا أيضاً كان التفوق والامتياز

في الملابس لا في الوجوه . وفي لوحة « الطفل والخدوف (النحلة) » خطا شاردان خطواته الثانية : اليدان يشعتان بعض الشيء ، ولكن الوجه ينهي عن عقل سليم . ووجد هذا الاعتناق الرقيق منفذا في رسمه للبنات ، كما هو الحال في التحفيتين الرائعتين اللتين تضمهما مجموعة روتشيلد : « بنت تلعب تنس الريشة » ، وأخرى « تنسلي بتناول غذائها » .

إن شاردان لم ير في النساء الاغراء الباسم الذي أثار بوشيه ، بل رأى فضائل وخصائص الزوجية والأمومة التي هي عماد الدولة ، وهي التي تقودها إلى طريق الخلاص . ومع شاردان دخلت سيدات الطبقة المتوسطة مجال الفن الفرنسي ، وحصلت على حقها فيه . إن هذا الفنان عرفها وأحبها في كل ما تقوم به من خدمات جليلة أسرة : احضار الطعام من السوق ، سحب الماء ، تقشير السليج ، لف الصوف ، العناية بالمريض ، تحذير التلميذ من إهمال واجبه أو الهرب منه ، أو كما أبرز شاردان في أشهر لوحاته « الخير والبركة »^(٣٠) الامساك عن الطعام حتى تكف صغرى البنات ، ويدها الصغيرتان مضمومتان ، عن الصراخ والبكاء ويشيع في وجهها ابتسام الرضا ، ورأى المرأة دائماً في ملابس البيت ، غير متبرجة ، في حركة دائبة ، تخدم زوجها وأولادها من الفجر وصلاة الصباح إلى أن يأووا جميعاً في أمان إلى فراشهم ويتدثروا . وإننا لنرى من خلال لوحات شاردان باريس وهي أكثر حكمة وأكبر عقلاً من الحاشية ، لا تزال متعلقة بالأخلاقيات القديمة والعقيدة الدينية التي وفرت لها عوناً روحياً . وهذا هو أعظم فن نفعا وصحة في كل تاريخ الفن .

إن هذه الصور التي يهلل لها العالم الآن لم تلق إلا رواجاً محدوداً جداً آنذاك ، ولم تأت للفنان إلا بفرنكات معدودة تقيم أوده في بساطة قانعة . ولم يساوم مع عملاءه . وباع اللوحات بأى ثمن عرضوه عليه تقريباً . ولما كان يعمل في ببط وكد وجد ، فإنه انهك نفسه في فقر نسبي ، على حين أن بوشيه استنفذ جهده في يسر ورخاء . ولما توفيت زوجته الأولى بعد أربعة أعوام فقط من الزواج ، آل مسكنه إلى حالة شديدة من الفوضى وسوء

النظام . وكأنه مسكن طالب ، ألح عليه أصدقاؤه أن يتزوج ثانية ، ولو ليحظى بيد امرأة رشيقة وسيدة تعيد النظام إلى بيته . وتردد تسع سنين ثم تزوج الأرملة مرجريت بوجيه . وهو في بساطة زواج مصلحة . وجاءت له مرجريت بصادق متوسط ، يشمل بيتا تملكه (١٣ شارع البرنيس) ، فانتقل إليه . حيث وضعت خاتمة لفقره وعوزة ، وكانت سيدة فاضلة وزوجة شديدة التدقيق . وتعلم هو أن يحبها شاكرا ممثنا .

وزيادة في معونته من الناحية المالية خصص له الملك (١٧٥٢) راتباً قدره ٥٠٠ جنيه ، وعينه الأكاديمية (١٧٥٤) أمينا للصندوق فيها ، وسرعان ما عهدت إليه بترتيب اللوحات المقدمة إليها في قاعات العرض فيها ، ولكنه لم يكن يصلح لهذه المهمة مطلقا ، ولكن زوجته ساعدته فيها . وفي ١٧٥٦ أفتع صديق نقاش - هو شارل نيقولا كوشان الثاني - ماريني بأن يخصص لشاردان غرفة مريحة في اللوفر . وهذا هو كوشان نفسه الذى كان تواقا إلى إبعاد شاردان عن تكرار صور المطبخ ، فحصل له على تكليف برسم ثلاث لوحات ، لتوضع (فوق الباب) لقصر ماريني . فأخرج شاردان في جد واجتهاد (١٧٦٥) « خصائص الفن » وخصائص الموسيقى^(٣٢) ثم حصل على تكليف آخر برسم لوحتين شبيهتين لقصر مدام دى بمبادور « المنظر الجميل » . ولسوء الحظ لم يدفع المبلغ الموعد للوحات الخمس حتى عام ١٧٧١ .

وفي نفس الوقت كان الفنان تتقدم سنه ويفقد مهارته . ففي ١٧٦٧ نرى ديدرو الذى كان قد رحب بعمله وأثنى عليه بوصفه « روح الطبيعة والحقيقة » يقول في أسى وأسف « إن شاردان رسام ممتاز لمشاهد الحياة اليومية ، ولكنه يذوى ويذبل^(٣٣) » . وكانت لوحات لاتور المرسومة « باليستل » تأخذ بمجامع الألباب في باريس . وفي نعمة المنافسة أخذ شاردان نفسه الطباشير والورق وأدهش لاتور حين أبدع لوحتين باليستل لشخصه . وهما من أعظم الإنتاج جاذبية وروعة واتقاناً وكمالاً في اللوفر . إحداها تمثله في قلنسوة قديمة ضيقة مزدوجة العقد على رأسه ، والعوينات

(النظارة) فى أعلى انفه ، ورباط عنق مربوط بأحكام حول عنقه . وأبرزت الأخرى نفس الزى ونفس الوجه مملوءاً بالدهشة والشخصية ، بالإضافة إلى قناع يظلل عينيه اللتين يشكو فيهما ألماً . وأشهر من هاتين ، لوحة البستل التى أبدعها لزوجته الثانية ، وهى آنذاك فى الثامنة والستين : وجه كريم جميل ، أخرجه بمهارة متسمة بالحب . وتلك هى اللوحة التى يقع عليها اختيارنا لتكون تحفة شاردان ورائعته .

وكانت خاتمة مظفرة لحياة فلة شريفة كريمة . ولسنا فى حاجة إلى تصوير شاردان رجلاً بريئاً من زلات البشر ، فالحق أنه هو نفسه أيضاً ، وقد وخزته أشواك الحياة وأسأت إليه الأحقاد ، كان فى مقدوره أن يقاوم بالانفجار فى الغضب وفى قارص الكلام ، ولكنه لما فارق الحياة فى ١٧٧٩ ، فإن أحداً فى دنيا الفن الباريسى الحاسدة الحاكمة المفترية ، لم يجد كلمة سوء عدائية يقولها فيه . بل إن نظام الحكم المنهار نفسه بدا أنه تحقق من أن شاردان قد كشف بأسلوب فنى لم يزه فيه أحد فى زمانه ، عن فرنسا ، التى هى فرنسا الحقيقية التى لا تزال سليمة بارثة من السقام ، تلك الدنيا المستترة ، دنيا الكد الخالص والولاء للأسرة ، مما يمكن أن يبقى ويعمر — ويساعد فرنسا على البقاء — بعد قرن من الفوضى والثورة . وكما قال ديدرو « كان شاردان أعظم ساحر لدينا » (٣٣) .

٤ — لاتور — ١٧٠٤ — ١٧٨٨

إن نزعات الذوق المتقلبة لا تقدم اليوم لإكيليل الغار فى فن الرسم الفرنسى فى القرن الثامن عشر ، إلى يوشيه أو إلى شاردان ، بل تقدمه إلى موريس كاتنان دى لاتور .

وهو أكثر الشخصيات الثلاث إمتاعاً وتشويقاً ، لأنه مزج رذائله وفضائله باستهتار شيطانى ، وساق العالم المرتعد بأسره إلى زاوية ، وطلب كما فعل ديوجنيس ، إلى ملك أن يبتعد عن طريقه . وكان نزاعاً إلى جمع المال فى جشع شديد ، مغروراً وقحاً متغطرساً ، عدواً لدوداً وصديقاً متقلباً عميقاً مزهواً مثل رجل عجوز يخفى سنى عمره أو يفاخر بها ، وكان أميناً

صريحاً ، بخيلاً ، ومحسناً مسرفاً وساذجاً أنيساً ، وطنياً ملتبهاً حاسه وغيره٩ ،
يحتقر الألقاب ، ومن ثم رفض لقب النبالة الذى عرضه عليه الملك .
ولكن هذا كله لا يتصل بالموضوع ، فإنه كان أعظم رسام فى عصره ،
وأعظم مصور بالبستل فى تاريخ فرنسا .

وجلس لويس الخامس عشر يوماً إلى لاتور ليرسمه ، فاستاء الملك
وجرحت كبرياؤه لكثرة ما ردد الفنان من عبارات المديح والثناء على
الأجانب ، وقال له « ظننت أنك فرنسى » . فأجاب لاتور « لا بامولاي ،
أنا من سانت كاتان فى بيكاردى ^(٣٤) » (مقاطعة فى شمال فرنسا كانت يوماً
جزءاً من الفلاندرز) . انه ولد هناك لأب موسيقار موسر ، أراد له أن
يكون مهندساً ، ولكن الولد آثر أن يكون رساماً ، فأبى الوالد على ذلك ،
وهرب موريس وهو فى الخامسة عشرة إلى باريس ثم ريمس ثم كبرى ،
يرسم اللوحات هنا وهناك ، وفى كبرى دعاه أحد الدبلوماسيين الإنجليز
إلى لندن ضيفاً عليه فيها . وذهب إليها موريس ، وهنا جمع مالا وقضى
وقتها سعيداً مستمتعاً بالحياة ، وعاد إلى باريس وتظاهر بأنه رسام إنجليزى .
وكانت روزاليا كاريرا فى باريس فى عام ١٧٢١ وكان وجهاء القوم ،
إبتداء من الموصى إلى أحدث محدثى الثراء ، يفتشون عن لوحاتها المرسومة
بالبستل . ووجد لاتور أن مثل هذه الرسوم بالأقلام الملونة تلتئم مع مزاجه
القلق ، أكثر من الزيت الذى يحتاج إلى جهد وجلد . وقضى عدة سنين
يحاول ويجرب ويخطئ ، حتى تعلم أن يحقق وينجز بالطباشير ظلالاً ودقة
فى اللون والتعبير مما لم يتسن لأحد من رسامى الأشمخاص فى زمانه أن
يباريه فيها .

وعندما عرض بعض لوحاته فى معرض ١٧٣٧ بدأ رسامو الزيت
يوجسون خيفة من منافسة أقلام البستل لهم . وكانت لوحاته الثلاث المرسومة
بالبستل حديث معرض ١٧٤٠ . وكانت لوحته رئيس مدينة ريو فى رداء
الحاكم الأسود وعباءته الحمراء « هى التى فازت بالجائزة فى معرض ١٧٤١ .
أما لوحته التى رسمها للسفير التركى فقد تكاثرت عليها الجمهور المعجب فى

١٧٤٢ . وسرعان ما طالبت دنيا الأناقة التي تهفو دوماً إلى كل ما هو مستحدث ، بالتحول إلى الطباشير ، وأصبح صدام لاتور مع الملك حدثاً تاريخياً . ذلك أن الفنان بدأ بالاعتراض على الحجرة إلى اختيرت ليجلس الملك فيها أمامه ليرسمه ، لأن الضوء كان ينفذ إليها من كل جانب ، قائلاً « ماذا تتوقع مني أن أفعل في هذه المشكلة ؟ » فأجاب الملك « لقد اخترت هذه الحجرة المنعزلة خصيصاً ، حتى لا يعكر صفونا أحد » . فرد عليه لاتور بقوله « لم أكن يا سيدي أعلم أنك لست سيداً في دارك » . وفي مناسبة أخرى عبر الفنان عن أسفه لأن فرنسا لا تملك أسطولا ضخماً ، فاعترض الملك في خبث « فما بال فرنیه الذي صور مناظر البحر يعجج بالسفن (٣٥) » ولما علم لاتور أن الدوفين أبلغ أنباء مضللة كاذبة عن مسألة معينة ، ابتدره في رفق « وهكذا ترى كيف أنه من السهل على اناس أمثالكم أن يقهوا في حبال المخادعين المخاتلين » (٣٦) .

وعلى الرغم من صراحته اللاذعة للزعجة . منحته الأكاديمية عضويتها الكاملة ١٧٤٦ — التي هي بمثابة شهادة امتياز وتفوق . ولكن في ١٧٤٩ ، نتيجة سعي حثيث من الوسامين بالزيت ، قررت الأكاديمية ألا تقبل مزيداً من رسوم البستل . وفي ١٧٥٣ شكى أحد مصوري اللوحات الزيتية « من أن دي لاتور ارتقى برسم البستل إلى درجة قد تثير النفور من اللوحات الزيتية » ورد لاتوركيد الشاكي في نحره بالخوافز والروائع .

وكان له منافس في البستل ، هو جان بابتست برونو الذي كان يؤثره ليموين وأودري وغيرهما من الأكاديميين على دي لاتور ، فطلب هذا إلى برونو أن يرسمه (لاتور شخصياً) فقبل برونو وأخرج له تحفة رائعة ، وأجزل له دي لاتور الأجر ، ولكنه رسم بعد ذلك نفسه في لوحة من أعظم اللوحات الذاتية المعروفة روعة وإبرازاً للشخصية والذات ودبر مع شاردان أن تعرض اللوحتان كإتاهما جنباً إلى جنب في معرض ١٧٥١ . وأجمع كل الذين شاهدهما ان اللوحة الذاتية تفضل لوحة برونو ، ولا تزال اللوحة الذاتية التي رسمها لاتور لنفسه تبتسم ابتسامة النصر في متحف اللوفر .

وهناك أيضا اللوحة التي تجدى بها بوشيه وهى لوحة البستل الوحيدة التي عرضها ١٧٥٥ . وأفلتت الفرصة منه تقريبا . فحين وجهت إليه الدعوة ليرسم أشهر سيدة فى المملكة أجاب « أرجو أن تتفضلوا بإبلاغ مدام دى بمبادور أننى لا أخرج لأرسم » . وكانت تلك طريقته فى جلب الحظ والمال ، مثل إيقاع الفريسة فى الشرك ، بالتراجع ، وتوسل إليه أصدقائه أن يقبل ، فأرسل كتابا ينبئ بأنه سيحضر ، ولكن سريطة ألا يقطع عليه أحد سير العمل . ولما وصل نزع وقاء حذائه ، وخلع الحذاء ، ونزع شعره المستعار عن رأسه ورقبته (ياقته) وغطى رأسه بقلنسوة حريرية ، ثم بدأ يرسم . وفجأة فتح الباب ودخل الملك . فاحتج لاتور قائلا : لقد وعدتنى يا سيدتى أن يظل الباب مغلقا « فضحك الملك ورجاه أن يستأنف عمله ، ولكنه رفض » يستحيل على أن أطيع جلالكم . سأعود عندما تكون السيدة وحدها . . . لا أحب أن يقاطعنى أحد . فانسحب الملك ، وأكمل الفنان الجلسة ، ومن أشهر صورتين لمدام دى بمبادور ، نجد أن اللوحة التي رسمها لاتور أعمق من تلك التي أنتجها بوشيه ، وأقل اشراقا فى اللون ، واتقاناً فى اللمسات الأخيرة والتفاصيل ، ولكنها أكثر نضجا من حيث التعبير وإبراز الشخصية . ولا ريب أن لاتور رسم المركيزة ، بإيجاز منها ، باعتبارها راعية للفن والموسيقى والأدب والفلسفة ، وعلى أريكة قريبة منها قيثارة ، وفى يدها بعض صفحات موسيقية ، وعلى المنضدة كرة أرضية ، وحقيبة أوراق من نفش يديها ، وقصة فولتير « هنرياد » وكتاب مونتسكيو « روح القوانين » والمجلد الرابع من موسوعة ديدرو .

وعندما فرغ لاتور من اللوحة طلب عليها أجرا قدره ٤٨ ألفا من الجنيهات . وعلى الرغم من تبيذرها واسرافها فإنها رأت أن المبلغ المطلوب مبالغ فيه بعض الشيء ، وأرسلت إليه ٢٤ ألف جنيه ذهبا . وفكر لاتور فى رد المبلغ . فسأله شاردان إذا كان يعرف ثمن اللوحات الموجودة فى فوتردام ، بما فيها روائع برون ولى سير ، وأجاب لاتور سليا . وقدر شاردان جملة تكاليفها بمبلغ ١٢ ألف جنيه . وأعاد لاتور النظر فى تقديره

وقبل المبلغ الذى أرسلته بمبادور (٢٤ ألفا) . إنه ، بصفة عامة كان يطالب بالأجر تبعاً لثروة الجالسين أمامه ، فإذا اعترضوا ردهم خائبين ، وربما كان هناك بعض استثناءات لفولتير وروسو ودالمبرت ، حيث أعجب بالفلاسفة من كل قلبه ، وأقر صراحة بتجرده من الإيمان الدينى .

وربما كانت أجوره المرتفعة سبباً فى اشتداد الطلب عليه من جميع الأنحاء . وعن طريقه عرفنا الشخصيات القيادية فى عصره ، وأصبح قمة فى الرسم بالبستل ، فأبدع لوحات جميلة رائعة للملكة ولولى العهد الصغير ، والدوفين المتظاهر بالرزانة والاحتشام^(٣٨) ، ولا كامارجو راقصة الباليه الأولى ، وحاول أن يرسم لروسو لوحة يبدو فيها لطيفاً عاقلاً حكماً^(٣٩) ، وفى أحد أعماله البالغة الروعة رسم موريس دى ساكس القائد الوسيم المنتصر على الجيوش والسيدات^(٤٠) ، وأبرز فى لوحة رسمها لصديقه الرسام جان رستوت شعلة النشاط ونضارة الحياة فى عينيه^(٤١) . ولبس الخنز والمخرمات والشعر المستعار استعداداً لصورة ذاتية معلقة الآن فى اميان . وعلى الرغم من عاداته الخشنة ونزواته غير المشروعة ، وحالاته النفسية المتقلبة التى لا ضابط لها ، فقد كان موضع الترحيب فى قصور الأرسقراطية ، فى ندوة مسيو دى لا بولنير فى باسى ، وفى صالون مدام جيوفرين . وكان يرتبط بأواصر الصداقة بمشاهير كتاب عصره ، بل حتى بالرسامين والمثاليين الذين نظروا إلى نجاحه بعيون حاسدة - فانتلو ، شاردان ، جريز ، بيجال ، باجو . ومنحه الملك معاشاً إضافياً ومسكناً فى اللوفر . ولا بد أن الرجل كان . فوق كل شيء ، محبوباً .

ولم يتزوج لاتور قط . ولكنه لم يتنقل كثيراً بين أحضان السيدات كما فعل بوشيه وكان له عشيقة ، هى الآنسة فل Mlle Fel التى ساعد غناؤها على تجاح أوبرا روسو « عراف القرية » . وتضايق منها جريم لأنها لم تبادله الحب ، ولكنها أقبلت على لاتور من كل قلبها . وذكر هو لها بالعرفان والشكر كل ما وفرت له من أسباب الراحة والتسلية حتى إنه ظل يشرب نخبها وهو فى الثمانين من عمره . وكان فى إخلاصها له شيء من العزاء

والسلوى حين تقدمت به السن فتصلبت أصابعه وغشى بصره . ودفع ثمن
الرخاء والرغد الذى نعم به وهو فى ذروة المجد . بما لقى من إذلال طال
أمدّه فى سنى شيخوخته واضمحلال صحته . إنه عمر بعد أن تلاشت عبقريته .
وسمع النقد يتمحدثون عنها ، وكأنما أدركها القناء .

وعندما قارب الثمانين ترك مسكنه فى اللوفر ، ليعيش فى الهواء الطلق
فى أوتى Auteuil . وأخيرا عاد إلى مسقط رأسه . واستقبلت سانت كاتنان
ابنها السمخى المبذر بطلقات المدافع وذق النواقيس والهاثافات الشعبية . وعمر
فى هذه البلدة الهادئة أربع سنوات أخرى وذبل عقله النشيط إلى مس خفيف
غير مؤذ من الجنون ، فأصبح يتمم بشيء من فلسفة وحدة الوجود
(الله والطبيعة شيء واحد ، والكون المادى الإنسان مظاهر للذات الإلهية) ،
ويعبد الله والشمس معا ، ويحلم بالثورة مؤملا فى قيامها . وفازق الحياة
قبل قيامها بعام واحد . وقبل أيدي خدمه وهو فى النزع الأخير .

الفصل العاشر

نشاط الذهن

١ - صناعة الكلام

الآن أصبحت اللغة الفرنسية هي اللغة الثانية لكل متعلم ومثقف في أوروبا ، وواسطة الاتصال والتفاهم المعترف بها في الدبلوماسية العالمية ، وكان فردريك الأكبر يستعملها بانتظام ، اللهم إلا في التحدث إلى قواته . وألف جيبون أول كتاب له باللغة الفرنسية ، واتجه تفكيره لبعض الوقت إلى أن يكتب بها مؤلفه المعروف « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » . وفي ١٧٨٤ أعلنت الأكاديمية الألمانية عن مسابقة ذات جائزة لمن يكتب أحسن موضوع يوضح أسباب هذا التفوق والتبريز ، ونشرت مطبوعاتها بالفرنسية . وكانت الأسباب الرئيسية لهذا التفوق هو المنزلة السياسية السامية لفرنسا في عهد لويس الرابع عشر ونشر القوات الفرنسية للغتهم في الأراضي الوطيدة وألمانيا والنمسا وإسبانيا ، وعلو مكانة الأدب الفرنسي في القارة ، بشكل لا نزاع فيه (وقد يكون لإنجلترا تحفظات على هذا) ، وشعبية المجتمع الباريسي بوصفه مدرسة للدراسات الثقافية والنشاط الاجتماعي ، تنهل منها النخبة الممتازة في أوروبا ، ثم الرغبة في إحلال لغة أحدث وأكثر مرونة محل اللغة اللاتينية في علاقات الأمم بعضها ببعض ، وقيام الأكاديمية الفرنسية بتنقية اللغة وتقسيمها عن طريق قاموسها ، ولم تصل قط لغة وطنية أخرى ما بلغتة الفرنسية من دقة وتنوع ، ومن قوة وسحر في العبارة ، ورشاقة ووضوح في الأسلوب . وكان ثمة بعض الحسارة في هذا الانتصار : ذلك أن النثر الفرنسي ضحى بالصراحة البريئة عند مونتاني والحوية الدافقة القاسية الصادرة عن القلب عند رابليه . وأصاب الشعر الفرنسي الوهن والضعف في سجن القواعد التي وضعها بوالو ،

وانزلت الأكاديمية نفسها — حتى أيقظها ديكلوس بعد انتخابه ١٧٤٦ — إلى شكليات غامضة وضالة مبعثها الجبن والحذر .

وكانت حرية الفكر والكلام النسبية في عهد الوصاية الخطير قد شجعت على مضاعفة عدد المؤلفين والناشرين والمكتبات . واندس من يطبعون وينشرون ويبيعون الكتب في كل مكان ، حتى على الرغم من أنه يتقدم القرن ، أصبحت هذه التجارة خاسرة ، وكان في باريس وحدها منهم ٣٦٠ كلهم تقريباً فقراء معدمون . وانتشرت المكتبات في كثير من المدن ، وكان في بعضها حجرات للمطالعة مفتوحة للجواهر ، نظير رسم دخول ضئيل (٤٠ سو) وقل أن كان التأليف مهنة كافية لكسب القوت ، ولذلك كانت تكمل عادة بعمل آخر ، فكان كريبيون الأكبر كاتباً لدى موثق عقود ، وكان روسو ينسخ الموسيقى . واستطاع نفر قليل من مشاهير الكتاب أن يبيعوا إنتاجهم لقاء ثمن عال . ولما أعسر موريفو بسبب انهيار نظام لو ، استطاع أن يصلح ماليته ويسترد ثروته برواياته ومسرحيته « ماريان » : وقبض روسو ، وهو عادة فقير ، خمسة آلاف جنيه عن كتابه « اميل » . وكان حق الطبع القانوني الوحيد هو الترخيص الملكي بالنشر وكان في هذا حاية للمؤلف من السطو على كتابه في فرنسا ، ولكن ليس من السطو عليه وطبعه خارجها ، وكان هذا الترخيص يمنح لمن يكفل المراقبون الرسميون خلو كتابه مما يسيئ إلى الكنيسة أو الدولة . وكان يمكن للأفكار الجديدة أن تتخطى هذه العقبة باخفاء مادة الكتاب أو الهرطقة في أسلوب مقنع . فإذا لم تنجح هذه الخدعة ، فقد يعمد المؤلفين إلى إرسال المخطوط إلى امستردام أو جنيف ، أو أية مدينة أجنبية أخرى ، ليطلع هناك بالفرنسية ويوزع في الخارج ، ويتداول سرا في فرنسا .

وأدى اتساع الطبقة الوسطى وانتشار التعليم وتجمع المفكرين في باريس إلى خلق جمهور متلهف على الكتب ، ونهضت مجموعة كبيرة من المؤلفين لتلبية هذا المطلب وإشباع هذه الرغبة . وأثاؤ وضعف الدولة في عهد لويس

الخامس عشر وانهيار الإيمان الدينى ، المناقشات الشفوية والخطية فى المسائل السياسية والفلسفية . وإذ كرهت الأرستقراطية تلك الملكية التى حدثت من سلطتها ، كما كرهت الكنيسة التى كانت تساند الملكية ، فإنها استمعت بأذان صاغية ذات مصلحة إلى نقد الحكومة والعقيدة كلتيهما ، وانضمت الطبقة المتوسطة العليا إلى الأرستقراطية فى اصغائها لهذا النقد ، أملا فى تغيير يحقق لها المساواة الاجتماعية مع طبقة النبلاء .

وفى هذا الجو الجديد حقق المؤلفون والكتاب مكانة قلما تيسرت لهم قبل القرن الثامن عشر أو بعده . وقبولوا بالترحيب فى الصالونات حيث تحدثوا وأبدوا آراءهم بكل ما أوتوا من فصاحة وبيان . واستقبلوا فى قصور ذوى الألقاب ما داموا لم يجرحوا كبرياءهم أو يسيثوا إليهم . وكان أصحاب المال يستضيفونهم ويكرمون وفادتهم ، وفى بعض الأحيان يسكنونهم فى قصورهم ، مثل ما فعل بويلنيير ، وأصبحوا برغم فقرهم قوة فى الدولة . قال ديكلوس فى ١٧٥١ « إن امبراطورية رجال الفكر ، من بين كل الامبراطوريات ، أوسعها امتدادا ، دون أن تكون مرئية . إن أصحاب السلطة يأمررون ، ولكن رجال الفكر يحكمون . وعلى المدى البعيد . . . إن عاجلا أو آجلا ، سيمتثل رأى العام على أى شكل من أشكال الاستبداد والحكم المطلق أو يغلبه »^(١) (وفى ١٧٥١ لم يكن قد تم التوصل بعد إلى الأسلوب الذى يتحقق به تشكيل رأى العام تشكيلا محكما بالمال أو عن طريق الحكومة) .

وإذا رحب جمهور متزايد بالكتاب الفرنسيين ، وحفزهم ماثات المتنافسين اليقظين ، وحررهم ضعف العقيدة ، واستمحتهم زهو الطباعة وخيالاتها ، فلأنهم دفعوا إلى المطبعة بسيل من الرسائل والنشرات والأبحاث والنقد اللاذع والمقالات والمذكرات ، والتاريخ والقصص والمسرحيات والقصائد والأبحاث الدينية والفلسفية ، والكتابات الإباحية الداعرة والأدب المكشوب ، مما حطم كل اغلال الرقابة وقيودها ، واكتسح كل مقاومة ، وغير عقل فرنسا وعقيدتها وحكومتها بل إلى حد ما عقل العالم وعقيدته

وحكوماته . ولم يحدث قط ان وجد في الأدب من قبل مثل هذا الذكاء الحاد أو المزاج الرقيق أو هذا التهريج الماجن أو هذا السخف المهلك ، وتصدعت كل القواعد التقليدية في الكنيسة والدولة تحت ضغط الهجمات التي شنتها تلك الأقلام الحادة ، المسمومة أحيانا ، المغمورة أو المجهولة عادة .

إن الرسائل الخاصة نفسها أصبحت قناعاً شائعاً . فما من سيدة أو رجل إلا نفع رسائله وأعاد كتابتها وصقلها وتأنق فيها أملاً في أن يطالعها أكثر من الشخص الذي أرسلت إليه فتتألق أمام العيون وتكون متعة لقارئها ، كذلك نجحوا أحيانا في أن تكون رسائلهم « كتابات ممتازة » أى قطعاً من الأدب . وبسبب جهم للحديث والمناقشة فإنهم تحدثوا على الورق إلى الأصدقاء أو الأعداء الغائبين عنهم ، بشكل طبيعي وكأنما يخاطبونهم وجهاً لوجه ، وبكل الحماسة والحيوية اللتين تدور بهما أحاديثهم حول المائدة في الصالونات . ولم تكن تلك الرسائل تتضمن مجرد توافه الأخبار الشخصية ، بل كانت في معظم الأحوال نقاشاً في السياسة والأدب والفن ، وكانت في بعض الأحيان نثراً - لغة المجتمع - يزخر بالسجع الذي كثيراً ما يأتي عفواً للخاطر في الفرنسية ، مع أكبر الأمل في إطراء القارئ لها ، وهكذا كان فولتير يدخل السرور على قلوب أصدقائه بسلسلة القصائد التي يبعث بها إليهم ، مما كانت تفيض به قريحته الوقادة وفنه الرشيق .

وآذن عصر الخطابة بزوال ، لأن فرنسا القرن الثامن عشر خشيت أن يتولاها السأم والضجر حتى لو استمعت إلى بوسويه آخر (أسقف وخطيب واعظ في القرن السابع عشر) . ولكن الخطابة ستعود مع قيام الثورة . وكانت كتابة « المذكرات » لا تزال سائدة ، لأنها باعتبارها رسائل إلى الأعقاب والأجيال القادمة . احتفظت بشيء من سحر المكاتبات وفتنتها . وفي نهاية الحقبة ، في ١٧٥٥ وصلت إلى المطبعة مذكرات البارونة مدام دي ستال دي لوني التي كانت قد فارقت الحياة ١٧٥٠ ، وقد أعادت هذه المذكرات إلى الأذهان ذكريات عهد الوصاية وأمسيات دي سكو . وهنا كما يقول جريم ، كانت سيدة نافست فولتير نفسه بامتيازها وبراعتها في النثر (٢) .

٢ - المسرح

تفوقت المسارح على الصالونات من حيث المكانة التي احتلتها في باريس ، وما حظيت به من حب وإقبال بين الباريسيين . ويقول فولتير لمارمونتيل : « إن المسرح أعظم مهنة سحرا وفتنة ، ففيه يكسب المرء بين عشية وضحاها جاها ومالا ، وإن رواية واحدة ناجحة تأتي لصاحبها بالثروة والشهرة » (٣) . وكانت هناك في الأقاليم مسارح لا بأس بها ، وكان ثمة تمثيل مسرحي خاص في بيوت الأغنياء ، بعض المسرحيات أمام الملك والحاشية في فرساي . ولكن التحمس للروايات في باريس بلغ حد الجنون والحمى والجدل والشجار أو الابتهاج والسرور . واحتفظت « الكويميدى فرنسيز » في « المسرح الفرنسي » بأعلى الدرجات في الموضوع والأداء ، ولكن الجواهر الفقيرة كانت تقصد إلى « مسرح الإيطاليين » ومسرح « الأوبرا كوميك » . .

وثألفت كل هذه المسارح ، ودار الأوبرا في « الباليه رويال » من قطاعات فسيحة بها عدة صفوف من المقصورات والمقاعد للقلة التي يفوح منها شذا العطر ، أما جمهور المشاهدين الأقل تهرجا وإثراء فكانوا يقفون تحت الشرفات الداخلية ، (على الأرض) التي نسميها خطأ . « الأوركستر » ولم توضع فيها مقاعد حتى جاءت الثورة . وكان نحو ١٥٠ من المتحمسين المتأنقين الذين يدفعون أجراً أكبر ، يجلسون على خشبة المسرح ، يحيطون بالمثلين من ثلاثة جوانب . وقد استنكر فولتير هذه العادة ، لأن هذا كان يعوق الممثلين ويفسد المنظر . « لما كانت معظم رواياتنا لا تعدو أن تكون حواراً طويلاً ، فإن التمثيل المسرحي لا يكون له وجود ، أو إذ وجد بداً سيخفاً » (٤) وتساءل كيف يتسنى لممثل مسرحي أن يمثل على مثل هذا المسرح مشهد بروتس ثم أنطوني وهما يخطبان في أهل رومه بعد قتل قيصر ؟ وكيف يمكن « للروح » المسكين في هملت أن يسترق النظر من خلال هذه الهياكل العظيمة المتمتعة بامتياز الجلوس على خشبة المسرح ؟ إنه ليكاد يكون من المتعذر تمثيل أى من روايات شكسبير في مثل هذه الظروف (٥) وكان لاعتراضات فولتير القوية ، التي أيدها فيها ديدرو وغيره ، أثرها فإذ وافق عام ١٧٥٩ حتى كانت خشبة المسرح في فرنسا قد أخلت من المتفرجين .

ولمى فولتير نجاحا أقل في حملاته لتحسين الوضع الدينى للممثلين : وكانت مكانتهم الاجتماعية قد تحسنت ، فكانوا يترددون على دور الأرستقراطية ، وفى كثير من الأحيان كانوا يمثلون بناء على طلب الملك . ولكن الكنيسة استمرت فى اتهامها للمسرح بأنه مدرسة للفساد والفضائح والأعمال الخزية ، وذهبت إلى أن كل الممثلين بطبيعة الحال محرومون من الكنيسة ، وحرمت دفنهم فى الأرض المخصصة للمؤمنين - وهى تشمل كل المقابر فى باريس وأشار فولتير إلى هذا التناقض :

إن الممثلين يتقاضون أجورا من الملك ، فى الوقت الذى نحرهم فيه الكنيسة . ويصدر إليهم أمر الملك بالتمثيل كل مساء ، بينما تحظر عليهم الديانة أن يمثلوا إطلاقا ، وإذا امتنعوا عن التمثيل زج بهم فى السجن (كما حدث عند ما أضرب ممثلو جلالته عن العمل) فإذا مثلوا ألقى بهم (عند موتهم) فى البالوعات . إننا نبتهج ونسر بهم ، ونعترض على دفنهم معنا ، وفرحب بهم على موائدنا بينما نغلق أبواب مقابرنا دونهم (١) .

وكانت أدريين ليكوفريز أعظم الممثلات الفرنسيات فى زمانها مثلا واضحا لهذه المتناقضات فى حياتها ومماتها . إنها ولدت فى ١٦٩٢ قرب قرب ريمس وجاءت إلى باريس فى العاشرة من عمرها ، وأقامت قرب « المسرح الفرنسى » وكثيراً ما شقت طريقها إليه ، ثم قلدت فى البيت الممثلات اللاتي أعجبت بهن وهى واقفة على أرض المسرح تحت الشرفات . وفى سن الرابعة عشرة نظمت فرقة من الهواة قاموا بالتمثيل على مسارح خاصة . وأعطاهما الممثل « لى جراند » دروسا ، وهىأ لها مكاناً فى فرقة تمثل فى ستراسبورج . وقامت بالتمثيل فى الأقاليم لعدة سنوات ، كما فعل موليير ، وانتقلت من دور إلى دور ، ومن قصة غرام إلى أخرى دون ريب . وهفت نفسها إلى الحب ، فلم تصادف إلا الداعرين الفجرة ، وتركها اثنان منها على التعاقب حاملا ، ورفضا الزواج منها . وفى سن

الثامنة عشرة وضعت بنتا . وفي الرابعة والعشرين وضعت بنتا أخرى .
وفي ١٧١٥ عادت إلى باريس ، والتقى بها هناك فولتير الشاب ، وكان لها
لبعض الوقت أكثر من صديق^(٧) . وفي ١٧١٧ أصبحت السيدة الأولى
في « المسرح الفرنسي » الذي كان مأواها ومبعث إلهامها في شبابها .

ولم تكن مثل معظم الممثلات الشهيرات بارعة الجمال ، بل كانت
بدينة ، وكانت قسما وجهها غير متناسقة ، ولكنها تميزت برقة تفوق
الوصف في جلستها ووقفها وحركتها وعاداتها ، وموسيقى مغرية في صوتها ،
وبريق من الشرر والإحساس في عينها السمراوين ، وتعبير متحرك كريم
في وجهها . وكان كل تصرف منها يعبر عن شخصيتها . ورفضت أن تنبع
الأسلوب الخطابي الذي كان قد أصبح تقليدا سائدا في التمثيل في فرنسا في
المسرح الطويل المستطيل الشكل في المسارح القديمة . وعقدت العزم على أن
تمثل دورها وتنطلق بعباراتها على خشبة المسرح كما تتحدث في الحياة
الواقعية ، اللهم إلا في إخراج الحروف من مخارجها والإبانة في اللفظ ،
ورفع درجة الصوت ، مما هو مطلوب لنقل كلماتها إلى أبعد مكان يوجد
فيه الجمهور . إنها في فترة عملها القصيرة حققت ثورة أو انقلابا في فن
التمثيل المسرحي . وتحقق هذا أيضا في عمق شعورها ، وقدرتها على نقل
انفعالات الحب أو رفته ، وكل العطف أو الرعب في أي مشهد مأساوي .
وتفوقت في الفن الشاق ، فن الاصغاء المعبر اليقظ حين يتكلم الآخرون .

وامتدحها الشيب ، أما الشبان فقد وقعوا في غرامها . وهام بحبها
الشاب شارل أوجسطين دي قريول كونت أرجنتال الذي كان مقدرا أن
يصبح « ممولا ومدعما بنقوده » لفولتير ووكيلا له ، وجزعت والدته شارل
لهذا خشية أن يعرض على أدرين الزواج فتقبل ، فأقسمت الأم أن تبعث
بولدها إلى المستعمرات ، وعندما سمعت الممثلة بهذا أرسلت إلى مدام
دي قريول (٢٢ مارس ١٧٢١) تؤكد لها أنه لن تشجع الشاب على
الاتصال بها أو تبادل الرسائل معها : « سأكتب إليه بأى شيء يرضيك .
ولن أراه بعد الآن إذا كنت ترغبين في ذلك . ولكن لا تهدديه بإرساله

إلى أقصى الأرض . وسيعمل كل ما يبعث في قلبك الرضا والارتياح ،
ويضفي عليك الشهرة والمجد ، وما عليك إلا أن ترجى موافقه وقدراته
وتنمى فضائله لتؤتى ثمارها^(٨) .

وكانت آدرين على حق ، فإن دارجنتال فاز بعضوية برلمان باريس ،
وفي سن الخامسة والثمانين ، حين كان يقلب النظر في الأوراق التي تركتها
والدته ، عثر على هذه الرسالة التي لم يكن يعرف عنها شيئا من قبل .
واستمتعت آدرين بدورها بنشوة الحب كما عانت من الهجران
والصدود . وكان الأمير الشاب موريس السكسوني كثيرا ما يتردد على
المسرح الذي تعمل فيه ، ولم يكن بعد قد انتفخت أوداجه زهوا بانتصاراته ،
ولكنه كان وسيما عاطفيا خياليا حتى أنه عندما أقسم على الاخلاص والولاء
لها مدى حياته ظنته فارس أحلامها الذي طال انتظارها له ، وإذا وصل
الأمر بالرجال إلى الوعد بالاخلاص مدى الحياة ، فانهم يحبون ويموتون
عدة مرات مثل القبط (بسبع أرواح) . ورضيت به عشيقا (١٧٢١) ،
وعاشا لفترة من الزمن يرشقان كؤوس المحبة والاخلاص إلى حد أن باريس
قارنتهما بقمريات لافونتين الحبيبات . ولكن الجندي الشاب الذي أصبح لتوه
« قائد المعسكر » راوده الحلم بأن يكون ملكا ، وقد رأيناه يسارع إلى
كورلند (جزء من لتقيا الحالية) طمعا في الحصول على التاج فيها ، وكان
نصف الأموال التي حملها معه من مدخرات آدرين .

فتسلت عن فراقه بتأسيس « صالون » في بيتها . ولم يكن غير ذي عائد
فكرى لها إنها كانت قد تعلمت رشاقة راسبين وأفكار مولير ، حتى أصبحت
من خيرة سيدات فرنسا ثقافة وعلماء ، ولم يكن أصدقاؤها من المعجبين
العابرين . ولكنهم رجال ونساء أحبوا عقلها . فقصد فونزيل وفولتير
ودارجنتال والكونت دي كايوس بانتظام إلى دارها لتناول العشاء ، ووجد
بعض السيدات الأنقيات من ذوات الألقاب والاحساب متعة في الانضمام إلى
هذه الجماعة المتألقة .

وفي ١٧٢٨ عاد الجندي الذي لم يواته الحظ ولم يتحقق أمله إلى باريس .

وكان البعاد قد خفف من لوعة حبه . وتبين أن آدرين كانت تكبره آنذاك بأربعة أعوام حيث كانت في السادسة والثلاثين وعرض كثير من السيدات الثريات أن يشاركه مضجعه ، وكان الدم الملصق يجرى في عروق إحداهن مثله تقريبا ، وهى لويزدى لورين دوقه بويون حفيذة بطل بولنده النبيل جان سويسكى ، وكانت تختال في جرأة أمام موريس في مقصورتها في المسرح الفرنسى ، إلى حد أن آدرين ولت وجهها شطر هذه المقصورة ، حين كانت تلقى في شيء من التوكيد بعض أبيات غاضبة من رواية راسين « Phedre » « لست واحدة من هؤلاء السيدات الوقحات اللاتي تعلمن ، وهن يلقين ظلالات من الجريئة على مظهر الوثام الهادىء الوداع ، إن يكن صفيقات إلى حد لا يستشعرن معه الخجل من سوء تصرفهن » (٩) .

وفى يولييه ١٧٢٩ أبلغ سيمون بوريه ، القسيس رسام المنمنمات الآنسة ليكفرير أن رسولين مقنعين من إحدى سيدات البلاط عرضا عليه أن يعطى الممثلة بعض أقراص السم لقاء ٦٦٠٠ جنيه إذا قام بالمهمة . فأخطرت آدرين الشرطة بذلك . فقبضوا على القسيس وأجروا معه تحقيقاً دقيقاً . ولكنه صمم على أقواله . وكتبت آدرين إلى مدير الشرطة رسالة رائعة تطلب منه إطلاق سراح القسيس : « إنى تحدثت إليه ، وجعلته يتحدث إلى كثير لوقت طويل ، وأجاب دائماً إجابات محكمة ذكية ، ليس لأنى أرغب في أن يكون ما قال صحيحاً . فإن لدى مزيداً من الأسباب التى تحملنى على أن أتمنى أن يكون مخبولا . آه : أليس إلى الله وحده أتوسل ان يغفر له ؟ ولكن إذا كان بريثا فأرجو أن تفكر يا سيدى إلى أى حد يجدر بى أن أهتم بمصيره . لا تلقى بالا إلى مهنتى أو مولدى وأصلى ، ولكن حاول متفضلا أن تستشف حقيقة نفسى التى بين جنبي ، وكى هى صادقة مخلصه ، وقد كشفت لك عن سريرتها . بجلاء ووضوح فى كتابى هذا (١٠) .

وأمر الدوق دى بويون على أية حال ، على احتجاز القسيس ، ثم أفرج عنه بعد بضعة شهور ، وظل مصرا على أقواله . ولنا ندرى حتى يومنا هذا مبلغ صدق روايته .

وفى فبراير ١٧٣٠ بدأت الآنسة ليكوفريير تعاني من إسهال يزداد سوءاً يوماً بعد يوم . وظلت تمثل أدوارها على المسرح ، ولكن فى أوائل مارس . حاولها من المسرح مغنى عليها . وفى ١٥ مارس مثلت ، وهى تلتقط آخر أنفاسها « جوكاست » فى رواية فولتير « أوديت » وفى يوم ١٧ مارس لزمّت الفراش ، وصارت تنزف نزيفاً مميتاً من أمعائها ، ولم يعد الماريشال يزورها ، ولكن فولتير ودارجنتال فقط هما اللذان سهرّا على العناية بها فى هذه اللحظات الفاجعة المذلة ، وفاضت روحها فى ٢٠ مارس بين ذراعى فولتير .

وحيث كانت آدريين قد رفضت الشعائر الأخيرة للكنيسة (١١) . فإن القانون الكنسى حرم دفنها فى الأرض المخصصة للمؤمنين ، واستأجر أحد الأصدقاء اثنين من حملة المشاعل ليحملها جثمانها فى عربة أجرة لدفنه سرا على ضفاف السين ، فيما أصبح فيما بعد شارع بورجون . (فى نفس العام ١٧٣٠ دفنت الممثلة الانجليزية آن أولدويلد باحتفال عام فى كنيسة وستمنستر .) وفى ١٧٣٠ نظم فولتير قصيدة (موت الآنسة ليكوفريير يستنكر فيها المعاملة المهينة فى دفنها بهذه الطريقة : « تأثرت كل القلوب ، مثل قاي ، بالأسى والفجيعة . وإنى لأسمع كل الفنون الذاهلة تولول من حولى ، وهى تدرف الدمع . ان ملبومين (ربة المأساة) قضت نجبها ، ماذا عساكم تقولون أيها الأعقاب رجال الغد إذا علمتم بهذا الأذى الأليم المدمر الذى ألحقه أناس قساة بقلوب بهذه الفنون البائسة التى تخلى عنها أصدقاؤها ؟ لقد حرموا من الدفن من إذا كانت فى اليونان القديمة لأقاموا لها مذبحاً فى الهيكل . لقد رأيتم يقصدونها ويزدحون حولها . إنها لا تكاد تموت متى تصبح محرمة ، لقد سحرت ألباب العالم ، ثم ها أنتم تعاقبونها ، كلا ، لن تكون هذه الضفاف بعد الآن دنسة ، إنها تضم رفائك ، وستكون هذه المقبرة الحزينة معبداً جديداً لنا ، نمجده فى ترانيمنا ، وتصفى عليه ظلالك قلسية » .

فى ١٨٤٩ أخرج يوجين سكريب و أرنست ليجوفيه فى باريس مسرحيتهما الناجحة غير الدقيقة . تماماً « آدريين ليكوفريير » . . فى ١٩٠٣ ألف فرانسكو سيليا أوبرا فى نفس الموضوع .

وكان أعظم كاتب مسرحى فى ذلك العصر ، بطبيعة الحال ، فولتير . وكان له منافسون كثيرون ، من بينهم بروسبر جولتون دى كريبون ؛ وهو معمر عجوز كان ينبغى له أن يفارق الحياة منذ أمد طويل . وكان كريبون قد أنتج فيما بين عامى ١٧٠٥ و ١٧١١ روايات ناجحة ثم اقتنع بالفشل المحتوم لروايته « اجزرسيس » ١٧١٤ ، وهنا كانت نهايته ، وكان قد انقطع عن التأليف ، وبات يعانى الفقر ، ويجد بعض السلوى فى مسكن على السطح مع مجموعة لطيفة من عشر كلاب وخسة عشر قطا وبعض الغرايبب السود . وفى ١٧٤٥ أنقذته مدام دى بمبادور بمعاش ووظيفة عاطلة (يقبض راتبا ولا يؤدى عملا) ، واتخذت التدابير الطيع مجموعة أعماله فى مطبعة الحكومة . وقصد إلى فرساي ليقدم لها الشكر . ولما كانت هى مريضة ، فقد استقبلته وهى ملازمة الفراش ، فلما انحى ليقبل يدها دخل لويس الخامس عشر ، فصاح ابن السبعين « مولائى ، لقد وقعت الكارثة ، إن الملك فاجأنا معا » (١٢) . وسر الماك برمضة الذكاء وسرعة البديهة وانضم إلى بمبادور فى حته على إكمال روايته « كاتيلين وكان قد أهملها وشهدتها مدام بمبادور والحاشية ، ونال العرض الأول الاستحسان (١٧٤٨) . واهتز كريبون طوبا من جديد لما أصاب من شهرة ومال . وفى ١٧٥٤ وهو فى الثمانين أخرج آخر رواياته . وعمر بعد ذلك ثمان سنين ، سعيدا بحيواناته ، ولم يطب فولتير نفسا بظهور منافس له من بين القبور ، ولكن كان عليه أيضا أن يواجه فى الملهاة منافسه ماريغو المتعدد الجوانب الشديد الانفعال إن بيير كارل دى شمبلين دى ماريغو أصبح هجاءا حين رأى بمحض الصدفة ، حبيبته ذات السبعة عشر ربيعا تطبق عمليا مفاتها المغرية أمام المرأة . ودق قلبه مؤقتا فقط ، لأن والده كان المدير الثرى لدارسك النقود فى ريوم ، وكلم من شابه أو غادة تاقت نفسها لتكون زوجة بيير . وتزوج من أجل الحب ، وأدهش باريس حين عاش حياة جنسية طابعتها الرصابة والاعتدال . وانضم إلى صالون مدام دى تنسان (١٣) ، وربما تعلم فيه الدعابة المرحية ، والعبارة الرشيقة والإحساس الرقيق ، وانتقل كل أولئك إلى رواياته ، وتميزت به مسرحياته .

وأول نجاح لإصابة ماريغو هو رواية « آريكان يصقله الحب » التي عرضت لمدة اثنتا عشرة ليلة متوالية على « مسرح الايطاليين » ١٧٢٠ . وبقدر ما كان يحصل عليه من أجور ، فقد معظم أمواله عند انهيار بنك لو . ويروى إنه اسرّد ثروته بقلمه (١٣) ، حيث كتب سلسلة من رواياته الملهاة (السكوميديا) أمتعت باريس بمرحها اللطيف وحبكات البارة ، وأشهرها « لعبة الحب والحظ » . وقد هاجمت اعتزام زوجين (أربعة أشخاص ، رجلان وامرأتان) اعتزاما متزامنا ، ولكن غير متفق عليه ، أن يختبرا اخلاص الخطيب الذي لم تقع عليه العين بعد ، عن طريق تبادل الزى والشكل بين سيد وخادم وسيدة وخادمة ، في سلسلة من المصادفات السخيفة المضحكة ، مثل منديل ديدمونة (في رواية عطيل) . وسر نساء باريس أكثر مما سر رجالها بالمآزق التي يتورط فيها الحب في هذه الرواية وبما فيها من عاطفة رقيقة . وهنا أيضا كما هو الحال في قصر قرساي ، وفي اللصالونات ، وعند واتو وبوشيه ، تحكمت المرأة ، وكان لها القول الفصل ، وحل تحليل المشاعر محل مشاكل السياسة وبطولات الحرب ، وتحلت الملهاة الرجولية عند مولير عن مكانها أمام الملهاة الانثوية التي سيطرت على المسرح الفرنسي (معترضة الطريق) إلى أيام سكرياب وديماس الابن وساردو .

٣ — القصة الفرنسية

إن ماريغو هذا هو نفسه الذي أضفى على القصة في فرنسا شكلا جديدا . وفي ١٧٣١ أصدر الجزء الأول من « حياة ماريان » . وتقبلها القراء قبولا حسنا . واستمر يقدم أجزاء أخرى حتى عام ١٧٤١ ، حتى بلغت أحد عشر جزءاً ، ولم يكملها (ولو أنه عمر حتى عام ١٧٦٣) ، لأن هدفه لم يكن أن يقص حكاية بقدر ما كان أن يحلل شخصية ، وبالذات شخصية المرأة ، وبصفة خاصة في الحب . ولم يكن ثمة شيء رائع أخاذ أكثر من المشهد الافتتاحي ، عصابة من اللصوص تسطو على مركبة للبريد والمسافرين ، وتقتل كل من فيها ، باستثناء ماريان التي عاشت لتقص القصة في شيخوختها .

وتحتفظ البطلة والمفروض أنها مؤلفة القصة . بعدم ذكر اسمها ، وهذا عمل كيدى ، إلى النهاية . وتعمل المخطوطة إلى صديق لها مع تحذيره « لا تنس أنك وعدتني ألا تبوح باسمي أبدا ، أنا أو د ألا يعرفني أحد إلا أنت . » (١٤)

ولما كان أبوها من بين الضحايا . فقد نوى تربيتها رجل برجوازي محسن كريم . حتى أصبحت بائعة في محل لبيع ملابس النساء . وازدادت فتنة وجمالا إلى حد أنار مسيوى كليمال . وسار يقدم لها هدايا صغيرة ثم هدايا ثمينة ، وأخيرا طلب يدها جراه ما قدم . ولكنها رفضته . وأعدت إليه هداياه بعد ترددات يصفها ماريغو في ذكاء لطيف . وكان جديرا بنا أن نقول إنها في نفس الوقت كانت قد التقت بابن أخى كليمال . وهو مسيوى فالليل ، الذى كان أقل من عمه مالا وأصغر سنا . ومهما يكن من أمر فلان فالليل يترك ماريان معلقة . لما يقرب من ألف صفحة . وينصرف إلى سيده أخرى . وهنا ختام قصة ماريغو .

تلك هى القصة النفسية في فرنسا القرن الثامن عشر . التى لم تنافسها إلا قصة « اتصالات خطيرة » التى كتبها كودرلوس دى لا كلوس (١٧٨٢) . إنها أعادت إلى الأذهان قصة مدام دى لا فاييت « الأميرة دى كليف » (١٦٧٨) ، ولو إنها تكاد لا تعادلهما في رقة الشعور وجمال الأسلوب ، ولكن بزتها في تحليل الدافع والعاطفة ، وهما نجد امرأة ، مثل بامبلا عند ريتشاردسن ، تحتفظ بشرتها لأهميته في سوق الزواج ، إنها تدرك أنه ليس لدى المرأة إلا قيم هزيلة فانية . لتقدمها تأييدا لأسادية الزواج للرجل الذى يتجه إلى تعدد الزوجات . وتلك صورة « آخر نهدينا من الصورة التى أخرجها ريتشاردسن . الذى بدأ قصة بامبلا بعد تسع سنين من ما بان وربما تأثر بها . وفي مقابل ذلك نجد أن قصة ريتشاردسن « كلاويس » (١٧٤٧) ساعدت روسوفى « هلواز الجديدة » .

وعكس ماريغو خلق الطبقة المتوسطة القوي الجديد . على حين أولع كريبون الابن بفسق الأرستقراطية وفجورها الطائش . وكانوا يطلقون

عليه كرييون المرح « تميزا له عن أبيه » كرييون المكتتب « (الذى قال عن ابنه إنه أسوأ إنتاجه الكبير) . نشأ كلود بروسيرجولبوت دى كرييون فى باريس فى عصر الوصاية الذى رجحت أخلاقه التعليم الجزويى الذى تلقاه كلود ، ولعدة سنين شارك أباه سكنه فوق السطح وغربانه وكلايه وقططه . وفى ١٧٣٤ وهو فى السابعة والعشرين اشهرته قصته « المنزلق على السطح » . ومن الجائز أن يكون هذا لقب كل أبطاله وعنوان كل كتبه ، لأن الحب فيها — كما قال شامفورت — هو مجرد « ملامسة سطحين »^(١٥) . ووقعت أحداث القصة فى اليابان ، ولكنها كانت نقداً لاذعاً أو هجاءاً صريحاً للكنيسة والدولة فى فرنسا ، والدوقة دى مين الصغيرة (الفتاة الجميلة) ، إلى حد أن الكاردينال فليرى أبعد الكاتب — كلود كرييون — عن باريس لمدة خمس سنوات .

ولما عاد المؤلف أصدر فى ١٧٤٠ اسوأ رواياته سمعة « الأريكة » ، وقد أبعد من أجلها أيضا ولكن لمدة أقصر . ووقعت الأحداث فى « أجرا » ولكن الأخلاقيات كانت باريسية . إن السلطان تولاه الضجر والسأم ، ويريد قصصا يسرى عنه . ويتفضل رجل الحاشية الشاب أمانزى ، فيروى كيف أنه تجسد فيما مضى من الزمان على هيئة أريكة ، ويعود بذكرته إلى بعض الخطايا التى ابتلى بها زيرك الأريكة . وتعاقت أحداث الزنى فى تفصيل متزايد . ووجد كرييون متعة بالغة فى قصته (Almohid and Mochles) وهما بعد أن أطنيا فى التفاخر بعفتها وطهارتهما ، يعترفان بأن أفكارهما غير عفيفة مثل سلوك سائر البشر ، ويخلصان إلى أنه لا يمكن أن يكون فى الفعل إثم أكبر منه فى التفكير ، ومن ثم فانهما يروئمان بين الفعل والقول . وتلك ، على أية حال ، استثنائية . فان نساء كرييون يتطلبين عادة جزاء (عملا) ماليا عن أقوالهن ، ومن ثم أحصت « أمينا » بعناية ما حصلت عليه من مال ، ولم تستجب لرغبة حبيبها إلا بعد أن تأكدت كل التأكد إنه لم يخطئ فى العملية الحسابية .^(١٦)

ولقى الكتاب ما كان مقدرًا له من نجاح . ووجد قراء فى عدة لغات

أسرفت كلها في تصرفات شاذة . واعترف لورنس ستيرن بأنه تأثر بقصص كريبون . وفضلها هوراس وولبول على قصص فيلدنج . وكان مفهوم الرجل الفاضل العفيف توماس جراى عن الجنة والنعم « أن يقرأ إلى الأبد قصصا جديدة من تأليف ماريفو وكريبون » (١٧) . وجاءت من إنجلترا على عجل السيدة هنريتا ستافورد ، وأصبحت خليعة كريبون ، وأم ولده ، ثم زوجته ويروون أنه جعل من نفسه زوجا مثاليا لها (١٨) . وفي ١٧٥٢ انضم إلى الكسيس بيرون وشارل كولى في تأسيس « السكاف - الكهف » وهو ناد للموهبين المرحين الذين اشتهروا بالبعد في الوقار والمزاح . وفي ١٧٥٩ عين « بدليل الخلف » رقبيا ملكيا على الأدب . ولما توفي والده في ١٧٦٢ ، بعد أن أبطأ به الموت إلى حد مثير ، ورث ابنه معاشه . « والأمور بنحواتيمها » .

وفقدت كتب كريبون شعبيتها قبل وفاته بزمان طويل . ولكن في الوقت نفسه كان أحد رجال الدين العلماء المتقنين قد كتب قصة لا تزال حية مؤثرة إلى يومنا هذا . وكانت حياة أنطوان فرنسوا بريفوست دى أجزيل . المعروف باسم الراهب بريفوست ، متعددة الألوان مرهقة مثل سير الحياة التي أبدعها قلمه . إنه ولد في أرتوا في ١٦٩٧ ، وتعلم في مدارس اليسوعيين ، ثم أصبح راهبا مبتدئا في طائفة اليسوعيين (١٧١٣) . وتركهم ليلتحق بالجيش ، وارتقى إلى رتبة ضابط ، ووقع في شرك الحب . وخاب فيه أمله ونحطم قلبه ، وأصبح راهبا بندكتيا (١٧١٩) ، ثم قسيسا ١٧٢٦ ، وقد يبعث على الدهشة والعجب أن نقول إنه منذ ذلك الوقت اعتمد في حياته كل الاعتماد على قلمه .

وكان بريفوست ، حتى قبل أن يهجر حياة الدير ، قد كتب قصة رومانسية « مذكرات ومغامرات رجل ذى حيثة » ، نشرت الأجزاء الأربعة الأولى منها ١٧٢٨ في باريس ، وبعد عام قضاه في إنجلترا قصد إلى هولنده ، وفي ١٧٣٠ بدأ ينشر قصة ثانية « الفيلسوف الانجليزى » ، أو تاريخ مستر كليفلند ، الابن الطبيعي لكروامول « وهى من أوائل القصص التاريخية .

وكتبها في ثمانية مجلدات في السنوات التسع التالية . وفي ١٧٣١ نشر المجلدات الخامس والسادس والسابع من « المذكرات » سألقة الذكر ونشر المجلد السابع على حدة في باريس ١٧٣١ تحت اسم « مغامرات الفارس دى جرييه ودى مانون ليسكو » (تأليف مسيو د) . وحظرت الحكومة الفرنسية تداوله ، ومن ثم أقبل عليه الناس اقبالا شديدا متزايدا . ويقال « إنه في باريس لقي رواجاً كبيراً ، وتهافت الناس عليه كما يندفعون إلى النار » (١٩) وقصة مانون موضوعة في قالب قبيح غير مصقول من التظاهر والإدعاء ، فثمة اثنتا عشرة بغيا في مركبة في طريقهن إلى ميناء الهافر لترحيلهن إلى أمريكا . والمركيز - الرجل ذو الحيشة المجهول ، والمفروض أنه يدون المجلدات السبع من المذكرات ، بأسر قلبه جمال إحدى الفتيات التي وصف وجهها فيما بعد « بأنه يمكن أن يعيد العالم إلى الوثنية » (٢٠) . ويرى كذلك فارس دى جرييه البائس الوحيد اللدق يحدق النظر باكيا في خليلته السابقة ، مانون ، ويستبد به الحزن والأسى لأنه مفلس ولا يستطيع أن يتبعها إلى منفاه ، وتتحرك مشاعر المركيز ويتأثر تأثرا مزدوجا فيعطى دى جرييه أربعة جنينها ذهابا ، مكنت الفارس من مصاحبة مانون إلى لوزيانا . ويراه المركيز في كاليه بعد ذلك بعامين ، ويأخذه إلى داره . أما بقية المجلد الصغير فهي رواية دى جرييه لقصة حبه .

وكان شابا نموذجيا كريم المعتقد ، مبرزاً في كل شيء في الكلية في اميان ، وكان في عزم أبويه أن يلحقاه بطائفة الفرسان في مالطة . وفي غمرة آمالهما العريضة « جعلاني أضيق الصليب » (٢١) . ولكن مانون مرت أمامي ودخلت حياتي ، وتغير كل شيء . وكانت آنذاك في الخامسة عشرة وهو في السابعة عشرة ، « ولم تكن قد تنهت بعد إلى الفرق بين الجنسين » • وعجل هو هذا التطور المكبوت على الفور . وتبلغه مانون أنها أرسلت إلى اميان ضد رغبتها لتندمج في سلك الراهبات ، فيعرض عليها أن يخلصها من هذا ، ويهربان إلى باريس ، وبدا أن اعجابهما المتبادل كان عقداً وميثاقاً كافياً ، وتحللنا من مراسم الكنيسة ، ووجدنا أننا أصبحنا رجلا

وزوجة ، دون أن نفكر في هذا أو نتنبه له ، ويكشف أخوه أمره ويقبض عليه ويعيده إلى والده الذى يخبره بأن مانون أصبحت بالفعل خلية للسيد « ب » أحد رجال المصارف . ويرى دى جرييه أن يذهب ليقفل السيد « ب » فيحبس الوالد ابنه ، ويأتى أحد الأصدقاء تبرج ، ويؤكد الزعم بأن مانون خلية السيد « ب » ويحث دى جرييه على الانتظام فى سلك الكهنوت ، ويلتحق الشاب بمعهد سان سلبس اللاهوتى ، ويصبح راهبا . وظننت أنى تطهرت تماما من دنس الحب ، ويذهب بعد عامين لحضور إمتحان عام ومناظرة فى السوربون ، فيفاجأ بمانون بين الحاضرين ، وتشق هى طريقها إليه ، وتعرف بخيانتها ، ولكنها تقسم انها لم تقترف الخطيئة مع السيد « ب » إلا لتوفر المال لدى جرييه . ويهربان من جديد .

ويتخذ الحبيبان مسكنا فى ضاحية شبو ، ويعيشان حياة باذخة على مبلغ الستين ألف فرنك الذى حصلت عليه مانون من السيد « ب » . ويأمل دى جرييه بعد فصله من سلك الرهبنة وعودته إلى الفروسية ، أن يحصل من أبيه على الصفح والمال أو أن يرث مال أبيه بعد موته . ويسطو عليهما أحد اللصوص فيسلبهما مالهما . ويجدان أنهما أصبحا معدمين بين عشية وضحاها . وأدركت آنذاك أن الإنسان قد يحب المال دون أن يكون بخيلا . . . لقد عرفت مانون . . . ومهما كانت مخلصة وفيه مغرمة فى وقت الرخاء ، فلا يمكن الاعتماد عليها فى وقت الشدة . إنها اهتمت كثيرا بالمتعة والثروة لتضحى بهما من أجلى (٢٢) . وهو يحبها أكثر من حبه للشرف . ويسمح لاختوتها أن يعلموه الغش فى لعب الورق فيكسب بعض المال ، ولكنه يتعرض للسرقه مرة أخرى . وتهجره مانون إلى رجل فاجر عجوز ثرى ، وتركت له رسالة تقول فيها « إنى أعمل لأجعل فارس غنيا سعيدا » . وينضم إليها فى مؤامرة لابتزاز المال من هذا الرجل العجوز ، وينجحان ويختفیان ثم يقبض عليهما ، وتوضع هى فى الملبأ العام باعتبارها بغيا ، ويرسل هو إلى الدير . ولكنه يهرب منه باطلاق النار على حارس البوابة : ويقترض نقودا ويرشو القائمين على الأمر فى الملبأ ليسهلوا لمانون سبيل الهرب ، وتقطع على نفسها عهدا بحبه إلى الأبد .

ولما نفذ رصيدهما من المال ، أجازت لوريث غنى أن يتخذها خليلة ، ويقبض عليها ثانية ، ويقنع والد جرييه السلطات الرسمية بترحيلها ويحاول دى جرييه انقاذها في الطريق ، قلما عجز عن ذلك أبحر معها إلى نيو أورليانز ، وهناك تعلمت أن تحتل مرارة الفقر ، وأن تكون مخلصه كل الاخلاص لدى جرييه ، ويعودان إلى ممارسة الشعائر الدينية ، ولكن ابن حاكم المستعمرة يهيم بجها . ولما كان مانون ودى جرييه قد أهملوا أن يعقدا عقدا شرعيا بالزواج ، فإن الحاكم مارس حقه في أن يزوجهما من أى فرد في المستعمرة ، ومن ثم أمرها أن تقبل ابنه زوجها لها . وارى دى جرييه لابن قتيلا في مبارزة ، ويهرب الحبيبان إلى الفيا في والقفار سيرا على الأقدام . وبعد مسيرة عدة أميال مرهقة ، تسقط مغشيا عليها وتفارق الحياة ، «وقضيت يومين وليلتين لا تفارق شفتائى وجه عزيزتى مانون ويديها » . وحفر بيديه جدثا لها ويوارىها التراب ، ويرقد على القبر ليقضى نحبها هو الآخر . ولكن صديقه الطيب تيرج ، الذى قدم في نفس الوقت من فرنسا ، يعثر عليه ، ويصحبه ثانية إلى كاليه ، إلى المركز ليروى حكايته .

وأصبحت « مانون ليسكو » معينا لا ينضب لقصص حب مبلة بالدموع . فإن أية امرأة ، ولو لم تكن « محطمة القلب » تلرف الدمع على موت مانون وحزن دى جرييه ، مغتفرة لها حيلها المالية ، وله جرائمه الخسيسة . وضرب بريفوست على نعمة جديدة حين نسب إلى بطله وبطلته أخطاء كثيرة إلى هذا الحد ، وجعلها أخطاء حقيقية ، حين كشف عن حب مانون الطاغى للذة والمتعة ، وقدرة حبيبها على التطفل والغش والسرقة والقتل . وهى طراز عتيق للبطله ، وهو بالتأكيد مثال جديد للبطل . وربما بلغ الكتاب قدرا أكبر من القوة لو أن دى جرييه ترك ليموت على قبر مانون د

وربما روى بريفوست القصة بمثل هذا الاحساس والعاطفة لأنه هو نفسه كان لديه الحماسة والغيرة اللتان تجلتا في دى جرييه . ومن ثم كانت

القصة سيرة حياته قبل أن تكون حادثا . ولم يكن تافها متطفلا ، ترجم إلى الفرنسية روايات ريتشارد سن الثلاث الضخمة ، وزادت تلك الترجمات من تهافت فرنسا على ريتشارد سن ، وهو تهافت كان له مظهر مختلف عند روسو وديدرو . وترجم كتاب مدلتون « حياة شيشرون » ، وكتاب هيوم « تاريخ إنجلترا » ، وكتب عدة قصص أقل شأنا ، وعدة مجلدات عن « التاريخ العام للرحلات » . وفي امسترا م في ١٧٣٣ ، وقع في غرام عشيقه رجل آخر . ولما نعى إليه أن البندكتيين استصعدوا أمرا بسجنه ، هرب إلى إنجلترا مصطحبا هذه السيدة معه . وفي لندن كسب عيشه بإعطاء دروس خاصة . وفي ١٥ ديسمبر قبض عليه بتهمة قدمها ضده أحد تلاميذه بأنه زيف ورقة نقدية من ذات الخمسين جنيتها — وهي جريمة عقوبتها القانونية الاعدام . وسرعان ما أطلق سراحه لأسباب مجهولة . وعاد إلى فرنسا (١٧٣٤) وانضم من جديد إلى طائفة البندكت . وفي ١٧٥٣ عين في دير سان جورج — دي جين .

وأدى موته بعد عشر سنين من ذلك إلى أسطورة ترونها حفيدته بيف لسانت بيق وكأنها حقيقة ، تلك هي أنه أصيب بالسكتة أثناء سيره في غابات شانتيللي ، وأن طبيبا ظن أنه مات فقام بتشريحه ليفف على سبب الوفاة ، وأن بريفوست كان لا يزال حيا ، ولكن فحص الجثة هو الذي أودى بحياته (٢٣) . هذه القصة مرفوضة اليوم بصفة عامة (٢٤) .

وكان تأثير بريفوست كبيرا . إنه أسهم في تشكيل رواية روسو « هلواز الجديدة » ، وحرك ديلرو الحاد الذهن الرقيق القلب ليكتب مسرحيات باكية عاطفية . كما اتخذ هذا التأثير انجاسا مثاليا في قصة « بول وفرجينى » للكاتب برناردين دي سانت بيير . وبرز التأثير من جديد في « غادة الكاميليا » لديماس الابن . ولعبت دورا في الحركة الرومانسية ، إلى أن قدم فلوبرت « مدام بوفارى » (١٨٥٧) . ولا تزال مانون تحيا وتموت في الأوبرا .

٤ — حكماء أقل شأنا

ونعود إلى الكلام عن راهب آخر ، وينبغي علينا في هذه المرة أن نوفيه حقه . فقد رأينا كيف أن شارل إيريني كاستل راهب سان بيير ، روع الدبلوماسيين في أوترخت بكتابه « مذكرة في حفظ السلام على الدوام » . (١٧١٢) . وهي التي أسرت لب روسو وكان كلاهما كما رأينا ، يعرض على نادى « أنترسول » خليطا من أفكار واصلاحات تقدمية إلى حد أن الكاردينال فليرى أحس بأنه مضطر إلى اغلاق النادى انقاذاً للدولة (١٧٣١) . فلماذا كانت هذه الأفكار ؟

إن شارل هذا ، على غرار كثير من النافرين المتبردين ، قد اكتسب ذهنه حدة ومضاء بفضل التعليم اليسوعى . إنه لم يطل به الوقت لي طرح العقيدة السائدة جانبا ، وعلى الرغم من إنه ظل يعلن اعتناقه الكتلركة ، فإنه ألحق بها أذى ماكرا فى « مقالة ضد الإسلام » ، حيث أن ما أورد فيها من حجج — مثل فولتير فى كتابه « محمد » — يمكن تطبيقه بسهولة على المسيحية التقليدية . وواضح أن « تفسيره المادى » للمعجزات المزعومة التى قال بها البروتستانت والمنشقون والمسلمون « قصود به بالمثل التشكك فى المعجزات الكاثوليكية .

وفى ١٧١٧ ثم فى ١٧٢٩ أعاد نشر « مشروع السلام الدائم » بعد التوسيع فيه . وناشد ملوك أوربا ، ومن بينهم سلطان تركيا ، أن يعقدوا ميثاقا مقدسا يمكن أن يكفل بالتبادل ممتلكاتهم الحالية ، وأن تنبذ الحرب وسيلة لتسوية الخلافات الدولية ، وأن يخضع هذه الخلافات لاتحاد أوربي تكون له قوة فرض قبول القرارات التى يصدرها . وصاغ نموذجا لدستور لهذا الاتحاد ، مع القواعد التى يمكن اتباعها فى إجراءات اجتماعات هذا الاتحاد . وحدد الانصبه المالية التى تخصصها كل من الدول الأعضاء للاتحاد ، ولم يكن أحد ليتوقع نذبؤه بأن مؤتمر فيينا ١٨١٥ ، سيشكل ، على هذه الأسس « حلفا مقدسا » للبقاء دوما على النظم الملكية والاقطاعية ، ولإخماد الحركات الثورية .

ولم يكن ثمة صعوبات يمكن أن تززع ثقة الراهب المرن السريع التكيف ، فأقر . في عبارة دينية الإيمان بالتقدم ، وفي كتابه « ملاحظات على التقدم المستمر في العقل العالمى » (١٧٣٧) أعلن ، قبل كوندوروسيه بزمان طويل ، إمكان بلوغ الجنس البشرى مرتبة الكمال غير المحدود بفضل قوة العقل في رجال العلم والحكومات . إنه فوق كل شيء قال وهو مستغرق في التفكير والتأمل ، بأن الجنس البشرى وفقاً لمراجع موثوقة ، لا يزيد عمره على سبعة أو ثمانية آلاف سنة ، ومن ثم فإنه لا يعدوا أن يكون في مرحلة « طفولة العقل » ، فما الذى لا نتوقعه منه في شبابه النشيط بعد ستة آلاف سنة ، وفي الازدهار الرائع في مرحلة نضج الجنس البشرى بعد مائة ألف عام من الآن ؟ (٢٥) .

إن سان بيير تنبأ بمشكلتنا الحديثة : تلك هى أنه بينما خطت العلوم والمعرفة خطوات واسعة في طريق التقدم ، لم يحدث في مجال الأخلاق أو السياسة تقدم متكافئ مع تلك الخطوات ، إن المعرفة تزود الرذيلة بالوسائل والأدوات بقدر ما تهذب الأخلاق وتعمل على تنويرها . وكيف ننحو بنمو المعرفة نحو تقويم أخلاق الأفراد والأمم ؟ وفي رسالته « مشروع لتحسين أوضاع حكومات الدول والبلوغ بها إلى درجة الكمال » (١٧٣٧) اقترح سان بيير تأسيس « أكاديمية سياسية » تتألف من أعظم الرجال عقلاً وحكمة في البلاد ، تكون بمثابة هيئة استشارية للوزراء في الدولة في كل ما يتعلق بالإصلاح الاجتماعى والخلقى . وقدم عدة اقتراحات محددة : تعليم عام تحت إشراف الحكومة (لا الكنيسة) ، تسامح دينى ، زواج رجال الدين ، توحيد القوانين الفرنسية ، قيام الدولة برعاية الصالح العام والنظام الاجتماعى ، وأخيراً زيادة الإيرادات القومية عن طريق الضرائب التصاعدية على الدخول والتركات (٢٦) . وفي ١٧٢٥ أضاف الراهب إلى اللغة الفرنسية لفظة « الإحسان أو عمل الخير » ليميز الروح الإنسانية التى أثرها على الصدقات التى تقترن بفكرة التنازل والتلطف في النظام القديم . ووضع قبل هلفشيوس وبننام بزمان طويل مبدأ المنفعة : ذلك « أن قيمة أى كتاب

أو قاعدة أو نظام أو عمل عام تقاس بعدد وعظمة الملذات والمتع الفعلية التي تحققها ، وما ينتظر أن تحققها في المستقبل ، لأكبر عدد من الناس ^(١٧) . وبدا معظم الأفكار الأساسية عند الفلاسفة استهلالاً أو مقدمة لسان بيير ، بل للأمل في ملك مستنير . كعامل من عوامل الإصلاح . وكان سان بيير بكل بساطته وسذاجته واطنابه ، أحد الأذهان التي حملت بذور عصر الاستنارة .

ولا بد أن شارل يينو ديكلوس قد ازدرى الراهب سالف الذكر لأنه خيالي وأهم لا يتفق مع ذهن واقعي . ولد في دينان بمقاطعة بريتانى ، واحتفظ حتى النهاية بالشخصية الجادة الحذرة العنيدة التي تميز بها البريتون . وكان ابناً لوالد برجوازي ميسور والدة ماتت في السنة الأولى بعد المائة ، فاستطاع أن يقضى شبابه الطائش في باريس في عهد الوصاية . وتلقى تعليمه العالى عند اليسوعيين وبنات الهوى ، وانغمس في حماقات الشباب أيما انغماس . وزاد من حدة ذكائه في المقاهى ، ومكنت له شهرته بسرعة البديهة من ارتياد المجتمع والصالونات ، وزاد من شهرته بقصة « تاريخ البارونة دى لوز » (١٧٤١) التي كادت أن تكون اتهاماً لله . إن البارونة تصد كل هجوم على أمانتها الزوجية ، ولكنها تستسلم لحاكم فاسق فاسد ، لتنفذ حياة زوجها المتورط في مؤامرة ضد الملك . وتغتصب البارونة مرتين . وفي سورة غضب جنونى تصرخ « أيها الرب القاسى ، كيف استحق كراهيتك لى هل لأن الفضيلة كريمة لديك ؟ » ^(١٨) .

وعلى الرغم من مغزى هذا الكتاب وما تضمنه من إثارة جنسية انتخب ديكلوس للأكاديمية (١٧٤٦) بفضل نفوذ مدام دى إمبادور . واشترك بحموية ونشاط في أعمالها ، وأعاد تنظيمها ، وربط بينها وبين أدب العصر وفلسفته ربطاً بعث فيها الحياة . وفي ١٧٥١ خلف فولتير في وظيفة مؤرخ لملك وفي ١٧٥٤ سعى لانتخاب دالمبرت لعضوية الأكاديمية ، وفي ١٧٥٥ انتخب سكرتيراً دائماً لها ، وظل الروح المسيطرة عليها حتى وفاته . وكسب الأكاديمية إلى جانب الأفكار المتحررة . ولكنه رثى وأسف لهور دى هولباخ

هلفشيوس وديدرو « إن هذه العصبية من الملحددين الصغار سوف تنتهى باقتيادى إلى كرسى الاعتراف » .

ولنا لنذكره بصفة خاصة من أجل كتابه « نظرات في الخير والشر في هذا القرن » (١٧٥٠) وهو يتضمن تحليلاً هادئاً دقيقاً مفصلاً عن الأخلاقيات والشخصية الفرنسية . وكتبه قبل أن يبلغ الخامسة والأربعين ، واستله بوقار حكيم تحريف « لقد عشت ، وأود أن أعيش لأكون ذا نفع لمن سيعيشون » . ويأسف « لأن أعظم الشعوب حضارة ومدنية ليست كذلك أكثرها تمسكاً بالفضيلة » : إن أسعد الفترات هى تلك التى لا تعتبر فيها الفضيلة حسنة أو ميزة ، وإذا بدأ اعتبارها كذلك ، فإن العادات بالفعل تتغير . وإذا أصبحت هدفاً للسخرية فتلك هى آخر مراحل الفساد^(٢٩) .

وفى رأيه أن « أكبر نقیصة فى الرجل الفرنسى ان له على الدوام شخصية شبابية ، ومن ثم فهو فى الغالب أنیس لطيف ، وقلما يكون راسخاً متزناً ، ويكاد لا يمر بسن النضج ، بل ينتقل من الشباب إلى عجز الشيخوخة فالرجل الفرنسى هو طفل أوروبا^(٣٠) — مثلما أن باريس هى ملعبها . ولا بتعاطف ديكلوس كل التعاطف مع عصر العقل الذى يحس أنه دوامة نعصف حوله » « لست متأكداً من إى أحسن الظن كثيراً بهذا القرن ، ولكن يبدو لى أن تخمراً معيناً فى العقل يتجه نحو التطور والنمو فى كل مكان^(٣١) » . إننا فى هذه الأيام ننتقد كثيراً فى عنف بالغ التحيز والتحامل وربما قضينا عليهما إلى حد كبير . إن التحيز ضرب من القانون العام السائد بين البشر . . . وفيما يتعلق بهذا الموضوع . لا أملك إلا أن أنحى باللائمة على الكتاب الذين يريدون مهاجمة لنحرافة (وقد يكون من البواغث النافعة الجديرة بالثناء إذا تمت المناقشة على أساس

وأعقب هذا فى سنة ١٧٥١ مذكرات لالقاء الضوء على النظرات « أما رسالة ديكلوس مذكرات سرية عن حكم لويس الرابع عشر والخامس عشر لم تنشر إلا فى ١٧٩١ وترجم جزء منها إلى الانجليزية تحت اسم مذكرات سرية عن عهد الوصاية .

فلسفى) . فيقوضون أسس الأخلاق ويضعفون روابط المجتمع . . . والنتيجة المؤسفة لهذا على قرائهم ، هى أن يصبح الشباب مواطنين سيئين ومجرمين مخزيين ، وأن ينتاب الشقاء الذين يتقدم بهم العمر (٣٢) .

وكان جريم المراسل الباريسى للشخصيات الأجنبية وواحداً من كثير ممن استاءوا من هذا التشهير الرقيق بالفلسفة ، الصادر من رجل نهل من منابع كثيرة « إذا كان المرء مجرداً من الشعور فاسد الذوق ، فليس له أن يتحدث عن الأخلاق ولا عن الفنون (٣٣) . ولكن جريم كان يراحم ديكلوس فى الظفر بالخطوة لدى مدام دى ايبنى ، وإن مذكرات هذه السيدة الرقيقة لتصور ديكلوس فظاً مستبدأ إذا تمكن ، شديد التهور إذا غلب على أمره . ولكن جريم هو الذى أعد هذه المذكرات للنشر . وإذا كان لنا أن نصدق هذه الصفحات العتيقة الباكية فلن مدام ايبنى طردت من بيتها هذا العريب اللائن . وهام رجل الأكاديمية العلامة على وجهه بحثاً عن مضاجع وأراض أخرى ، وأخيراً رحل عن هذا العالم وهو فى السابعة والستين .

وكان لوك دى كلايبيير مركزى دى فوفينارج أجدر بالحب . وفى سن الثامنة عشرة التحق بالجيش ثملا يحب بلوتارك وبالطموح إلى ارتقاء مدارج المجد فى خدمة الملك . واشترك فى مغامرة الماريشال دى بل أيل المنكوبة فى حملة يوهيا ١٧٤١ — ١٧٤٣ . وفى الانسحاب المهلك من براغ تجمدت رجلاه ، وحارب فى دتنجن ١٧٤٣ . ولكن اعتلت صحته إلى حد إنه ترك الجيش بعدها . وسعى إلى الحصول على منصب دبلوماسى ، وكاد أن يظفر ببغيته بفضل مساعدة فولتير لولا أن مرض الجدرى شوه وجهه . وبدأ بعده يضعف ، وانتابه سعال مزمن قتال أقعده عن ممارسة أى عمل .

وأصبحت الكنة عزاءه ، وشغله الشاغل . وكان يقول « فوق كل شىء ، إن أحسن الأداة هى أكثرها شيوعاً ، فإنك تستطيع أن تشتري فولتير مقابل كرون واحد » (٣٤) وحذر من الحكم على الكتب بثقلها ، فإن خبيث المتوفين قد يتحدثون أكثر مما ينبغى وكثير منهم غامضون

إلى حد يبعث السأم والضجر . والوضوح يزين التفكير العميق » (٣٥) .
وكان مؤلفه الذى دفع به إلى المطبعة ١٧٤٦ يقع فى خمس وسبعين صفحة
مقدمة فى التعرف على الروح الإنسانية ، وأعقبه « ٦٠٧ من التأملات
والحكم » فى ١١٥ صفحة . وبعد ذلك بعام واحد ، وفى فندق حقير فى
باريس ، قضى نحبه ، وهو فى الثانية والثلاثين ، وهو يمثل موزار وكيثس
فى الفلسفة الفرنسية .

وقال فوفينارج « إن للفلسفة أنماطها وأشكالها . مثل الملابس والموسيقى
والعمارة » (٣٦) وقبل بضع سنين قليلة من اصفاء روسو المثالية على الطبيعة
والمساواة ، صور فوفينارج « الطبيعة بأنها صراع وحشى من أجل الغلبة
والسيطرة » ، و « المساواة » على أنها وهم وخداع : السائد بين الملوك ،
وبين الشعوب ، وبين الأفراد ، أن الأقوى يرتب لنفسه حقوقا على
الأضعف ، ونفس القاعدة متبعة بين الحيوانات والكائنات غير الحية ،
وهكذا يجرى كل شئ فى الكون بالعنف . وهذا النظام الذى نعبه بشئ
من شبه العدل ، هو أعم وأثبت وأهم قانون فى الطبيعة (٣٧) .

إن كل الناس ولدوا غير أحرار ويرمسون .

ليس حقاً أن المساواة قانون من قوانين الطبيعة . إن الطبيعة لم تجعل
الأشياء متساوية . إن قانونها الأساسى هو الخضوع والتبعية . . . ومن
ولد ليطيع . فسوف يطيع حتى وهو متربع على العرش (٣٨) .

أما بالنسبة للارادة الحرة ، فهى أيضا أسطورة أو خرافة « فليست
الارادة هى العلة الأولى لأى تصرف أو عمل ، بل إنها المنبع الأخير » .
ولذا أوردنا المثل التقليدى على الارادة الحرة ، وهو أنك تستطيع أن تختار
هذا أو ذلك أ أو ب « بمحض إرادتك » فإن فوفينارج يرد « لى إذا
اخترت ب فإن هذا بسبب أن الحاجة إلى الاختيار تقفز إلى تفكيرى فى
اللمحة التى تجول ب بخاطرى فيها (٣٩) . والإيمان بالله أمر لا مفر منه ولا غنى
عنه ، على أية حال . وأحس فوفينارج بأنه عن طريق هذا الإيمان وحده
يمكن أن يكون للحياة ولل تاريخ معنى غير الصراع الدائم والهزيمة فى النهاية (٤٠) .

وأبرز معالم فلسفة فوفينارج دفاعه عن العواطف ، ولا ينبغي القضاء عليها لأنها أصل الشخصية والعبقرية وكل قوة التفكير ونشاطه . « الذهن عين النفس المبصرة ، ولكن ليس قوتها ، لأن قوتها تكمن في القلب أى في العواطف . إن أكثر العقول استنارة لا يمدنا بالقوة على العمل والارادة^(٤١) والأفكار العظيمة تنبع من القلب . . . وربما كنا مدينين للعواطف بأعظم منجزات العقل^(٤٢) . . إن العقل والوجدان يستشير كل منهما الآخر ويكمله بالتناوب ، وهذا الذى يستشير أحدهما ويعقل الآخر ، إنما يحرم نفسه في حق وغباء من بعض الموارد التى منحنا إياها من أجل سلوكنا^(٤٣) .

وأقر فوفينارج أن حب الذات عام بين الناس ، ولكنه رفض اعتباره رذيلة ، حيث أنه الضرورة الأولى من ضرورات قانون الطبيعة الأول : حفظ الذات . كما أن الطموح ليس رذيلة ، بل إنه حافز « ان حب المجد والعظمة هو الذى يصنع ما تحزره الأمم من تقدم ونجاح^(٤٤) . ويضيف أن المرء غير أهل للمجد والعظمة إذا لم يع قيمة الوقت^(٤٥) . ومهما يكن من أمر فإن هناك رذائل يجب أن تكبح جماحها القوانين والمبادئ الأخلاقية وإن فن الحكومة ليكمن في توجيه هذه الرذائل إلى الخير العام^(٤٦) . وهناك أيضا فضائل حقيقية « إن أرلى أيام الربيع أقل روعة وفتنة من نمو الفضيلة في الشباب^(٤٧) .

وعلى الرغم من تسليم فوفينارج بآراء هوبز ولا روشفوكو ، ومن تجربته للشر في حياته ، فإنه احتفظ بإيمانه بالجنس البشرى . قال صديقه مارمونتل : « إنه عرف الحياة ولم يحتقرها . إنه ، وقد كان صديقا للناس ، اعتبر الرذيلة محنة وسوء حظ ، يتألى الناس بهما لا جريمة . وحلت الشفقة في قلبه محل الاحتقار والبغض . . . إنه لم يذل إنسانا قط . . . إن هدوءاً لم يتبدل أخفى آلامه عن أعين أصدقائه . وما كنا في حاجة لاحتمال المحنة ، إلا أن تكون لنا فيه أسوة حسنة ، فلما ونحن نرى رباطة جأشه . ما كنا لنجرؤ على اظهار حزننا وشقائنا أمامه^(٤٨) .

ووصفه فولتير بأنه « أتعس الناس حظا وأكثرهم هدوءاً »^(٥١) .

إن من أكرم مظاهر الأدب الفرنسى فى القون الثامن عشر . ذلك العطف السايخ والعون الودى اللذين حبا بهما فولتير « نبي العقل » فوفينارج نصير بسكال و « القلب » . إن الفيلسوف الشاب أعلن عن إعجابه « برجل يشرف قرننا ، رجل لا يقل عظمة وشهرة عن أسلافه »^(٥٢) . وكتب إليه الرجل العجوز الأكبر منه سنا فى لحظة من لحظات التواضع : « لو أنك كنت قد رأيت التور قبل مولدك ببضع سنين ، فلربما اكتسبت كتاباتى قيمة أكبر »^(٥٣) إن أفصح قطعة فى مجلدات فولتير المائة هى ما قال فى ثابن فوفينارج عند تشييع جنازته^(٥٤) .

مونتسكيو ١٦٨٩ - ١٧٥٥

١ - الرسائل الفارسية :

وجد فولتير أنه من العسير عليه أن يحب مونتسكيو لأن مؤلفه « روح القوانين » (١٧٤٨) اعتبر بصفة عامة أعظم إنتاج عقلى فى هذا العصر . وظهر الكتاب حين بلغ صاحبه التاسعة والخمسين ، وكان ثمرة خمسين عاما من التجربة والخبرة ، وأربعين عاما من الدرس والبحث وعشرين عام قضائها فى تأليفه .

ولد شارل لويس دى سيكوندا بارون دى لا بريد ودى مونتسكيو ، فى لا بريد بالقرب من بوردو وفى مقاطعة مونتاني ، فى ١٨ يناير ١٦٨٩ . وكان يفاخر مبتهجا بأنه من سلالة هؤلاء القوط ، وهم الذين بعد أن غزوا الامبراطورية الرومانية ، « أسسوا الملكيات وأقاموا صرح الحرية هنا وهناك فى كل مكان »^(٥٥) إنه انتسب على أية حال إلى « نبلاء السلاح ونبلاء الرداء » كان أبوه كبير القضاة فى جوين ، وكان الصداق التى قدمته أمه قصر لا بريد وأرضها . وفى ساعة مولده تقدم إلى بوابة القصر سائل مسكين ، فادخلوه وأطعموه وجعلوا منه عرابا للطفل (أى أباه فى العباد) . زعما منهم بأن شارل لن ينسى الفقراء أبدا^(٥٦) . وتربى طوال السنوات الثلاث الأولى من عمره بين فلاحى القرية ، وأرسل فى سن الحادية عشرة

إلى مدرسة طائفة الأورأتورين في جويلي على بعد عشرين ميلا من باريس . . ثم عاد إلى بوردو في سن السادسة عشرة ليدرس القانون . وفي سن التاسعة عشرة حصل على درجته العلمية في القانون .

وفي ١٧١٣ مات أبوه ، وكان شارل آنذاك في الرابعة والعشرين من عمره ، تاركا له ممتلكات واسعة وثروة متوسطة . وكان يتحدث بصراحة عما « يملك من أرض وعن اتباعه » وسوف تراه تمسك بشسدة بالنظام الاقطاعي . وبعد ذلك بسنة دخل برلمان بوردو عضوا وقاضيا . وفي ١٧١٦ أوصى له عمه — الذي كان قد اشترى رئاسة البرلمان — بثروته ومنصبه ، وقد دافع مونتسكيو فيما بعد عن « بيع المناصب » باعتباره « عملا حسنا في الدول الملكية ، لأنه يجعل من واجب أبناء الأسرات العريقة أن ينهضوا بالمهام التي قد لا يحصلون عليها عن طريق الدوافع الزهية غير المغرضة وحدها ^(٥٦) . وبينما كان يتولى رئاسة البرلمان قضى معظم وقته في الدرس والبحث ، فأجرى تجارب وقدم أبحاثا في الفيزياء والفسولوجيا إلى أكاديمية بوردو ، وخطط « تاريخا جيولوجيا للأرض » لم يكتبه قط ولكن المادة التي جمعها له شقت طريقها إلى كتابه « روح القوانين » .

وكان في الثانية والثلاثين حين ملأ أبصار وأسماع باريس في عهد الوصاية بأروع كتبه . إنه أغفل ذكر اسمه على كتابه « الرسائل الفارسية » (١٧٢١) لأنه ضم بين دفتيه قطعاً لا يليق صدورها عن قاض . وربما أخذ فكرته عن كتاب جيوفني مارانا « جاسوس السيد الكبير » (١٦٨٤) الذي نقل فيه جاسوس تركي وهمي للسلطان ، في بذاءة تلفت النظر ، عقائد المسيحيين الفاسدة وسلوكهم في أوروبا ، والمفارقات المضحكة أو القاتلة بين ما يعلنون وما يفعلون ، وثمة أسلوب شبيه بهذا في تصوير الحضارة الغربية كما يراها الشرقيون ، استخدمه اديسون في « سبكتاتور » . وكان شارل دفورسني في « تسليبات جادة وهازلة » قد تصور تعليقات أحد أبناء سيام في باريس ، كما أن نيقولا جيودقيل كان قد أبرز العادات الفرنسية كما يراها أحد هنود أمريكا . وكانت ترجمة جالاند لكتاب « الف ليلة وليلة » (١٧٠٤ —

(١٧١٧) قد زادت من شغف الفرنسيين بالحياة الإسلامية ، كذلك فعلت المحاضرات المصورة عن رحلات سيرجون شاردان وجان تافرنيه . كما أنه من مارس إلى يولييه ١٧٢١ لفت السفير التركي أنظار باريس بفتنه زيه وأساليبه الغريبه . من أجل ذلك كله كانت فرنسا مستعدة لتلقى « الرسائل الفارسية » . ويبيع من هذا الكتاب ثمان طبعات على مدى عام واحد .

وقدم مونتسكيو « الرسائل » على أنها مكتوبة بقلم ريكا وأوزبك ، وهما سائحان فارسيان في فرنسا . ومراسليهما في اصفهان . إن هذه الرسائل لم تعرض فقط نقاط الضعف والأهواء والتحيز عند الفرنسيين ، ولكنها كشفت أيضا عن حماقات السلوك والمعتقدات الشرقية من خلال الكتاب أنفسهم .

وحين يسخر القارئ من هذه العيوب والأخطاء ، فليس أمامه إلا أن يتقبل عن طيب خاطر السخرية من عيوبه وأخطائه هو . وقد مست هذه العيوب والأخطاء مسأ رقيقا . ومن ذا الذي يغضب لهذه الأفكار الساخرة غير المقصودة ، أو الطعنات بسيف مغلف بطريقة مهذبة ؟ وفوق ذلك تضمنت بعض الرسائل أسراراً أو رسائل شخصية سارة من حريم أوزبك في اصفهان . من ذلك أن زاكي أى محظيته ، تكتب لتبلغه بما تعاني من آلام مبرحة لغيابه عنها . كما أن ريكا تصف مفهوم سيدة مسلمة عن اللجنة بأنها مكان يكون فيه لكل سيدة فاضلة مجموعة من الرجال الوسيمين المكتملي الرجولة ، وهنا يطلق مونتسكيو لقلمه العنان في سرد التفاصيل في أسلوب الطيش الذي اشتهر به عهد الوصاية .

وكان من غير المستطاع ، اللهم في فترة خلو العرش هذه ، أن تتفادى المهرطقات السياسية والدينية في الرسائل عين الرقيب والمواخلة الرسمية . لقد قضى الملك القديم نجه ، والملك الجديد ما زال صبيا ، والوصي رجل متسامح مرح مبهج . وعند ذاك استطاع مونتسكيو أن يجعل الفارسيين الذين أوردتهم في رسائله يسخرون من حاكم « ساحر » جعل الناس يعتقدون أن الورق نقود (كان نظام لو قد انهار .^(٥٧)) كما استطاع أن يفضح فساد

الحاشية ، و خمول النبلاء المبلرين وسوء إدارة أموال الدولة ، وأن يمتدح جمهوريات اليونان ورومة القديمة ، والجمهوريات الحديثة في هولنده وسويسرا . يقول أوزبك « أن الملكية نظام شاذ غير سوى ، ينزلق إلى حكم استبدادى مطلق » ^(٥٨) (انظر فيما بعد رأياً مخالفاً) .

وفى الرسائل من ١١ - ١٤ يوضح أوزبك طبيعة الإنسان ومشكلة الحكم بالتحدث عن سكان الكهوف (التروجلوديون) (٥) الذين يتخيلهم عربا انحدروا من التروجلوديين الذين وصفهم هيرودوت ^(٥٩) وأرسطو ^(٦٠) بأنهم قبائل همجية عاشت في أفريقية (قبل التاريخ) . وكان تروجلوديو أوزبك يكرهون كل تدخل حكوى ، ومن ثم قتلوا كل حاكم مفكر ، وعاشوا في جنة من الحرية التامة « اتركه يعمل » واستغل كل بائع حاجة المستهلك ورفع سعر منتجاته . وإذا اغتصب رجل قوى زوجة رجل ضعيف ، فليس ثمة قانون أو حاكم يلجأ إليه . وأفلت القتل والاغتصاب والسلب والنهب دون عقاب ، اللهم إلا الاقتصاص الخاص بالعنف ، وإذا عانى سكان النجاد من الجفاف تركهم سكان الوهاد يموتون جوعاء ، وإذا عانى هؤلاء من الفيضان تركهم سكان النجاد يهلكون . ومن ثم فنيت القبيلة ، وبقي على قيد الحياة أسرتان بفضل الهجرة ، وتبادلنا العون ، ونشأنا أطفالهما على التمسك بالدين والفضيلة واعتبرت أنهما أسرة واحدة ، واختلطت قطعانها دائماً تقريباً . ^(٦١) ولما زاد عددهم وجدوا أن أعرافهم غير كافية - لحكمهم فاختاروا ملكاً وخضعوا للقوانين . وانتهى أوزبك إلى أن الحكومة ضرورية ولكنها تعجز عن تأدية مهمتها إذا لم تكن قائمة على الفضيلة فى الحاكم والمحكومين . .

وكانت الهرطقات الدينية فى الرسائل أكثر ترويعاً وتنفيراً من الهرطقات السياسية . ويرى أوزبك أن الزوج يتصورون أن الإله أسود وأن الشيطان أبيض . ويوحى (مثل زينوفون) بأنه إذا كانت المثلثات تتحدث عن

(٥) قصد بهذه الكلمة فى الأصل سكان الكهوف ، أى الذين يحفرون جحوراً ليقيموا فيها . مثل نخصومنا السياسيين .

اللاهوت ، فلا بد أن للإله ثلاثة أضلاع وثلاث نقط حادة . ويعجب أوزبك من ساحر آخر يسمى البابا ، يبحث الناس على الاعتقاد بأن الخبز ليس خبزاً وأن الخمر ليس خمرًا . وألف شيء من هذا الطراز . (٦٢) ويسخر من الصراع بين اليسوعيين والجانسينيين . وأفزعته محاكم التفتيش في اسبانيا والبرتغال ، حيث « يتسبب الدومنيكان في إحراق الناس كما يحرق القش » . (٦٣) ويسخر من المسايح وثياب الرهبان الفصفضاة . وهو يتساءل كم تعمّر البلاد الكاثوليكية في منافسة مع الشعوب البروتستانتية ، لأنه يرى أن تحریم الطلاق وعزوبة الراهبات والرهبان سوف يعوقان ازدياد السكان في فرنسا وإيطاليا واسبانيا (قارن إيرلنده في القرن العشرين) ويقلّر أوزبك ، على هذا المعدل ، أن الكاثوليكية في أوروبا لن تعمّر أكثر من ٥٠٠ سنة أخرى (٦٤) (*) . أضف إلى هذا أن هؤلاء الرهبان الخاملين الذين يزعمون انهم مستعصمون زاهدون يستولون على كل ثروة الدولة تقريباً ٥ لانهم عصابة من البخلاء يأخذون دائماً ولا يعطون أبداً . لانهم باستمرار يكتزون دخولهم لتكون لهم مصدر قوة . وتصاب هذه الثروة بالشلل ، فلا تتداول ولا تستغل في التجارة أو الصناعة أو المصانع (٦٥) ويقلق أوزبك التفكير في أن كفار أوروبا الجهلة الذين يعبدون المسيح بدلا من عبادة الله والإيمان بحمده سيكون مصيرهم النار ، ولكن يراوده بعض الأمل في أنهم في النهاية سيعتقون الإسلام ويُنقذون (٦٧) .

وفي تخيل رمزي جليل يتأمل أوزبك في الالغاء (١٦٨٥) مرسوم هنري الرابع للتسامح المعروف بمرسوم نانت .

أنت تعلم ياميزرا كيف أن بعض وزراء الشاه سليمان (لويس الرابع عشر) دبروا خطة لارغام الأرمن في فارس (الهيجونوت) على مغادرة المملكة أو الدخول في الإسلام (الكثلكه) ، اعتقادا منهم بأن امبراطوريتنا

(*) ذهب مونتسكيو في ١٧٢١ إلى أن عدد سكان أوروبا لا يكاد يبلغ عشر عدد سكانها في عهد الامبراطورية الرومانية (٦٥) وأنه أخذ في التناقص ، وأن زنوج أمريكا سرعان ما يهلكون .

ستظل ملوثة مدنسة ما دامت تحتضن هؤلاء الكفار . . . إن اضطهاد مسلمينا الغيورين هؤلاء الكفار عبدة النار اضطهرهم إلى الفرار زرافات إلى الهند الشرقية ، وبذلك حرم فارس من هذا الشعب الجاد النشط . ولم يبق أمام هذا التعصب الأعمى إلا شيء واحد هو تدمير الصناعة ، حتى تنهار لامبراطورية (فرنسا ١٧١٣) ، حاملة معها تلك الديانة التي أرادوا لها النهوض والتقدم .

وإذا كان الحوار الزيه غير المتحيز ممكنا ياميرزا ، فلست متأكدا من أنه من الخير للدولة أن يكون بها عدة ديانات مختلفة . . . والتاريخ زاخر بالحروب الدينية ، ولكن . . . ليس تعدد الديانات هو الذى أدى إلى الحروب ، بل روح التعصب الذى يشجع الديانة التى تعتقد أنها فى صعود^(٦٨) .

إن الأفكار التى تضمنتها الرسائل الفارسية تبدو لنا الآن مبتذلة عتيقة . ولكنها كانت للمؤلف حين عبر عنها ، مسألة حياة أو موت ، وعلى الأقل مسألة سجن أو نفي . إنها الآن عتيقة لأننا كسبنا معركة الحرية فى التعبير عن الآراء . إن الرسائل الفارسية فتحت الطريق ، لهذا استطاع فولتير بعد ذلك بثلاث عشرة سنة أن يصدر « رسائل عن الانجليز » ويلقى ضوءا إنجليزيا على حطام فرنسا . وأعلن هذان الكتابان عن عصر الاستنارة . وعمر مونتسكيو وحرية بعد كتابه ، لأنه كان من طبقة النبلاء ، ولأن الوصى على العرش كان متسامحا ، كما ارتفعت بعض أصوات الاستنكار وسط التهليل والإعجاب ، ومع ذلك لم يجرؤ على الإفصاح عن اسمه وهو المؤلف . وذهب دارجنسون الذى انتقد هو نفسه الحكومة فيما بعد إلى أن « هذه تأملات وأفكار يستطيع أن يأتى بها رجل ذكى بسهولة ، ولكن ينبغى على الرجل الحصيف الخلل ألا يسمح بطبعها » . وأضاف ما ريفو الحريص « يجدر أن يضمن الإنسان بمجهوده فى مثل هذه الموضوعات » وقال مونتسكيو « عندما حظيت إلى حد ما بتقدير الجمهور فقدت تقدير الطبقات الرسمية ، وواجهت ألفاً من ألوان الاستخفاف والاستهزاء »^(٦٩)

وعلى الرغم من كل شيء قصد مونتسكيو إلى باريس ليرشف كژوس

الشهرة في المجتمع وفي الصالونات . وفتحت له الأبواب مدام دي تنسان ومركزة لمبرت ومركيزة ديناند . ولما كان قد ترك زوجته وراءه في لا برید فلم يكن من العسير أن يقع في شرك الغرام مع سيدات باريس . وتطلع إلى آفاق بعيدة ، فتأقت نفسه إلى ماري آن دي يوربون أخت الدوق دي يوربون الذي أصبح رئيسا للوزارة في ١٧٢٣ . ويروى من أنه ألف من أجلها شعراً منثوراً « معبد الحب » (١٧٢٥) عامراً بنشوة الوجد والهيام ، وخفف من وطأة خلعة هذا الشعر بادعائه أن القصيدة مترجمة عن اليونانية ، ومن ثم حصل على ترخيص ملكي بطبعها . وبذل المساعي وبخاصة عن طريق مدام دي رى ، لينضم إلى الأكاديمية ، فاعترض الملك بأنه غير مقيم في باريس . فأسرع إلى بوردو وتخلّى عن رياسته لبرلمانها ، وانضم إلى مجمع الاربعين الخالدين (١٧٢٨) .

وفي أبريل قام برحلة استغرقت ثلاثة أعوام زار فيها بعض أجزاء إيطاليا والنسأ والجور وسويسرا وأراضى الراين وهولنده ، وإنجلترا . التي قضى فيها ثمانية عشر شهراً (نوفمبر ١٧٢٩ — أغسطس ١٧٣١) وهناك عقد أوامر الصداقة مع تشستر فيلد وغيره من وجوه القوم ، واختير عضواً في الجمعية الملكية في لندن ، وانضم إلى البنائين الأحرار (الماسونية) ، واستقبله الملك جورج الثاني والملكة كارولين ، وحضر جلسات البرلمان ، وأولع بما ظنه الدستور البريطاني . وعاد أدراجه إلى فرنسا شديد الإعجاب — مثل فواتير — بالحرية ، ولكن ما لمسه من مشاكل الحكومة زاد من رصانته واتزانه . وآوى إلى لا برید ، وحول منزله إلى حديقة إنجليزية ، وتفرغ — فيما عدا زيارات طارئة إلى باريس — لأبحاثه وكتاباتة التي شغلت بقية أيام حياته .

٢ — لماذا سقطت رومة

في ١٧٣٤ أصدر مونتسكيو ، دون توقيع . ولكن معترف به عند الجمهور ، « نظرات في أسباب عظمة الرومان وسقوطهم » . وكان قد دفع بالخطوطة إلى عالم يسوعى ، ووافق على حذف ما يمكن أن يثير ريب الكنيسة . ولكن الكتاب لم يجد ، وما كان له أن يجد النجاح الذي صادفته

« الرسائل الفارسية » لأنه لم ينضمّن أية بذاءات أو أية أشياء تجافى الاحتشام ، بل كان يعالج موضوعا قديما معقداً وكان محافظا نسبيا في سياسته ولاهوته . ولم يستسخ المتطرفون (الراديكاليون) التوكيد على أن يكون الانحطاط انحلقي سببا للاضمحلال القومي ، ولم يكونوا مستعدين ليقدرُوا عمق التقدير الحكمة الرائعة في عبارات مثل « أن للذين لم يعودوا يرهبون القوة في مقلودهم أن يظلموا على احترامهم للسلطة » . ^(٧٠) وتعتبر هذه الرسالة الصغيرة الآن محاولة رائدة في فلسفة التاريخ ، ورائعة من روائع النثر الفرنسي تعيد إلى الأذهان ذكرى بوسويه ولكنها تضيف الروعة إلى الوقار .

إن الموضوع جذب نظر المؤرخ الفيلسوف لأنه انتظم السلسلة الكاملة لحضارة عظيمة من الميلاد إلى الفناء ، وعرض في نظرة شاملة وتفصيل رائع إحدى عمليات التاريخ الأساسية — وهي عملية الفناء أو الانحلال الذي يبدو أنه قدر محتوم أن يعقب كمال التطور في الأفراد والديانات والدول . وكان ثمة اشتباه في أن فرنسا بعد انقضاء القرن العظيم ، قد دخلت في فترة طويلة من الاضمحلال في الامبراطورية والأخلاق والأدب والفن . إن الثالوث المدنس : فولتير وديدرو وروسو — لم يكن قد بدأ بعد إنهم يتحدون التفوق الفكري والعقلي في القرن السابع عشر . ولكن جراءة العصر الجديد المتزايدة برزت في حقيقة أن مونتسكيو ، في ايضاحه وشرحه لمجرى التاريخ لم يدرس إلا الأسباب الأرضية ، وطرح جانبا في هدوء اللهم إلا لمحات من الإجلال الطارئ ، العناية الإلهية التي نمجدها في كتاب بوسويه « بحث في تاريخ العالم » قد اتجهت بكل الأحداث إلى نتائج محتومة بقضاء هذه العناية الإلهية . ورأى مونتسكيو أن يفتش عن قوانين التاريخ ، مثلما كان نيوتن يبحث عنها في الفضاء : « ليس الحظ هو الذي يحكم العالم ، كما نرى من تاريخ الرومان . . . فثمة أسباب عامة معنوية أو مادية ، تعمل عملها في كل مملكة ، ترفعها أو تحافظ عليها أو تطيح بها ، وكل ما يحدث خاضع لهذه الأسباب . وإذا كان ثمة سبب خاص يعينه ، مثل النتيجة الطارئة لمعركة ما هو الذي قضى على دولة ما ، فهناك

سبب هام جعل سقوط هذه الدولة ينتج عن معركة واحدة . وصفوه القول إن الحركة العامة نجبر معها كل الأحداث الخاصة غير المتوقعة^(٧١) .

وبناء على هذا اختزل مونتسكيو وهبط بدور الفرد في التاريخ . فالفرد مهما عظمت عبقريته لا يعدو أن يكون أداة « الحركة العامة » . ولا ترجع أهميته إلى قدرته الفائقة بقدر ما ترجع إلى ثقائه مصادفة مع ما أسماه هيجل « روح العصر » فلو أن قيصر وبومبي فكرا مثل ما فكر كاتو (سعيًا في الابقاء على سلطة السنااتو الرومان) فربما انتهى آخرون غيرهما إلى نفس أفكارهما . وعند ذلك كانت الجمهورية التي كان مقدرًا عليها الفناء لأسباب داخلية ، تنساق إلى الانهيار على أيد أخرى^(٧٢) .

ولكن « القدر » ليس توجيهها روحيا أو باطنيا ، وليس قوة ميتافيزيقية . انه مجموعة معقدة من عوامل تنتج « الحركة الرئيسية » . والمهمة الأساسية للمؤرخين والفلسفيين ، في رأى مونتسكيو ، هي الكشف عن كل عامل من هذه العوامل وتحليله وتبيان فعاليته وعلاقته . ومن ثم كان سقوط رومة (في نظره) يرجع أولا إلى التحول من جمهورية توفر لها توزيع السلطات وتوازنها ، إلى امبراطورية تصلح أكثر ما تصلح لحكم بلاد تابعة لها ، ولكنها تركز كل الحكم في مدينة واحدة في يد رجل واحد ، مما يدمر حرية ونشاط المواطنين والأقاليم . ويمر الزمن انضمت أسباب أخرى إلى هذا السبب الرئيسى : انتشار الخنوع والحمول بين الجماهير ، رغبة الفقراء في أن تعولهم الدولة ، ضعف الأخلاق بسبب الثروة والترف والفسق والفجور ، تدفق الغرباء الذين تشكلهم التقاليد الرومانية والذين كانوا مستعدين لبيع أصواتهم لمن يدفع أكبر ثمن ، فساد رجال الإدارة المركزيين والمحليين ، خفض قيمة العملة ، فداحة الضرائب ، هجر المزارع ، استنزاف الحيوية العسكرية بسبب الديانات الجديدة وطول أمد السلم ، وفشل النظام العسكرى وسيطرة الجيش على الحكومة المدنية ، إثارة الجيش تنصيب الأباطرة أو خلعههم عن حماسية الحدود من هجمات المتبربرين ومن الجائز أن مونتسكيو — على عكس توكيد بوسويه

على العوامل الخارقة الطبيعية - لم يقيم كبير وزن لتغيير الديانات ، الذى أكدته جييون سيبا أساسيا لانهايار الامبراطورية .

ولكن مونتسكيو كان دوما يعود إلى ما اعتبره العامل الرئيسى فى اضمحلال رومه - وهو التحول من الجمهورية إلى الملكية . ذلك أن الرومان غزوا بفضل مبادئهم الجمهورية ، كثيراً من الشعوب ، ولكن فى الوقت الذى حققوا فيه هذا ، لم تقو الجمهورية على الصمود ، وتسببت فى الاضمحلال مبادئ الحكم الجديد وهى مخالفة لمبادئ الجمهورية (٧٣) . ومهما يكن من شىء فأنا إذا عدنا إلى الفصل السادس لتفحص المبادئ الأساسية أو الوسائل التى قهرت بها الجمهورية الرومانية « كل الشعوب » نجد مجموعة متنوعة غريبه : الخداع ، نقض المعاهدات ، العنف والقوة ، العقوبات الصارمة ، بنر بذور الشقاق بين العدو ليسهل قهره تدريجاً ، (فرق تسد) ، نقل السكان من مكان إلى مكان بالقوة ، تعكير جو الحكومات المناهضة ومحاولة القضاء عليها بتقديم المساعدات للثورات الداخلية ورشوة القائمين بها . وغير ذلك من الاجراءات المألوفة لدى رجال الدولة . واستخدم الرومان حلفاءهم فى القضاء على أعدائهم ، وسرعان ما استداروا ليدمروا هؤلاء الحلفاء (٧٤) وواضح - أن مونتسكيو - ناسبا هذا الوصف للمبادئ الجمهورية أو مزدردا مكيفاللى فى جرعة واحدة - اعتبر فى الفصل الثامن عشر ، الجمهورية مثلاً أعلى للعظمة ، ورئى الامبراطورية منزلقاً بهيجاً للانحلال . ومع ذلك اعترف بفساد السياسة فى الجمهورية وبالعظمة السياسية للامبراطورية فى ظل « حكمة نرفاء ، ومجد تراجعان ، وبسالة هادريان وفضائل الاثنى الاثنتونيين » (٧٥) وهنا وجه مونتسكيو كلا من جييون ورينان إلى تسمية هذه الحقبة « أكرم وأسعد حقبة فى تاريخ الحكومة » . ولدى هؤلاء الملوك الفلاسفة وجد مونتسكيو أيضاً أخلاق الرواقين التى فضلها بصراحة ووضوح على الأخلاق المسيحية ، وانتقل إعجاب مونتسكيو بالرومان فى عهد الجمهورية إلى الفرنسيين المتحمسين للثورة ، وأسهم فى تغيير الحكومة الفرنسية ، والنظم العسكرية والفنون فى فرنسا .

ووقع في الكتاب بعض أخطاء في عمل علمي عجل به ضغط الوقت والرغبة في إنجاز مهمة أضيقهم . فلم يكن مونتسكيو في بعض الأحيان مدققا في استخدام النصوص القديمة . من ذلك ، على سبيل المثال أنه أخذ الفصول التي كتبها ليفي عن « نشأة رومه » على أنها تاريخ ، على حين أن فاللا وجلارونوس وفيكو رفضوا هذه الرواية على أنها أسطورة . ويبخس مونتسكيو من قيمة العوامل الاقتصادية وراء سياسة جراتشي وقيصر ، ولكن في مقابل مواطن الضعف هذه ، فإن نظرة أوسع لا بد أن تحيط ببلاغة الكتاب وقوته وتركيز أسلوبه ، ويعمق التفكير وأصالته ، ومحاولة المؤلف الجريئة في أن يرسم في صورة واحدة ارتفاع وسقوط حضارة كاملة ، ويرفع بالتاريخ من مجرد سجل للتفاصيل إلى تحليل النظم ومنطق الأحداث . وهنا كان ثمة تحد للمؤرخين ، كان على فولتير وجيبون أن يسعيا لمواجهته ، كما كان هنا تلهف على فلسفة للتاريخ قد يحاول مونتسكيو نفسه ، بعد جيل من الكد والجد أن يتبعه بكتاب « روح القوانين » .

٣ - روح القوانين :

مضت أربعة عشر عاما بين ظهور كتاب « النظرات » وكتاب « روح القوانين » بدأ مونتسكيو أروع أعماله هذا حوالي ١٧٢٩ ، وهو في سن الأربعين . وكان موضوع رومه حصيلة جانبية أو ثانوية اعتراضية . وفي ١٧٤٧ حين بلغ السادسة والخمسين لقي من العمل نصبا وكأن به ميلا إلى تركه ، « كثيرا ما شرعت في هذا الكتاب ، وكثيرا ما طرحته جانبا . وقلدت بالأوراق التي كتبها ألف مرة . »^(٧٦) وأهاب بالموزيات ربات الفنون والعلوم أن يرعينه ويساعدنه : « إن الدرب طويل ، ولقد أضناني الأسى والارهاق ، أدخلن على قلبي البهجة والفتنة اللتين تدفعانني إلى السير في الطريق ، لقد عرفتهما يوما ، ولكنهما الآن تخلتا عني أنتن لستن مقدسات مطلقا ، إلا حين تتولين قيادنا ، عن طريق اللذة والسرور ، إلى الحكمة والحق »^(٧٧) . ولا بد أن هؤلاء الربات استجبن لنداده ، لأنه واصل العمل . ولما انتهت المهمة في خاتمة المطاف اعترف بتردده واعتداده بنفسه

وزهوّه : لقد سلكت طريقى نحو الهدف دون إعداد خطة . ولم أعرف أية قاعدة ولا شواذ وما عثرت على الحقيقة إلا لافتقدها ثانية . ولكن عندما وقعت على الأصول والمبادئ ذات مرة واتانى كل ما كنت أفقش عنه ، وفى غضون عشرين عاما ، وجدت أن العمل قد بدأ وخطا خطوات ثم أشرف على الاكتمال ، حتى أنجز . . . وإذا صادف هذا العمل نجاحا ، فأنى سأكون مدينا به لعظمة الموضوع وجلاله . ومهما يكن من أمر ، فلست أظن أنى كنت مفتقرا إلى العبقرية كل الافتقار . ولما رأيت كم من عظماء الرجال فى فرنسا وألمانيا طرّقوا هذا الموضوع قبلى ، تملكنتى الحيرة إعجابا بهم ، ولكن لم أفقد شجاعتى ولم يزايلنى الاقدام ، وقلت مع كوريجيو « وأنا أيضا رسام » (٧٨) .

وعرض المخطوطة على هلفشيوس وهينولت وفونتيل ، ورأى هذا الأخير أن البحث يفتقر إلى طلاوة الأسلوب الفرنسى . (٧٩) وتوسل هلفشيوس إلى المؤلف ألا يسىء إلى سمعته الطيبة بوصفه متحررا بنشر كتاب يتساهل إلى هذا الحد مع كثير من المعتقدات المحافظة المتمسكة بالقديم (٨٠) . وقرر مونتسكيو أن هذه التحذيرات غير ذات موضوع ، وتقدم للطبع . ولما كان يخشى الرقابة الفرنسية فانه أرسل المخطوطة إلى جنيف ، وهناك صدر الكتاب ١٧٤٨ فى مجلدين ، دون ذكر اسمه . وحين كشف رجال الدين الفرنسيون عن هروطقائه شجبوه وصدروا أمر الحكومة بمنع تداوله فى فرنسا . وفى ١٧٥٠ تولى مالشرب - منقلد دائرة المعارف فيما بعد - شئون الرقابة ، رفع الحظر عن الكتاب ، وسرعان ما شق طريقه وصدرت منه اثنتان وعشرون طبعة فى عامين ، وسرعان ما ترجم إلى لغات أوروبا المسيحية .

وكانت العنونات على أيام مونتسكيو توضيحية حقا ، دقيقة غالبا . ولذا سمى كتابه « فى روح القوانين » أو « فى العلاقات التى يجب أن تقوم بين القوانين وبين دستور كل حكومة ، والعادات والمناخ والديانة والتجارة ، وغيرها » . وكان بحثا فى العلاقات بين القوى المادية والأنماط الاجتماعية ، وفى

العلاقات المتبادلة بين مكونات الحضارة . وحاول أن يضع الأساس لما يمكن أن نسميه الآن علم الاجتماع العلمى : « أى — على غرار البحث فى العلوم الطبيعية — التمكن من الوصول إلى نتائج محققة يمكن اثباتها ، تلقى الضوء على المجتمع الحاضر ، وإلى تنبؤات مشروطة للمستقبل . وكان عسبرا بطبيعة الحال ، على رجل واحد أن يتمه مع قصر العمر ، والأوضاع الحالية للتكنولوجيا (علم الأعراق البشرية) والتشريع والتاريخ .

وبمعنى أدق ، كانت فكرة مونتسكيو أن روح القوانين « — أى أصلها وطبيعتها ونزعتها — إنما يحددها أولا مناخ البلد وتربيته ، ثم فسيولوجية الشعب واقتصاده وحكومته ودينه وخلقه وعاداته . وبدأ بتعريف عريض : إن القوانين بأوسع معانيها وأكثرها تعميما هى العلاقات الضرورية التى تنشأ عن طبيعة الأشياء وواضح أنه أراد أن يأتى « بالقوانين الطبيعية » فى العالم المادى ، والاطرادات القياسية فى التاريخ ، تحت مفهوم عام واحد . وعلى غرار جروشيوس وبوفندورف وغيرهما ممن سبقوه ، ميز مونتسكيو بين عدة أنواع من القوانين : ١ — القانون الطبيعى ، الذى عرفه بأنه « عقل إنسانى ، بقدر ما يحكم شعوب الأرض بأسرها » ^(٨١) أى « الحقوق الطبيعية » لكل الناس بوصفهم كائنات وهبت عقلا . ٢ — قانون الأمم فى علاقاتها بعضها ببعض . ٣ — قوانين سياسية تحكم العلاقات بين الفرد والدولة . ٤ — القانون المدنى لعلاقات الأفراد بعضهم ببعض .

وذهب مونتسكيو إلى أنه فى الأطوار الأولى للمجتمع البشرى كان العامل الحاسم فى القوانين هو التضاريس الأرضية : أهى غابة أم صحراء أم أرض منزوعة ؟ أهى أرض داخلية أم ساحلية ؟ أهى جبال أم سهول ؟ وما هو نوع التربة وطبيعة الغذاء الذى تنتجه ؟ وصفوة القول ان المناخ أول العوامل وبالدرجة الأولى أقوى العوامل فى تحديد اقتصاد الشعب وقوانينه (وشخصيته القومية) . (إن بودين فى القرن السادس عشر سبق مونتسكيو إلى هذا التوكيد الأولى كما تبعه فيه بكل فى القرن التاسع عشر) . تأمل على سبيل المثال الفوارق المناخية ، ونتيجة لها الفوارق البشرية ، بين الشمال والجنوب :

إن الناس أكثر نشاطا وحيوية في الأجواء الباردة . . . وهذا التفوق في القوة لا بد أن ينتج آثاراً مختلفة : وعلى سبيل لمثال جرأة أكبر ، أى مزيداً من الشجاعة ، وشعوراً أكبر بالتفوق . أى رغبة أقل في الإنتقام ، وشعوراً أكبر بالأمن أى مزيداً من الصراحة وقدر أقل من الارتياح ومن الدهاء السيامى والمكر . لقد شهدت الأوبرا في إنجلترا وفي إيطاليا حيث رأيت نفس الروايات ونفس الممثلين ، ومع ذلك فإن نفس الموسيقى حدثت آثاراً متباينة في كل من الأمتين ، فأحدهما فاترة رابطة الجأش ، والثانية نشيطة منتعشة مبتهجة . . . وإذا نحن سافرنا إلى الشمال لالتقينا بأناس قلت رذائلهم وكثرت فضائلهم . . . وإذا نحن اقتربنا من الجنوب لتخلينا أننا نبتعد كل الابتعاد عن حدود الأخلاق ، حيث تؤدي أقوى الانفعالات والأهواء إلى شتى أنواع الجرائم ، حيث يبذل كل إنسان أقصى الجهد ، إذا واثته الظروف ، أن يحقق رغباته الجائعة . . . » .

وفي البلاد الحارة نجد الماء الموجود في الدم يضيع إلى حد كبير بسبب العرق ، ومن ثم يجب تعويضه بسائل مماثل ، وللماء هناك فوائد جمّة ، وقد تعمل المشروبات القوية على تخثير كريات الدم الذى يتبقى بعد تبخر الرطوبة المائية . أما في البلاد الباردة فالماء المختلط بالدم قليلا ما يفقد بالعرق ، ومن ثم يجدر أن يستفيدوا من المشروبات الروحية التى بدونها قد يتعثر الدم . . . ومن هنا نجد أن تحريم الشريعة الإسلامية للخمر يلائم بلاد العرب . والقانون الذى حرم على القرطاجيين شرب الخمر قانون مناخى . ومثل هذا القانون لا يصلح للبلاد الباردة حيث يبدو أن المناخ يفرض عليهم لونا من الإدمان على المسكرات بشكل عام . . . وينتشر شرب الخمر على قدر البرودة والرطوبة في الجو^(٨٢) . أو تأمل العلاقة بين المناخ والزواج : إن الإناث في البلاد الحارة يكن صالحات للزواج في سن الثامنة أو التاسعة أو العاشرة . . . ويهرمن في سن العشرين ، ومن ثم فإن عقلهن لا يقترن بجهلهن . وإذا تطلب الجمال السيطرة والتسلط أفسد العقل هسلما المطلوب . وإذا تحلين بالعقل تجردن من الجمال . . . ومن ثم ينبغى أن تكون (م ١١ - قصة الحضارة)

هؤلاء السيدات في حالة من التبعية ، لأن العقل في الشيخوخة لا يمكن أن يوفر السيطرة التي لم يستطع حتى الشباب والجمال أن يحققوها . ولهذا كان طبيعياً إلى أبعد الحدود في هذه البلاد ، إذا لم يكن ثمة قانون يمنع ، أن يترك الرجل زوجة ليتزوج بأخرى وأن يباح تعدد الزوجات .

وفي المناخ المعتدل . حيث تحتفظ النساء بمفاتهن على أكل وجه ، وحيث يتأخر بلوغهن سن النضج ، وينجن في مرحلة متقدمة من الحياة ، نجد أن شيخوخة أزواجهن تتبع شيخوختهن إلى حد ما ، وحيث أنهن كن يتمتعن بقدر أكبر من العقل والمعرفة عند الزواج (أكبر من مثيلتهن في الأقاليم شبه المدارية) ، فإن هذا يستوجب وجود نوع من المساواة بين الجنسين ، وقانون الاقتصار على زوجة واحدة تبعاً لذلك . وهذا هو السبب في أن الإسلام (مع نظام تعدد الزوجات) دخل بسهولة واستقر في آسيا بقدر ما امتد بصعوبة إلى أوروبا ، وأن المسيحية استقرت في أوروبا وتحطمت في آسيا . وقصارى القول ، هذا هو السبب في أن الإسلام أحرز مثل هذا التقدم في الصين ، على حين لم تتقدم المسيحية إلا قليلاً^(٨٣) .

وعند هذه النقطة يتبين مونتكيو أنه أحل المناخ محل العناية الإلهية عند بوسويه ، ويسارع فيضيف أكراما للرب ، احتراساً منقداً : إن عقول البشر على أية حال خاضعة للعلة الأسمى ، الله ، الذي يفعل ما يشاء ، ويخضع كل شيء لإرادته . وظن بعض اليسوعيين أن مونتكيو قد عراه الحجل .

وسرعان ما تابع تعميماه الطائشة . ففي « الشرق » ، (تركيا وإيران والهند والصين واليابان) يرغم المناخ على حجاب النساء وعزلتهن لأن (الهواء الحار يثير الشهوات) وقد يعرض تعدد الزوجات وأحاد به الزواج على حد سواء للخطر إذا أطلق اختلاط الجنسين كما هو الحال في (بلادنا في الشمال حيث عادات النساء فاضلة بطبيعتها وحيث العواطف هادئة ، وحيث يتسلط الحب على القلب تسلطاً ودعياً سوياً إلى حد أن أقل قدر من الحزم والحكمة يكفي لتوجيهه وقيادته)^(٨٤) . إنها لمتعة آية متعة أن تعيش في مثل هذه

الأجواء التي تتيح الحديث وحيث الجنس اللطيف البالغ للفتنة يبدو أنه يزين المجتمع ، وحيث الزوجات اللاتي تقصر الواحدة منهن نفسها على إسعاد رجل واحد ، ويسهمن في إدخال السرور والبهجة على الجميع (٨٥) .

والعادات والأعراف نتائج مباشرة للمناخ أكثر من القوانين ، لأن القوانين ينبغي أن تحاول في بعض الأحيان مقاومة آثار المناخ . وذلك أنه بتقدم الحضارة تتحكم الضوابط الأخلاقية أو القانونية - وينبغي لها أن تتحكم - في العوامل المناخية ، مثال ذلك عزل المرأة وحجابها في الشرق . ويهدف أحكم المشرعين إلى موازنة (الأسباب الطبيعية) . والعادات والأعراف وظيفة الزمان والمكان ، وليس ثمة عادة أو عرف خطأ أو صواب أو أنه الأفضل في حد ذاته . والعرف . في الجملة خير قانون ، لأنه تكيف طبيعي بين الشخصية والموقف ، ويجدر بنا أن نتأني ونسير بخطى وثيدة في تغيير العادة والعرف . وتأني العادة أن تتبدل بالقانون عادة (٨٦) .

وحيث أن الموطن يحدد العادة التي تحدد بدورها الخلق القوي فإن شكل الحكومة لا بد أن يختلف من مكان إلى مكان تبعاً لهذا المركب الثلاثي . وهي تتوقف بصفة عامة على مدى سعة الرقعة الحكومية : فالجمهورية تنسجم مع رقعة صغيرة من الأرض ، يستطيع زعماء المواطنين فيها أن يجتمعوا للتشاور وللتداول أو العمل ، فإذا اتسعت الرقعة تطلبت مزيداً من الحروب ، وخضعت للحكم الملكي . وتتحول الملكية إلى استبدادية إذا حكمت رقعة شاسعة أكثر مما ينبغي لأن السلطة الاستبدادية وحدها هي التي تستطيع المحافظة على خضوع حكام المقاطعات لسلطانها (٨٧) . ويجدر أن تركز الملكية على (الشرف) ، أعني أنه يجب تصنيف سكانها في مراتب ، كما يجب أن يكون مواطنوها متحمسين غاية التحمس لألقاب الشرف والأوسمة وتفضيلهم أو إيثارهم بالخطوة . أما الجمهورية فيجدر أن تقوم على نشر (الفضيلة) على أوسع نطاق ، ويعرف مونتسكيو الفضيلة على طريقته الخاصة بأنها (حب الإنسان لبلده - أعني حب المساواة (٨٨) .

وقد تكون الجمهورية أرستقراطية أو ديمقراطية تبعاً لطريقة حكمها : هل يتولاها قسم من المواطنين أو كلهم . ويعجب مونتسكيو بفنيسيا (البندقية) كجمهورية أرستقراطية . ويمدح الدول القديمة على أنها ديمقراطية وهو يعلم ولكن يتجاهل أن المواطنين المحررين ليسوا إلا أقلية . ويمتدح الحكم الذى أقامه وليم بن فى أمريكا . ويمتدح فى حماسة أكبر انشاء المناطق الشيوعية الدينية التى أسسها اليسوعيون فى باراجواى^(٨٩) . والحق يقال على أية حال إن الديمقراطية الآمنة الحقة لا بد أن تحقق المساواة الاقتصادية والسياسية معاً ، وأن تنظم الموارىث والمهور ، وتعمل على فرض الضريبة التصاعدية على الثروات^(٩٠) . أن خير تلك الديمقراطيات هى التى يعترف فيها مواطنوها بعجزهم عن تحديد السياسة التى تنتهجها بلدهم ، ومن ثم يقرون السياسة التى يحددها ممثلوهم الذين انتخبوهم . وينبغى على الدولة الديمقراطية أن تهدف إلى المساواة ولكن يمكن أن تدمرها روح المساواة المتطرفة ، حين يسعد كل مواطن أن يكون فى مستوى أولئك الذين اختارهم ليأتمروا بأمرهم وإذا كان هذا هو الوضع فلن تقوم للفضيلة قائمة فى الجمهورية . فهنا يكون المواطنون راغبين كل الرغبة فى ممارسة مهام الحكام الذين لا يعود لهم أى توقيير أو احترام . وهنا يكون الاستخفاف بمداولات السناتور ، ومن ثم لا يكون هناك احترام لأعضائه ، ولا احترام لكبر السن ، وإذا انعدم التقدير والاحترام لكبر السن انعدم تبعاً لذلك الإذعان للوالدين أو الأزواج والامثال للرؤساء .

وسرعان ما تتفشى هذه الظاهرة . إن الناس إذ يصابون بهذا البلاء يحاولون التستر على فسادهم ، يسعون إلى افساد من وضعوا ثقتهم فيهم ... وعندئذ يقتسمون الأموال العامة فيما بينهم ، فإذا استأثروا بإدارة الأمور بالإضافة إلى تكاسلهم وتراخيهم ، انصرفوا إلى مزج فقرهم بشيء من الهو الترف^(٩١) .

وهكذا يقول البارون ، مردداً قول أفلاطون عبر ألفين من السنين : تنقلب الديمقراطية إلى فوضى . ثم إلى دكتاتورية ، ثم تنهار .

وهناك في مونتسكيو أجزاء كثيرة تحبذ الجمهورية الأرستقراطية ، ولكنه خشى الاستبدادية التي ذهب إلى إمكان قيامها في الديمقراطية إلى حد أنه كان يريد الصبر عليها أو تحملها إذا كانت هذه الجمهورية تحكم وفقاً لقوانين راسخة . ويعالج أقصر فصول كتابه الحكم المطلق الاستبدادي وهو يتألف من ثلاث مقالات قصيرة : « إذا أراد متوحشو لوزيانا ثماراً قطعوا الشجرة من جذورها ليجمعوا الثمار ، وهذا رمز للحكومة الاستبدادية ^(٩٢) » أي أن الحاكم المستبد يستأصل أعظم الأسرار كفاية ومقدرة ليحمي قوته وسلطانه . وكانت الأمثلة التي أوردها لهذا شرعية بشكل يطمأن إليه . ولكن كان من الواضح أنه يخشى نزوع ملكية البوربون إلى الاستبداد . حيث كان الكاردينال ريشيليو ولويس الرابع عشر قد دمرا قوة الارستقراطية السياسية . وتحدث عن ريشيليو وكأنه « مأخوذ بحب السلطة المطلقة ^(٩٣) » . أنه كره أشد الكراهية بوصف كونه نبيلاً فرنسياً ، أن يهبوا بمكانة طبقته إلى مجرد أفراد في الحاشية الملكية ، واعتقد أن بعض القوى المتوسطة الخاضعة التابعه ، ضرورة لحكومة صحيحة وكان يعنى بهذه القوى النبلاء مالكي الأرض والحكام الوراثيين ، وكان ينتسب إلى كليهما . ومن ثم دافع عن النظام الإقطاعي بتفصيل شديد (١٧٥٣ صفحة) ، مضحياً بوحدة كتابه وتناسقه . إن مونتسكيو هو الوحيد من بين فلاسفة فرنسا في القرن الثامن عشر الذي امتدح نظام العصور الوسطى ، واتخذ من لفظة « قوطى » ، تعبيراً عن الثناء والاطراء . وفي الصراع الذي استمر طوال حكم لويس الخامس عشر بين الملكية والبرلمانات اتخذ الحكام الذين يعدون للمعركة مصنعاً للحجج والأسانيد في « روح القوانين » .

إن نفور مونتسكيو من الحكومة المطلقة مطية للحكم المطلق أدى به إلى تحييده حكومة مختلطة : فيها ملكية وأرستقراطية وديموقراطية معاً - ملك ونبلاء وجمعية عامة . ومن هنا كان أشهر آرائه ، نظرية الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية في الحكومة ^(٩٤) . فالسلطة التشريعية تسن

القوانين لكن لا تتولى تنفيذها ، وتتولى السلطة التنفيذية القيام على تنفيذها ولكن لا تنسها . وتقتصر السلطة القضائية على تفسيرها . « وتضم السلطة التشريعية مجلسين ، مجلس يمثل الطبقات العليا ، وآخر يمثل العامة . وهنا يتحدث البارون ثانية .

في مثل هذه الدولة يوجد دائماً أناس يتميزون بحكم مولدهم وثرواتهم وألقابهم ، فإذا تساوا واخلطوا بعامة الشعب ، فلا يكون لهم إلا صوت واحد مثل الباقين ، فإن الحرية العامة تكون بمثابة استرقاق لهم ، ومن ثم يفقدون اهتمامهم بمساندة الحكم ، وتكون معظم القرارات الشعبية في غير مصلحتهم . ويجدر أن يتناسب نصيبهم مع سائر امتيازاتهم في الدولة ، وهذا يحدث فقط حين يشكلون هيئة في الدولة يكون لها الحق في مقاومة إساءة استعمال الشعب للسلطة في الدولة ، كما يكون للشعب الحق في مقاومة أى اعتداء على حرية الشعب . ومن هنا تكون السلطة التشريعية في أيدي النبلاء وأيدي الذين ينتخبهم الشعب ، على أن يكون لكل هيئة اجتماعاتها ومداولاتها منفصلة عن الأخرى ، ولكل صلاحيتها وآراؤها (٩٥) .

وتكون كل من الهيئات الثلاث وكل من المجلسين رقيباً بعضهم على بعض ، وبهذه الطريقة المعقدة تلتئم حريات المواطن مع حكمة الحكومة وعدالتها ونشاطها :

وكانت هذه الأفكار عن الحكومة المختلطة قد انحدرت إلى مونتسكيو من دراسته لهارنجتون وألجرونو وسيدنى ولوك ، ومن الخبرة التي اكتسبها في إنجلترا . إنه ذهب إلى أنه وجد هناك مثله الأعلى مهما كان منقوصاً ، في ملكية تكبح جماحها ديموقراطية في مجلس العموم ، كما يكبح جماح مجلس العموم الأرستقراطية في مجلس اللوردات . وظن أن المحاكم في إنجلترا هي بمثابة كابح مستقل للجماح البرلمان والملك وامتدح ما كان قد رأى في إنجلترا رقابة نشطة فيلد وغيره من النبلاء ولكنه مثل فولتر استخدم هذا الشكل المثالي حافزاً لفرنسا . ولا بد أنه عرف أن المحاكم الإنجليزية ليست مستقلة تمام الاستقلال عن البرلمان ، ولكنه ذهب إلى أنه من الخير لفرنسا أن

تفكر في الأخذ بحق المتهمين في إنجلترا تحقيق عاجل ، أو إطلاق سراحهم بكفالة ، ومحاكمتهم أمام محلفين من طبقتهم ، مع تحدى الاتهام ، وإعفائهم من التعذيب ، ولكنه رأى كذلك « ألا يدعى النبلاء للمثول أمام المحاكم العادية بل أمام قضاة من نفس طبقتهم في هيئتهم . » لأنهم كذلك لهم الحق في محاكمتهم أمام نظرائهم ^(٩٦) .

إن مونتسكيو أصبح محافظاً أكثر فأكثر مع تقدمه في السن . إن روح المحافظة على القديم رسالة والنزاع في الشيخوخة ، كما أن الراديكالية ، (التطرف) رسالة نافعة في الشباب ، والاعتدال هبة وخدمة في أواسط العمر ، ومن ثم كان لنا دستور في ذهن أمة ، بما فيه من سلطات ذات قيود وضوابط متبادلة وعرف مونتسكيو الحرية مع كل تعجيد لها بوصفها الهدف الصحيح للحكومة . بأنها « حق كل إنسان في عمل ما تجيزه القوانين فإذا أتى مواطن شيئاً تحرمه القوانين ، فإنه لا يعود يتمتع بالحرية . لأن سائر المواطنين يمكن أن يكون لهم نفس الصلاحية ^(٩٧) . » واتفق مع زميله جاسكون ومونتاني . على استنكار الثورات . « إذا ثبت شكل الحكومة واستقر منذ أمد بعيد ، وبلغت الأمور حداً معيناً من الثبات والاستقرار ، فإنه من الحكمة تقريباً أن تترك الأمور كما هي ، لأن الأسباب — هي غالباً معقدة أو غير معروفة — التي هيأت لها الصمود والثبات ، سوف تستمر في الإبقاء عليها (أى على هذه الحكومة ^(٩٨)) .

ورفض فكرة المساواة في الملكية أو السلطة ولكنه فكر ، مثل جراتسي في تركيز ملكية الأرض : « من الأرض التي تكفى لتغذية أمة . . . لا تكاد تحصل عامة الشعب على ما يقوت أسرهم . . . فإن رجال الدين والأمير والمدن وعظماء الرجال وبعض البارزين من المواطنين يصبحون دون أن يحسوا ملاكاً لكل الأرض التي تبقى غير منزرعة . وتهجر الأسرات التي دمرت مزارعها ، والرجل الكادح معدم فقير . وفي هذا الوضع يجدر بالهيئة الحاكمة أن توزع الأرض بين الأسرات المحتاجة وتوفر لها المواد والأدوات اللازمة لإصلاحها وزراعتها ، وينبغي أن يستمر التوزيع ما دام هناك من يتسلمها ^(٩٩) .

واستنكر زراعة الأرض من أجل جباة الضرائب لحساب رجال المال
الخصوصيين ، واستنكر الرق بشدة في حماسة أخلاقية وتهكم لاذع (١٠٠) .
واعترف بالضرورة الطارئة للحرب ، وامتد بمفهوم الدفاع إلى إجازة -
المسارعة إلى الاستيلاء على الأراضى : إن حق الدفاع الطبيعي قد ينطوى
أحياناً بالنسبة للدولة ما على ضرورة الهجوم ، كما يرى بعضهم على سبيل
المثال أن حفظ السلام قد يمكن دولة أخرى من تدمير هذا السلام ، وعندئذ
يكون غزو هذه الأمة الأخيرة هو السبيل الوحيد للحيلولة بينها وبين تدمير
السلام (١٠١) .

ولكنه استنكر سباق التسلح : ولقد ساد الاضطراب من جديد كل
أوروبا ، فأصاب أمراءها وأغرامهم بحشد قوات هائلة ، ولهذا مضاعفاته ،
ويصبح بالضرورة مهدداً ، فإنه إذا شرع ملك في زيادة قواته ، فإن الباقين
بطبيعة الحال يحذون حذوه . ومن ثم لا ننجي من هذا إلا الدمار الشامل (١٠٢) .

وعلى الرغم من أنه قدر الروح الوطنية أكبر تقدير إلى حد أنه سوى
بينها وبين الفضيلة ، إلا أنه راوده في بعض الأحيان حلم مبادئ أخلاقية
أرحب أفقاً : « إذا علمت أن ثمة شيئاً نافعاً لشخصي ولكنه يضر بأسرتي ،
فينبغي على ألا أقدم عليه . وإذا علمت أن ثمة شيئاً نافعاً لشخصي . ولكنه
يضر بأسرتي ، وليس لوطني ، فيجدر بي أن أحاول أن أنساه . وإذا رأيت
أن شيئاً ذا فائدة لوطني ، ولكنه يضر بمصلحة أوروبا والجنس البشري
فلا بد أن أعتبره جريمة رسمية (١٠٣) » .

إن غاية ما يصبو إليه من مبادئ أخلاقية وديانة خفية هو مذهب
الرواقيين القدامى : « لم توجد قط مبادئ أكثر منها إلتزاماً مع الطبيعة
البشرية ولا أقوم منها لبناء المواطن الصالح . . . وإذا استطعت أن أنحلي
عن المسيحية لحظة لوصفت القضاء على مذهب زينون مؤسس مذهب
الرواقيين محنة من بين المحن التي ابتلى بها الجنس البشري . . . إن هذا
المذهب وحده هو الذي صنع المواطنين . وهو وحده الذي صنع عظماء
الرجال وهو وحده الذي صنع الأباطرة . وإذا نحينا جانباً الحقائق التي

كشفت عنها لحظة ، وفنشنا في الطبيعة كلها فإننا لن نجد شيئاً أسمى من الانطونيين ، حتى ولا جوليان نفسه (وهو إطرأ انتزع منى أرجو ألا يجعلنى شريكاً في جريمة الردة) .

كلا ، لم يوجد قط منذ عهده أمير أجدر يحكم الجنس البشرى ^(١١٤) وواضح أن مونتسكيو حرص في « روح القوانين » على مسألة المسيحية لأنه اعترف بوجود الله — فأى حق أرفع من قضاء وقدر أعمى خلق كائنات ذكية ^(١١٥) . ولكنه تصور هذا العقل الأسمى كما عبرت عنه قوانين الطبيعة ، وهو لا يتدخل فيها مطلقاً . قال فاجيه « إن الله بالنسبة لمونتسكيو هو روح القوانين ^(١١٦) » ، وقبل المعتقدات الخارقة للطبيعة دعامة ضرورية لقانون أخلاقى لا يلتزم مع طبيعة الإنسان . « ومن الخير أن يكون هناك بعض كتب مقدسة لتكون شريعة مثل القرآن عند المسلمين ، وكتب زردشت عند الفرس ، والفيذا عند الهنود ، والكتب القديمة عند الصينيين . إن الشرائع الدينية تكمل القوانين المدنية ، وتحدد مدى السيطرة الاستبدادية ^(١١٧) » . وينبغي أن تكون الدولة والكنيسة رقيباً كل منهما على الأخرى ، كما ينبغي أن تظل كل منهما منفصلة عن الأخرى . وهذا التفريق الكبير بينهما هو أساس هدوء الأمم ^(١١٨) . ودافع مونتسكيو عن الدين ضد بيل ^(١١٩) . ولكنه أخضعه ، مثل أى شيء آخر لتأثير المناخ والخلق القوي : « إن حكومة معتدلة هي أصلح ما يكون للعالم المسيحى ، والحكومة المستبدة أصلح للعالم الإسلامى . وإذا اختيرت ديانة تلائم مناخ بلد ما ، تتعارض مع مناخ بلد آخر فإن هذه الديانة لن تقوم في هذا البلد الثانى ، وإذا أدخلت كان مآلها النبد والرفض ^(١٢٠) والمذهب الكاثولىكى أكثر ما يكون توافقاً مع الملكية ، والبروتستانتية مع الجمهورية وإذا انقسمت المسيحية لسوء الحظ إلى كتلكة وبروتستانتية ، فإن أهل الشمال يعتقدون البروتستانتية ، على حين يغلب أهل الجنوب متمسكين بالكاثوليكية والسبب واضح . فإن أهل الشمال يتمسكون ، وسيظلون يتمسكون إلى الأبد بروح الحرية والاستقلال ، وهذا ما لا يتمتع به أهل الجنوب . فإن الديانة التى لا يكون لها رئيس بارز هي أكثر ملاءمة لهم ^(١٢١) .

وعلى حين سلم مونتسكيو بمزايا الدين إجمالاً فلأننا نراه يسبب في نقده ، واستنكر شراء رجال الدين في فرنسا ^(١١٢) . ودون « أفطع احتجاج على محاكم التفتيش في اسبانيا والبرتغال ، لوقف احراق المهرطقين ، وحذرهم من أنه « إذا تجرأ أحد في الأجيال القادمة أن يثبت أن الناس في أوروبا في عصرنا كانوا متحضرين ، فإنه لابد أن يمثل أمام القضاء ليثبت أنهم كانوا متبربرين ^(١١٣) » ومخر بوصفه قوطياً محباً لوطنه ، من عصمة البابا من الخطأ وألح في أن تكون الكنيسة خاضعة للسلطة المدنية ، واتخذ بالنسبة للتسامح الديني موقفاً وسطاً : « إذا كان للدولة مطلق الحرية في اعتناق أو نبذ أى دين جديد ، فينبغي أن ترفضه ، فإذا اعتنقته وجب عليها أن تتسامح معه ^(١١٤) . ومع كل احترامه للرقب ظل مونتسكيو عقلاً نبياً ، فالعقل هو أكمل وأكرم وأجمل ملكاتنا ^(١١٥) » . وماذا يقدم عصر العقل شعاراً أفضل من هذا ؟ .

٤ - النتيجة :

ما أسرع ما اعترف الناس « بروح القوانين » حدثاً ضحماً في الأدب الفرنسي ، ولكن النقاد تلقفوه عن اليمين وعن الشمال . فالجانسونيون واليسوعيون ، وهم على طرفي نقيض عادة ، اتفقوا على مهاجمته على أنه رفض ماكر خبيث للمسيحية . وقالت جريدة « أخبار الكنيسة » وهي لسان حال أتباع جانسن : « إن الجمل المعترضة التي يضعها المؤلف ليقول لنا إنه مسيحي تؤكد لنا توكيداً هزئياً أنه كاثوليكي ، وإن المؤلف ليسخر من سداجتنا إذا حسبناه على غير ما هو عليه » . وختم المحرر حديثه بنداء وجهه إلى السلطات المدنية باتخاذ إجراء ضد الكتاب ^(١١٦) . واتهم اليسوعيون مونتسكيو باتباعه فلسفة سبينوزا وهوبز ، بافتراضه وجود قوانين في التاريخ مثلما هي في العلوم الطبيعية ، ولم يترك مجالاً لحرية الإرادة . ودافع الآب برتويه في صحيفة « تريفو » اليسوعية عن أن الحق والعدل مطلقان ، وليسا نسبيين تبعاً للمكان والزمان ، وإن القوانين يجب أن ترتكز على مبادئ عامة من الله . لا على تنوعات المناخ والتربة والعرف والخلق القومي ^(١١٧)

ورأى مونتسكيو أنه من الحكمة أن يصدر في ١٧٥٠ * دفاعاً عن روح القوانين » ، تتصل فيه من الحاد والمادية والجبرية ، وأكد من جديد مسيحيته . ولكن رجال الدين ظلوا غير مقتنعين ٥

وكان الفلاسفة الناشئون في ذات الوقت مستائين ، حيث اعتبروا روح القوانين كتيباً في المحافظة على القديم ، واستاءوا من ورعه العارض وإعتدال إصلاحاته المقترحة ، ومفهومه الهزيل الفاتر عن التسامح المبنى (١١٨) . وكتب هلفشيوس إلى مونتسكيو يعنفه على تركيزه الشديد على أخطار التغيير الاجتماعي والمصاعب التي تعترضه (١١٩) . أما فولتير الذي كان يعد كتابه عن فلسفة التاريخ في بحث « في الاعراف » ، فإنه لم يكن متحمساً لعمل مونتسكيو . ولم يكن قد نسي معارضة السيد الرئيس لإنضمامه إلى الأكاديمية بقوله : عار على الأكاديمية أن يكون فولتير عضواً فيها ، وسيكون العار عليه يوماً ما ألا يكون عضواً فيها (١٢٠) .

وتوقف نقد فولتير تحت ضغط الظروف ، وتحول إلى إطراء غير متحمس واعتراض بأن مونتسكيو كان مبالغاً في تأثير المناخ . ولاحظ أن المسيحية نشأت في أرض اليهود الحارة ، وأنها لا تزال مزدهرة في النرويج القارصة البرد ، ورأى أنه من الأرجح أن انجلترا تحولت إلى البروتستانتية لأن آن بولين كانت جميلة ، لا لأن هنري الثامن كان فاتراً (١٢١) . وإذا كانت روح الحرية نشأت — كما ذهب إليه مونتسكيو ، في الأقاليم الجبلية ، فكيف تفسر قيام الجمهورية الهولندية القوية ، أو « حق اعتراض » ، اللوردات البولنديين (وفي التماموس الفلسفي) دون صفحات كثيرة تتضمن أمثلة تدل على أن للمناخ بعض الأثر ، ولكن للحكومة أثراً أكبر منه مائة مرة ولكن للديانة والحكومة معا ، أثراً أكبر من هذا بكثير (١٢٢) . إننا لنسأل الذين يؤمنون بأن المناخ يفعل كل شيء (لم يزعم مونتسكيو هذا) لماذا يقول الإمبراطور جوليان في رسائله إن الذي سره في الباريسيين هو خلقهم الوقور وعاداتهم الصارمة ، ولماذا نرى الباريسيين الآن ، دون أدنى تغيير في المناخ ، أطفالاً لعوين هازلين ، وهو أمر تعاقبهم عليه الحكومة وتسخر

منهم من أجله ، في نفس الوقت ، كما أنهم هم أنفسهم يسخرون ، في لحظة تالية من سادتهم ويهجونهم هجاء لا ذعاً (١٧٣) .

ووجد فولتير الجواب :

إنه الانقباض أو الاكتئاب ، وهو عكس ما يرددونه في كثير من الاستشهادات والحكم والأمثال ، ولكنه دائماً الحقيقة تقريباً . . . « فالناس في المناطق الحارة جبناً مثل العجائز ، أما في المناخ البارد فهم شجعان مثل الشبان » . « إننا يجدر بنا أن نكون على حذر من أن بعض القضايا العامة . تفلت منا ، وما كان في مقدور أحد أن يجعل من سكان لابلند أو الأسكيمو محاربين على حين أن العرب فتحوا في ثمانين عاماً من الأقاليم ما فاق فتوحات الإمبراطورية الرومانية بأسرها (١٧٤) .

ثم يمتدح فولتير « روح القوانين » فيقول : « بعد أن أفنعنا أنفسنا على هذا النحو بأن الأخطاء كثيرة في ، « روح القوانين » . . . » وأن هذا العمل ينقصه النهج ، كما تعوزه خطة العمل والنظام ، فقد يليق بنا أن نتساءل ما الذي أضفى عليه هذه القيمة الكبيرة ، وأدى إلى شهرته العظيمة . إنه في المقام الأول مكتوب بذكاء عظيم ، على حين أن من ألفوا في هذا الموضوع كانت كتاباتهم مملة تبعث على السأم والضجر . وعلى هذا الأساس رأيت لإحدى السيدات (مدام دي ديفان) وهي تتمتع بذكاء مثل ذكاء مونتسكيو أن الكتاب هو « الذكاء في القوانين » ، وهو أصبح تعريف له . وثمة سبب أقوى وهو أن الكتاب يعرض وجهات نظر أو آراء عظيمة ويهاجم الطغيان والخزافة والضرائب الفادحة . . . إن مونتسكيو كاد أن يكون على خلاف مع العلماء لأنه ليس عالماً ، ولكنه كان دائماً على حق تقريباً ضد المتعصبين ومتعهدي الرقيق . أن أوروبا مدينة له بالشكر والامتنان على الدوام (١٧٥) .

وأضاف في موضع آخر : « إن الإنسانية كانت قد ضيعت أعمالها المجيدة (من أجل الحرية) واستردها مونتسكيو (١٧٦) .

واتفق النقد المتأخر مع فولتير إلى حد كبير على حين اعترض تلي

مبالغاته (١٢٧) . حقاً إن أسلوب الكتاب كان ضميمياً ، مع قليل من المنطق . في ترتيب الكتاب وتسلسل موضوعاته ونسيان للفكرة الأساسية التي تحكم الربط بين أجزائه . وفي نمحس مونتيكيو ليكون عالماً ، يجمع الحقائق ويفسرها ، لم يعد فنناً . أنه ضيع الكل في الأجزاء ، بدلا من تنسيق الأجزاء في كل منسق . وكان قد قضى في جمع مادة الكتاب أكثر من نصف عمره ، وكتبه في نحو عشرين عاماً ، وأساء التأليف المتقطع إلى وحدة الكتاب ، وتسرع في الوصول إلى أحكام عامة من أمثلة قليلة ولم يفتش عن أمثلة تنقضها - مثال ذلك أيرلندا الكاثوليكية في الشمال البارد ومن ثم يجب أن تكون بروتستانتية وتحلى من منهجه حين قال : « لقد وضعت المبادئ الأولى ووجدت أن الحالات الخاصة لا بد أن تكون صحيحة بالضرورة بشكل طبيعي ، وأن تاريخ كل الأمم ليس لإنتاج لهذه المبادئ » فهذا هو خطر تناول التاريخ بفلسفة يثبتها عن طريق هذا التاريخ وعند جمع مادة الكتاب قبل مونتيكيو كل بيانات السائحين دون تحقيق ولا تدقيق ، وفي بعض الأحيان أخذ الخرافات والأساطير على أنها تاريخ ، بل أن ملاحظاته المباشرة كان يمكن أن تكون خاطئة ، ومن ذلك أنه رأى « فصلا بين السلطات » في حكومة إنجلترا على حين أنه كان من الواضح أن السلطة التشريعية هناك كانت تغطي على السلطة التنفيذية .

وإلى جانب هذه الأخطاء لا بد أنه كان للكتاب مزايا أدت إلى الترحيب به وتأثيره . إن فولتير حدد أسلوبه بحق ، على أن الأسلوب أيضاً عانى من شطايا المعلومات لا المعلومات الكاملة المستوفاة . وأولع مونتيكيو بالفصول القصيرة وربما كان هذا وسيلة للتركيز ، مثال ذلك الفصل الذي كتبه عن الحكم الاستبدادي المطلق ، مما أدى إلى التقطع وعدم الترابط مما عوق تدفق الفكرة . وربما كان جزء من عدم استيفاء البحث راجعاً إلى تفاقم ضعف بصره مما إضطره إلى الإملاء بدلا من الكتابة . وعندما كان يتمتع بكامل قوته وحيويته حقق في عبارات قوية واضحة بعضاً من الاشراف والروعة في الرسائل الفارسية . ويروى فولتير أن في « روح القوانين من العبارات الساخرة أكثر مما يليق بكتاب في القانون . يقول

مونتسكو « إن الناس في فينيسيا مقترنون غاية التقدير إلى حد أنه من أجل الموسسات وحدهن يستطيع الرجال أن يغادروا البيت ومعهم نقود (١٢٨) » . وهذا ، على الرغم من كل شيء ، أسلوب وقدر معتدل هادىء وهو فى بعض الأحيان غامض ولكنه يعوض عن حل الألغاز .

وكان مونتسكيو متواضعا كما كان مصيبا فى أنه أرجع جزءا من قيمة الكتاب إلى موضوعه وهدفه . أنك لى تعثر على قوانين فى القوانين ، وعلى نظام فى تنوعها تبعاً للمكان والزمان ، ولى عمل على تنوير الحكام والمصلحين عن طريق دراسة مصادر التشريع وحدوده بالنسبة لطبيعة ومكان الدول والناس - فهذا عمل جليل ضخم تقتضى ضخامته وجلاله الصفح عن الزلات . وأخفق هربرت سينسر فى نفس هذا العمل بعد ذلك بمائة وثمانية وأربعين عاما ، وعلى الرغم من عدد كبير من معاونين فى البحث ، وبسبب نفس الرغبة فى استخلاص أحكام عامة ، ولكن كلنا المحاولين كأننا زيادة فى الحكمة . ولكن كتاب مونتسكيو كان أفضل وهناك أناس سبقوه ولم يكن هو البادىء (٥) بالتأليف فى هذا الموضوع ، ولكنه جعل بوضع المنهج التاريخى بقوة للدراسة المقارنة للنظم . ولقد سبق فواتير فى وضع فلسفة للتاريخ مستقلة عن الأسباب الخارقة للطبيعة وبلغ آفاقا واسعة ونزاهة فى الرأى لم يبلغها فولتير . إن بيرك أطلق على مونتسكيو « أعظم عبقرية نورت هذا العصر (١٣٠) » واعتبره بين تين أعقل وأحكم وأكثر الرجال اتزاناً فى هذا العصر (١٣١) ورأى هوراس ورلبول أن روح القوانين أحسن كتاب ظهر على الإطلاق (١٣٢) وقد لا يكون هذا صحيحا ولكنه أحسن كتاب ظهر فى هذا الجيل .

لقد أنهك هذا الكتاب مؤلفه . وكتب إلى أحد الأصدقاء : أعترف لك أن هذا الكتاب قتلى . سأأخذ إلى الراحة ولن أعمل شيئا بعد الآن (١٣٣)

(٥) أبقرات : الهواء والماء والأماكن . ارسطو : دساتير أثينا . ميكافيللى : المقالات . يودين منهج لتيسير بعض المعلومات التاريخية .

وعلى الرغم من ذلك استمر يدرس ويبحث . وكان يقول « الدراسة بالنسبة لي هي خير علاج لكل خيبة أمل في الحياة . ولم أجد ضيقا إلا فرج من كربته ساعة قضيتها في القراءة (١٣٤) » .

وزار باريس من حين لآخر وسعد بشهرته هناك التي كانت تضارع شهرة فولتير آنذاك (١٧٤٨) . ويقول رينال لقد جذب كتاب روح القوانين انتباه كل الشعب الفرنسي . اثنا نجده في مكتبات علمائنا ودارسينا وعلى منضدة زينة سيدائنا وعند كل شبابنا المتألق (١٣٥) ورحبوا بالمؤلف من جديد في الصالونات واستقبلوه في البلاط الملكي ، ولكنه قضى معظم الوقت في لا برير حيث قنع بأن يكون سيذا عظيما . وسر الانجليز بالكتاب أيما سرور حتى أنهم طلبوا منه أعدادا وفيرة . وفي سنه الأخيرة كاد أن يصاب بالعمى ، وكان يقول « يبدو لي أن الأثر الخفيف من البصر الذي بقي لي ليس إلا فجر اليوم الذي تغلق فيه عيني إلى الأبد (١٣٦) » وفي ١٧٥٤ قصد إلى باريس لانهاء إيجار بيته هناك ، ولكنه أثناء تلك الزيارة أصيب بالتهاب رئوي وقضى نحبه في ١٠ فبراير ١٧٥٥ وهو في السادسة والستين وتناول الأسرار المقدسة الكاثوليكية . وكان الأديب الوحيد للذي شيع جنازته هو ديدرو وهو من أتباع مذهب اللا أدرية (١٣٧) وذاع صيته وامتد أثره على مر القرون . وكتب جييون : « على مدى الأربعين عاما منذ صدور روح القوانين لم يقبل الناس على قراءة كتاب أو نقله أكثر منه . وليست روح البحث والتحقيق التي أثارها أقل مآثر الكاتب علينا (١٣٨) » وكان جييون وبلاكستون وييرك من بين من أفادوا من روح القوانين وعظمة الرومان واضمحلالهم وعده فودريك الأكبر أحسن كتاب بعد كتاب الامير ، ورأت كثيرين الكبري أنه ينبغي أن يكون كتاب الصلوات اليومية لدى الملوك (١٣٩) واقتبست فقرات منه للرجال الذين عينهم لمراجعة القوانين الروسية . ولم ينقل واضعوا مسودة الدستور الأمريكى عن مونتسكيو نظرية فصل السلطات فحسب بل استبعاد أعضاء الوزارة من الكونجرس كذلك .

وقضمت كتاباتهم كثيرا من الاقتباسات من الكتاب . وأصبح روح القوانين الكتاب المقدس عند الزعماء المعتدلين في الثورة الفرنسية تقريبا ونشأ عن كتاب عظمة الرومان واضمحلالهم بعض أعجابهم بالجمهورية عند الرومان . ويقول فاجيه أن كل الأفكار الحديثة العظيمة بدأت بمونتسكيو^(١٤١) وعلى مدى جيل من الزمان كان مونتسكيو ، لا فولتير ، هو صوت العقل وبطله في فرنسا .

الفصل الحادى عشر

فولتير فى فرنسا

١ - فى باريس : ١٧٢٩ - ١٧٣٤

لدى عودة فولتير من إنجلترا فى أواخر عام ١٧٢٨ أو أوائل عام ١٧٢٩ اتخذ مسكنا مغمورا فى حى سان جرمان - ان لى - على بعد ١١ ميلا إلى الشمال الغربى من باريس ، وحشد أصدقاءه لينشروا أنباء غير رسمية عن إلغاء قرار نفيه من فرنسا ثم من العاصمة ، ونجحوا فى هذا ، بل فى استعادة معاشه الملكى كذلك . وما حل شهر أبريل حتى ظهر فجأة ، وأخذ يجول خلال العاصمة . وفى أحد الاجتماعات سمع أن العالم الرياضى كوندامين حسب أن من يشتري كل أوراق « اليانصيب » التى تصدرها باريس لا بد أن يحقق ثراء ، فأسرع فولتير واقترض نقودا من رجال المصارف من أصدقائه ، واشترى كل الأوراق ، فكان ما تنبأ به العالم الرياضى ، ولكن المراقب العام للحسابات رفض الدفع ، فرفع فولتير دعوى أمام القضاة وكسب القضية وتسلم المبلغ (١) وفى أخريات عام ١٧٢٩ قطع ١٥٠ ميلا فى ليلتين ونهار واحد من باريس إلى نانسى ليشتري أسهما فى مشروع دوق اللورين ، وعادت عليه هذه المغامرة بأرباح طائلة . وهكذا أعان فولتير مدير الأعمال المالية فولتير الشاعر الفيلسوف .

ونراه فى ١٧٣٠ مرة أخرى فى باريس مفتونا إلى حد الجنون بالمغامرات والمشروعات . وكان لديه عادة عدة أعمال أدبية قيد الانجاز فى وقت واحد ، يتنقل من واحد إلى الآخر ، ولذة الهوى فى التنقل ، دون أن يضيع وقتا . وكان آنذاك يكتب رسائل عن الانجلىز وتاريخ شارل الثانى عشر « موت الأنسة ليكوفرير » ، والصفحات الأولى فى الغادة العذراء . وذات يوم ١٧٣٠ اقترح عليه زوار الدوق دى ريشيليو وهم (م ١٢ - قصة الحضارة)

يتحدثون عن جان دارك أن يكتب لها تاريخاً ، ولم يكونوا بعد في فرنسا قد اعترفوا بها قديسة حامية لفرنسا . وبدأ للمفكر الحر فولتير أن العناصر الخارقة للطبيعة في أسطورة جان دارك تشد انتباهه إلى معالجة تاريخها معالجة فكاهية . فتحدها ريشيليو أن يحاول ذلك ، وكتب فولتير المقدمة في تلك الليلة ، ولم تكن ميرثته في ليكوفير قد نشرت بعد ، ولكن صديقه الأخرق نيقولا ثيوريو كان قد قرأها على الملأ على أوسع نطاق . وأستأنفت الأصوات اللاهوتية البغيضة طينها المزعج حول رأس فولتير .

وفي ١١ ديسمبر وكأنما كان فولتير ظمأنا إلى كسب الأعداء ، أخرج قصته لوسيوس جينيوس بروتوس الذى أطاح طبقاً لرواية ليفي بعرش الملك تاركينيوس وأسهم في إقامة الجمهورية الرومانية ، وأنكرت المسرحية على الملوك قديستهم وعدم جواز انتهاك حرمانهم ، ونادت بحق الشعب في تغير حكامه . وشكا الممثلون من أن الرواية خالية من فكرة الحب ووافقت باريس على أنها بدعة خرقاء سخيفة . وسميت المسرحية بعد عرضها ١٦ مرة . وبعد اثنين وستين عاماً أعيد تمثيلها من جديد ، لأن باريس كانت آنذاك تواقه إلى مشاهدة مقصلة لويس السادس عشر .

وفي نفس الوقت كان فولتير قد حصل على ترخيص ملكي بنشر « تاريخ شارل الثاني عشر ملك السويد » . وهنا كان الموضوع لا يكاد يسيئ إلى لويس الخامس عشر أو الكنيسة ، كما يسر الملكة ، لأن الرواية تناولت موقف أبيها ستانسلاس بشكل لائق كريم . وظهرت طبعة من ٢٦٠٠ نسخة في الوقت الذى ألغى فيه الترخيص الملكى دون سابق إنذار ، وصودرت كل النسخ فيما عدا واحدة احتفظ بها فولتير . واحتج فولتير لدى حامل الاختتام فأبلغ أنه قد حدث تغير في السياسة الخارجية مما كان لزاماً معه إرضاء غريم شارل الثاني عشر وضحيته ، وهو أوغسطس « القوى » الذى مازال ملكاً على بولنده . وقرر فولتير أن يتجاهل أمر الحظر وانتقل متكرراً إلى روان وياشر طبع تاريخه سراً . وفي أكتوبر ١٧٣١ تداوله الناس في حرية مطلقة وأقبلوا على قراءته وكأنه قصص .

وذهب بعض النقاد إلى أنه محشو بالخيال ، وأسماء بعض المؤرخين الواسعي الاطلاع رومانسية « في أسلوب مشرق بارع في السرد القصصى ، ولكنه غير دقيق في التفاصيل^(٢) ولكن فولتير كان قد أعد الكتاب على طريقة الباحث المدقق إنه لم يطلع على وثائق الدولة فحسب بل إنه كذلك توقف ليستقى المعلومات من مصادرها الأصلية : الملك السابق ستانلاس ، ماريشال دى ساكس دوقه مالبرو ، بولنجريك ، أكسل سبار (الذى اشترك في معركة نارفا) فونسيكا (طبيب برتغالى كان يعمل في تركيا أثناء وجود شارل هناك) والبارون فابريس (سكرتير شارل سابقا) . وأكثر من هذا فإن فولتير كان قد أقام فترة مع البارون فون جورتز وزير شارل ذى اللحظة لديه . وربما حول إعدام البارون ١٧١٩ نظر فولتير إلى دراسة أسد الشمال « وفي ١٧٤٠ أشار جوران نورد برج الذى كان قسيس شارل إلى الأخطاء التى وقع فيها فولتير ، وقام فولتير بتصويب هذه الأخطاء في الطبعات اللاحقة . وكانت هناك أخطاء أخرى وبخاصة في الوصف التفصيلي للمعارك . وجادل النقاد المتأخرون^(٣) في أن فولتير بالغ في تقدير شارل على « إنه الرجل الأكثر استثناء وخرقا للعادة الذى ظهر على الأرض » وجمع في شخصيته بين أعظم مناقب أسلافه . ولا عيب فيه ولا ينغص عليه حياته إلا أنه جمع بين هذه المناقب في إفراط زائد^(٤) وربما تخفف الكلمة الأخيرة من حدة النقد ، فقد أوضح فولتير أن شارل جاوز الحد وأفرط في التحلى بهذه المناقب البطولية حتى أصبحت عيوبها وعددها ، ومنها التبذير والتهور والقسوة وعدم القدرة على المغفرة والصفح . كما أوضح كيف أن أخطاء الملك قد أضرت بالسويد . وانتهى إلى أن شارل « كان رجلا شاذا استثنائيا لا رجلا عظيما^(٥) » وعلى أية حال لم يكن الكتاب عملا ثقافيا فحسب ، بل عملا فنيا كذلك — من حيث التركيب والشكل والحياة والأسلوب — وسرعان ما أقبل كل المهتمين في أوروبا على قراءة شارل الثانى ملك السويد وذاعت شهرة فولتير إلى حد لم يسبق له مثيل .

وأصبح فولتير بعد عودته من روان (٥ أغسطس ١٧٣١) ضيفا مقبلا

على الكونتيس دى فونتين مارتل فى قصرها بالقرب من « الباليه رويال » ، وقد وجدت فى رففته سعادة بالغة حتى ظلت تؤويه وتطعمه حتى مايو ١٧٣٣ وترأس فى حيوية شديدة ولائم العشاء الأدبية التى كانت تقيمها ، ومثل المسرحيات وبخاصة مسرحياته هو على مسرحها الخاص . وفى أثناء إقامته هناك كتب نص « أوبرا شمشون » لرامو — وهو ملحن فرنسى فى القرن الثامن عشر (١٧٣٢) — ومن المحتمل أنه شهد من مقصورة الكونتيس فى « المسرح الفرنسى » سقوط روايته « اريفيل » (١٧٣٢) كما شهد النجاح الباهر الذى لقيته مأساة زائير (١٣ أغسطس ١٧٣٢) فكتب إلى صديق له : « ما مثلت رواية بمثل الروعة التى مثلت بها زائير فى عرضها الرابع . وكم وددت لو أنك كنت معى لتشهد أن الجمهور لم يسخط على صديقك ، وظهرت فى المقصورة ، واتجهت كل الأيدى بالتصفيق لى ، فأستحييت ونجأة نفسى . ولكنى أكون مرثياً إذا لم اعترف لك بأنى قد اهتزت مشاعرى وتأثرت كثيراً » (٦) .

وظلت هذه المسرحية أحب مسرحياته إليه حتى النهاية . إنها كلها ليس لها وجود الآن ، قضى عليها تغير الأذواق والأمزجة والأسلوب ، ولكننا يجدر بنا أن نبعث أحداها على الأقل من قبرها ، لأنها لعبت جميعاً دوراً مثيراً كبيراً فى حياته . وزائير طفلة مسيحية أسرها المسلمون فى صباها فى الحروب الصليبية ، ونشأوها على العقيدة الإسلامية ، وهى لا تعرف إلا القليل عن فرنسا اللهم إلا أنها مسقط رأسها ، وهى الآن غادة فاتنة فى حريم السلطان أورو زمان فى بيت المقدس . وهام بها السلطان وهامت هى به حباً . وفى مستهل الرواية كانت على وشك أن تصبح زوجة له . وتؤنّبها أسيرة مسيحية أخرى اسمها فاتيما على نسيانها أنها كانت مسيحية . وفى رد زائير توضيح لأثر الجغرافيا فى تحديد العقيدة الدينية : « إن أفكارنا وعاداتنا وعقيدتنا الدينية إنما تشكلها الأعراف والتقاليد والنزعة القومية السائدة فى أيامنا الأولى . فإذا رأت النور على ضفاف نهر الكنج لعبدت أوثان الهند . وإذا ولدت فى باريس لكنت مسيحية . وأنا الآن مسلمة سعيدة . إننا لا نعرف إلا ما تلقناه إن أبدى الأبوين اللذين يتوليان تربيتهما

وتعليمنا هي التي تنقش على قلوبنا الغضة تلك الأحرف التي ينفحها الزمن ويصقلها . وتعمل القدرة على تثبيتها عميقة في عقولنا ، ولا يقدر على محوها إلا الله (٧) .

ويصور فولتير أورو زمان رجلاً يتحلى بكل الفضائل بشكل واضح إلا الصبر . إن المسيحيين ليصعقون ويدهلون إذ يرون مسلماً وقوراً مهذباً مثل المسيحيين . وتتولى السلطان الدهشة إذ يرى مسيحية فاضلة ، ويرفض أن يحتفظ بحريم ، ويعد بالاعتصار على زوجة واحدة . ولكن فولتير كان منصفاً لشخصياته المسيحية كذلك ، فهو ينظم أحياناً عامرة في جمال الحياة المسيحية الحقة . وهناك أسير مسيحي آخر هو نير ستام ، وقع في الأسر في طفولته كذلك ، ونشأ مع زائير ، وفك أساره حين تعهد بالرجوع ليفتدى بالمال عشرة من الأسرى ، ويذهب ثم يعود ليدفع مبلغ الفدية المطلوب من ماله الخاص . ويكافئه أورو زمان بإطلاق سراح مائة لا عشرة فقط من المسيحيين . ولكن نير ستام يحزن لأن زائير ولوسنيان لم يكونا من بين من أطلق سراحهم ، ومكان هذا ملك بيت المقدس (١١٨٦ — ١١٨٧) . وتناشد زائير السلطان أورو زمان أن يطلق سراح لوسنيان ، فيجيبها إلى طلبها . إن الملك العجوز يعتبر زائير في منزلة ابنته ونير ستام في منزلة ابنه . إنها الآن موزعة بين حبها للسلطان الكريم وولائها لأبيها وأخوها وعقيدتهما المسيحية . وهيب بها لوسنيان أن تتخلى عن السلطان والإسلام معاً : « أو اه يا ابنتي ، فكري في الدم الزكي الذي يجري في عروقك ، دم عشرين ملكاً كلهم مسيحيون مثلي ، دم الأبطال ، دم المدافعين عن العقيدة ، دم الشهداء والقديسين . إنك لا تعرفين مصير أمك ، إنك لا تعرفين أنه في نفس اللحظة التي ولدت فيها ذبحها أوائل المتبربرون الذي تعتقن دينهم البغيض على مرأى مني . إن إخوتك والشهداء الأعزاء بمدون إليك أيديهم من السماء ، يريدون أن يحتضنوا أختاً لهم . آه يا ابنتي ! تذكرهم ! إن الرب الذي نحنث عهده ، لفظ النفس الأخير من أجلنا ومن أجل البشر جميعاً . انظري إلى الجبل المقدس الذي قتل عليه مخلصنا ، والمقبرة التي نهض منها ظافراً منتصراً . في كل طريق تمشين فيه ستترين خطوات الرب ، هل

تتكبرين حالقك ؟ زائير : . . . يا إلهي العظيم . . . تكلم يا أبتاه ماذا
أفعل ؟ لومنيان : . . . أذهبي عنى العار والحزن بكلمة منك ، وقولى أنى
مسيحية . زائير : إذن يا إلهي ، أنا مسيحية

لومنيان : أقسمى بأنك ستحفظين هذا السر الخطير .

زائير : أقسم لك على ذلك ^(٨) .

ولما علم نيرستام بإصرارها على الزواج من أوروزمان ، راوده التفكير
فى قتلها ، ولكن رقى قلبه ، وألج فى قبولها التعميد فوافقت ، وبعث إليها
برسالة يحدد فيها مكان وزمان الاحتفال بتعميدها ، وحسب أوروزمان
الذى لم يكن يدرى أن نيرستام أنحوا ، إنها رسالة حب وغرام ، ويفاجئ
زائير فى الموعد المضروب ، ويطلبها . ثم يكتشف أن العشيقين المزعومين
ليسوا إلا أخاً وأختاً ، فينتحر .

إن حبكة الرواية موضوعة بهراعة ، مبسطة بطريقة مسرحية متماسكة
وهى تمثل فى شعر سلس موسيقى . وإننا لنذكر من خلال القطع العاطفية
التي تبدو الآن ثقيلة مبالغاً فيها ، والسبب فى أن باريس أغرمت بزائير
وأوروزمان ، وفى أن الملكة الصالحة الحزينة ذرفت الدموع عند تمثيل
المسرحية للحاشية فى فونتينلو . وترجمت المسرحية إلى الإنجليزية ومثلت
بسرعة فى إنجلترا وإيطاليا وألمانيا ، ونودى آنذاك بفولتير أعظم شاعر على
قيد الحياة فى فرنسا ، وخلفاً ضاملاً لكورنى ورأسين . ولكن هذا لم
يرق فى عيني جان بابتيست روسو ، وهو شاعر فرنسى مقيم فى المنفى فى
بروكسل ، فحكم على زائير بأنها « مسرحية تافهة فائرة . . . مزيج كره
من التدين والفجور » . فرد عليه فولتير شعراً فى معبد الذوق « يشهر
فيه بروسو ويمجد مولير .

وبلغ فولتير ذروة المجد وهائق النجوم ، ولكنه لم يكف عن العمل .
ففى شتاء ١٧٣٢ - ١٧٣٣ درس الرياضيات كما درس نيوتن ، مع صبحته
مستقبلاً موبرتوي Moupertuis ، وأعاد كتابة « ايريفيل Eriphile »
ونقح زائير وشارل الثانى عشر ، وجمع مادة كتابه « قرن لويس الرابع

عشر « ووضع اللمسات الأخيرة على كتابه «رسائل عن الإنجليز» وأخرج مسرحية أخرى (أليد) كما كتب أشياء صغيرة لا تحصى : رسائل ، قصائد مدح ، اقتراعات ، بعض الحكم الساخرة ، بعض أغاني الحب - وكلها تنسم بالظرف في نظم رقيق مصقول . وعندما مأت مضيافته السخية ، مدام دي فونتين مارتل ، انتقل إلى داره في شارع (لونج بزاند) واشتغل بتصدير القمح . ومذ جمع بين التجارة والقصص ، فإنه التقى (١٧٣٢) بالسيدة جبريل اميلي لى تونلييه دي برتيل مركيزة دي شاتيليه ، وارتبطت حياته بحياة السيدة الفذة المغامرة حتى وافاه الأجل المحتوم .

وكانت آنذاك في السادسة والعشرين (وهو في الثامنة والثلاثين) ، وكانت حياتها بالفعل حافلة متعددة الجوانب فهي ابنة البارون دي برتليه ، ولذلك تلقت تعليماً غير عادي . حتى أنها في سن الثانية عشر تعلمت اللاتينية والإيطالية وغنت غناء رخيماً ، وعزفت على البيان الصغير ، وبدأت في سن الخامسة عشرة تترجم الإلياذة إلى الفرنسية شعراً ، وأضافت إلى هذا اللغة الإنجليزية ودرست الرياضيات على يدي موبرتوي . وفي التاسعة عشرة تزوجت المركز فلورنت كلود دي شاتيليه لومونت ، وكان في الثلاثين من العمر . وأنجبت له ثلاثة أطفال . ولكن فيما عدا هذا لم يكن للواحد منهما يرى الآخر إلا لماماً ، حيث كان هو عادة مشغولاً مع فرقة ، أما هي فبقيت قريبة من الحاشية وقامت بمبالغ طائلة ، وجربت الحب . فلما هجرها عشيقها الأول تناولت سمّاً ، وأنقذوها على كره منها بواسطة عقار مقيء ، واحتملت في رباطة جأش جربتها من قبل ، هجران عشيق ثان هو الدوق دي ريشيليو ، لأن كل فرنسا عرفت قصة قلبه بين النساء .

والتقى فولتير بالمركيزة على مائدة العشاء فلم ينزعج ، بل سرته قدرتها على التحدث في الرياضيات والفلك والشعر اللاتيني . ولم تكن مفاتها طاغية لا سبيل إلى مقاومة إغرائها ، ولكن سيدات أخريات أسرفن ، في وصفها ، استمع إلى مدام دي دفان وهي تقول : (امرأة ضخمة متحفظة لا أورك لها ، صدرها هزيل ، ذات ذراعين ضخمين ورجلين

كبيرين ، وقدمين ضخمتين ، ورأس صغير جداً ، وقسمات حادة ،
 وأنف محدد وعينين صغيرتين خضراوين تميلان إلى الزرقاء . سمراء
البشرة أسنانها رديئة ^(٩) ، واتفقت معها المركيزة دى كريكي فقالت « إنها
 عملاقة — ماردة ، ذات قوة جبارة ، وكانت فضلاً عن ذلك آية في القبح
 والبشاعة ، وكان جلدها في لون مبشرة جوزة الطيب الداكنة ، إنها تشبه
 في جملتها جندياً طويلاً القامة قبيح الصورة . ومع ذلك نحدث فولتير عن
 جمالها ^(١٠) » . أن سانت لامبرت الوسيم أحبها سرّاً عند ما كانت في الثانية
 والأربعين . وليس لنا أن نثق في رأى السيدات بعضهن في البعض الآخر .
 وقد يتبين من صورها الشخصية أن اميلي كانت طويلة القامة مسترجلة ،
 ذات جبهة مديلة ونظرة متعجرفة ، ولم تكن قسمات وجهها غير جذابة ،
 وقد نشعر بشيء من الاطمئنان إذا علمنا أن (لها صدرّاً شهوانياً ولكنه
 راسخ ^(١١)) .

ويمكن أن تكون اميلي قد كان فيها ما يكفى من الرجل ليكمل المرأة
 في فولتير . ومهما يكن من أمر فلإنها لجأت إلى كل الحيل والوسائل الأنثوية
 لتصلح ما أفسد الدهر من جمالها — مستحضرات التجميل والعطور
 والمجوهرات والحلى والمخرمات . ويضرب فولتير من ولعها بالتزين . ولكنه
 أعجب بتحمسها للعلوم والفلسفة . فهنا سيدة استطاعت حتى في غمرة
 الصخب والضوضاء في باريس وفرساي أن تنسحب من مائدة القمار ،
 لتدرس نيوتن ولوك ، إنها لم تقرأ نيوتن فحسب بل أنها استوعبته كذلك
 وهي التي ترجمت قوانين نيوتن إلى الفرنسية ، ووجد فولتير أنه من اللائق
 أن يتخذ من نفس المرأة رفيقة دراسة وعشيقة في وقت معاً . وفي ١٧٣٤
 اعتبر نفسه بالفعل الرجل الذي ترتضيه عشيقاً لها : (يا إلهي ! أية لذة وممتعة
 أجدها بين ذراعيك كم أنا سعيد بالإعجاب بالمرأة التي أحبها ^(١٢) !

٢ — رسائل عن الإنجليز

في عامي ١٧٣٣ و ١٧٣٤ نشر فولتير بعد عناء شديد أول إسهامه في
 عصر الاستنارة ، وكان عبارة عن ٢٤ رسالة موجهة من إنجلترا إلى تيريو

وترجمت إلى الإنجليزية وصدرت في لندن (١٧٣٣) رسائل متعلقة بالامة الإنجليزية . ولكن كان في طبع الأصول في فرنسا مغامرة بحرية المؤلف وصاحب المطبعة كليهما . ونخفف فولتير من بعض الأجزاء ، وحاول أن يحصل على إذن من الحكومة بطبع البقية ، فرفضوا منحه الترخيص ، وهنا لجأ ثانية إلى نشرها سراً في روان . وحذر الناشر جور من تسرب أية نسخة للتداول لبعض الوقت على الأقل ، ولكن في أوائل ١٧٣٤ ، وصلت عدة نسخ إلى باريس تحت عنوان « رسائل فلسفية » . وحصل أحد قراصنة الناشرين على نسخة ، وأصدر منها طبعة كبيرة العدد دون علم فولتير . وفي نفس الوقت كان فولتير ومدام دي شاتيليه قد قصدا إلى قصر مونتجي بالقرب من أوتون على مسافة ١٩٠ ميلا من باريس ليعضرا حفل زفاف ريشيليو :

وبدأ الكتاب بأربع رسائل عن جماعة الكويكرز الإنجليزية ، وأوضح فولتير أن هؤلاء الكويكرز ليس لهم تنظيم كنسى ولا قساوسة ولا أسرار ولا قرابين مقدسة ، ومع ذلك مارسوا الشعائر المسيحية في إخلاص وإيمان أكثر من أى مسيحيين عرفهم . ووصف أوتخيل زيارة قام بها لواحد منهم وقال : « سألت واحداً منهم : سيدى العزيز ، هل عمداً ؟ فأجاب « لا لم أعمد لا أنا ولا إخوتي » . وصحت في وجهه : عجباً كيف يكون هذا إذن أنتم لستم مسيحيين ! فأجاب في صوت هادىء خفيض يابنى ، لا تقسم ، نحن مسيحيون » ونحن نحاول أن نكون مسيحيين صالحين ، ولكننا لانرى أن المسيحية مجرد صب ماء بارد مع قليل من الملح على الرأس وعارضته . (يا إلهى ! لا تتحدث بهذا الضلال ! هل نسيت أن يوحنا عمداً المسيح ؟) فرد قائلاً : يا صاحبي ، لا تقسم بعد ذلك ، إن يوحنا عمداً المسيح ولكن المسيح لم يعمد أحداً . . . ونحن أتباع المسيح لا أتباع يوحنا فقلت له : (واحسرتاه أيها المسكين جزاؤك الحريق في بلاد محاكم التفتيش وسألنى (هل أجروا لك عملية الختان ؟) .

فأجبت (لم يكن لى شرف الختان) .

فقال : (حسناً ، أبت مسيحيّ دون ختّان ، وأنا مسيحيّ دون تعميد)

وقال الكويكرز إن التعميد مثل الختّان من العادات السابقة على المسيحية وقد أبطلها إنجيل السيد المسيح الجديد . ثم استطرد فولتير يتحدث عن الحرب (لن نذهب أبداً إلى الحرب ، لا لأننا نخشى الموت ، بل لأننا لسنا ذئاباً ولا غموراً ، ولا كلاباً نحن رجال مسيحيون . أن إلهنا الذي أمرنا بحب أعداءنا يقينا لا يريد منا أن نعبّر البحر لنقتل إخوة لنا ، لمجرد أن السفاحين الذين يرتدون ثيابا في لون الدم وقبعات عالية ترتفع إلى قدميّين يجندون المواطنين بينما يجثّون جلبة بائنتين من العصي ممدتين على جسم حمار . وبعد النصر تتألق لندن كلها في الأضواء وتلتهب سماؤها بالألعاب النارية وطلقات المدافع ، على حين نرثى في صمت للمذبحة التي أدت إلى مثل هذا الابتهاج العام^(١٣) .

لقد أوديت فرنسا أيما إيلذاء ، وكادت أن تدمر نفسها لمحاولتها فرض عقيدة واحدة على جميع الفرنسيين . وأسهب فولتير في وصف التسامح بالنسبة للخلافات الدينية في إنجلترا . « هذه بلد الطوائف . والرجل الإنجليزي ، باعتباره حراً يسلك إلى السماء الطريق الذي يختاره .^(١٤) ووازن فولتير بين أخلاق رجال الدين الإنجليزي وأقرانهم الفرنسيين ، وهنا الإنجليزي بأنهم ليس لديهم رهبان . إن الإنجليزي ليحمدون الله ويشكرونه على أنهم بروتستانت حين يعلمون أن الشبان الفرنسيين المعروفين بفسقهم وفجورهم يرقون إلى مناصب الأساقفة والمطارنة بفعل الدسائس ، ويؤلفون الأغاني الرقيقة ويقيمون ولأثم العشاء الباذخة كل يوم تقريباً ، ويطلقون على أنفسهم أنهم خلفاء الرسل .^(١٥) وفي الرسالة الثامنة أدار فولتير الخنجر إلى صدر الحكومة في فرنسا : « إن الأمة الإنجليزية وحدها هي التي عرفت كيف تحدد سلطة الملوك بوقوفها في وجههم . . . وأخيراً أقامت هذه الحكومة الرشيدة ، وفيها يتمتع الملك بكل القوة والسلطة في أن يفعل الخير ، على حين تغل يدها عن الإتيان بأي شر أو سوء . (وهنا يردد فولتير عبارة مشهورة مأثورة عن رواية فيليون « تلياك » . ان إقرار الحرية في إنجلترا تطلب ثمناً غالياً

ولا ريب ، فقد أغرق صنم الحكم الاستبدادى المطلق فى بحر من الدماء ، ولكن الإنجليز لا يرون أنهم اشتروا القوانين العادلة الصالحة بثمن باهظ ، فهناك أمم أخرى مرت بمحن وأوقات عصيبة لا تقل عما عاناه الإنجليز ، ولكن الدماء التى أريقَت دفاعا عن قضية الحرية لم تكن إلا ثبیتاً لعبوديتها^(١١)

إن حق التحقيق فى قانونية حبس التهم فى إنجلترا يحرم السجن دون قضية محددة ، ويتطلب محاكمة علنية ، بواسطة المحلفين ، أما فى فرنسا فهناك « الأوامر السرية المختومة » . وقبل مونتسكيو بأربعة عشر عاما ، رأى فولتير « فصل السلطات فى الحكومة الانجليزية وامتدحه وبالحق فيه ، كما رأى تنسيق العمل بين الملك ومجلس اللوردات ومجلس العهوم . وأشار فولتير إلى أنه لا يمكن فرض ضرائب إلا بموافقة البرلمان » وأنه لا يعنى أحد من ضرائب معينة . . . لأنه نبيل أو كاهن . »^(١٢) وفى إنجلترا يشتغل صغار أبناء النبلاء بالتجارة وبمختلف المهن ، أما فى فرنسا فإن التاجر غالبا ما يسمعه يتحدثون عن مهنته فى ازدراء واحتقار ، حتى يبلغ به الحق إلى حد الشعور بالخزى والعار من الاشتغال بالتجارة . ولست أدري أيهما أنفع للدولة — نبيل متأنق يعرف بالضبط متى يصحو الملك من نومه أو يأوى إلى فراشه ، ويستشعر العظمة حين يقوم بدور العبد الرقيق . . . أو رجل أعمال (مثل فوكنر مضيف فولتير فى لندن ، يثرى وطنه ويصدر الأوامر من مكتبه إلى سورات والقاهرة ، ويسهم فى اسعاد العالم بأسره^(١٣)) وأخيرا فى قطعة تضمنت برنامجا لفرنسا ذهب فولتير إلى : « أن الدستور الإنجليزى بلغ قمة التفوق وكان من نتيجة ذلك أن كل الناس استعادوا حقوقهم الطبيعية ، على حين أنهم محرمون منها فى سائر الملكيات تقريبا . وهذه الحقوق هى الحرية الكاملة فى أشخاصهم وفى ممتلكاتهم : حرية الصحافة حق المحاكمة بناء على نص صريح فى القانون ، وحق كل إنسان فى اعتناق العقيدة التى يرتضيها دون إزعاج . »^(١٤)

ولا بد أن فولتير عرف أن فريقا من الناس فقط هم الذين تمتعوا بهذه الحقوق الطبيعية ، وأن الحرية الشخصية لم تتحرر من خطر الرقابة الصحفية ،

وينصرفوا إلى دراسة نيوتن . إن حكم الرأي العام في إنجلترا على هذين المفكرين هو أن أولهما كان حالماً والثاني حكيماً . وقدر فولتير أعظم تقدير إضافات ديكارت إلى الهندسة ، ولكنه لم يستغ الدوامات الكونية عند ديكارت . إنه أقر بأن ثمة شيئاً وهمياً غامضاً ، أو على الأقل مخدراً في مقالات نيوتن عن الكرونولوجيا القديمة (تقسيم الزمن إلى فترات وتعيين تاريخ الأحداث) وسفر الرؤيا ، وأوحى فولتير بشكل لطيف بأن نيوتن كتب هذه المقالات ليعزى البشرية عن تفوقه البالغ عليها ^(٢١) إنه وجد أن نيوتن ما زال عويصاً يصعب فهمه ، ولكن اجتماع الرجال البارزين في الحكومة وفي ميدان العلوم لتشجيع جنازته ترك في نفسه أثراً عقد معه العزم على دراسة قوانين نيوتن ، وعلى أن يكون رسول نيوتن إلى فرنسا ، وهنا أيضاً غرس فولتير بذور دائرة المعارف وعصر التنوير .

وأخيراً صدم فولتير الفكر الديني في فرنسا بنقد لاذع وجهه إلى آراء بسكال . إنه لم يقصد تضمين هذا في رسائله ، فليس لهذا علاقة بإنجلترا : ولكنه كان قد أرسله من إنجلترا إلى نير ١٧٢٨ ، فألحقه الناشر للصح بالرسائل باسم الرسالة رقم ٢٥ ، وكانت النتيجة أن الجانسنيين - الذين قدسوا بسكال إلى حد العبادة ، وسيطروا على برلمان باريس - ، فاقوا الآن اليسوعيين (الذين لم يحبوا بسكال قط) في استنكار فولتير وشجبه وكان فولتير غير قابل أساساً للاتفاق مع بسكال حيث كان في هذه المرحلة (اللهم إلا في رواياته) عقلانياً متشدداً لم يكن قد وجد بعد مجالاً للوجدان في فلسفته . وكان لا يزال شاباً ممتلئاً حيوية ونشاطاً ينعم بالحياة وسط محنة البطولية ، ومن ثم عارض التشاؤم الجزوع الكئيب عند بسكال « ولسوف أتجاسر فأقوم بدور الجنس البشري ضد هذا المبعض للبشر المهيب » ^(٢٢) ورفض « رهان » بسكال (أى أنه من الأحكم أن نراهن على وجود الله لا العكس) باعتباره عملاً صبيانياً يخاف الحشمة والوقار . . . إن اهتأى بالاعتقاد بشيء ليس برهاناً على أن هذا الشيء موجود ^(٢٣) ولم يعرض بسكال الرهان (على أنه برهان) وسلم بأنه ليس في مقدورنا أن نفسر الكون أو نعرف قدر

وأنه كانت هناك حدود وقيود على حرية الكلام في الدين وفي السياسة ، وأن المنشقين والكاثوليك كانوا مستبعدين من الوظائف العامة . وأنه كان من الميسورة في إنجلترا رشوة القضاة ليتجاهلوا القانون . إن فولتير لم يدون وصفا نزيها لواقع إنجلترا . أنه كان يستخدم لإنجلترا سوطا يحرك به الثورة في فرنسا ضد ظلم الدولة أو الكنيسة . أن كون كل هذه الحقوق تقريبا أصبحت الآن قضية مسلما بها في البلدان المتحضرة يضغى على ما أنجزه القرن الثامن عشر روعة وجلالا .

ولا يقل عن هذا أهمية في أثره على الفكر الحديث امتداح فولتير لبيكون ولوك ونيوتن . إنه قال عن بيكون الذى اتهموه وجرحوه ما حكم به بولنجزوك على مالبرو « إنه رجل بلغ من العظمة حدا لا أستطيع معه أن أذكر هل كان له أخطاء أم لا » ^(٢٠) ثم أردف يقول « إن هذا الرجل العظيم بيكون هو أبو الفلسفة التجريبية لا من أجل التجارب التى قام بها ، بل بما وجه من نداءات قوية للهوض بالبحث العلمى . وتلك هى الفكرة التى حدثت بديدرو ودالمبرت إلى القول بأن بيكون هو أول من أوحى إليهم بدائرة المعارف التى وضعوها .

وخصص فولتير لجون لوك كل الفصل الثالث عشر تقريبا . إنه لم يجد فيه مجرد علم العقل بدلا من أسطورة النفس ، بل وجد فلسفة كامنة كاملة حتى انه بارجاعه كل المعرفة إلى الشعور ، حول الفكر الأوربي عن الإلهام الإلهي إلى الخبرة الإنسانية ، باعتبارها المصدر الوحيد للحقيقة وأساسها . ورحب برأى لوك فى انه يمكن تصور إن المادة يمكن تمكينها من التفكير وغصت بهذه العبارة بالذات خلوق رجال الرقابة الفرنسية ، وكان لها أثر كبير فى الحكم على الكتاب وادانته . ويبدو أنهم تنبأوا فيها بمادية لامترى وديدرو . ورفض فولتير ان يسلم نفسه إلى المادية ، ولكنه عدل عبارة ديكارت « أنا أفكر إذن أنا موجود » إلى « أنا جسم وأنا أفكر ولاشئ غير هذا » .

أشارت الرسالة لاداعة عشرة عالم الفرنسية، أن تخلصها من ديكارت

الإنسان ، ولكنه ارتاب في أننا نستطيع من هذا الجهل أن نستنتج صدق قانون الإيمان المسيحي الذي جاء به الرسل . كما أنه لم يحس في هذا العصر المرح المغم بالحوية بأى تعاطف مع تطلع بسكال إلى الراحة والدعة ، حيث نادى بأن الإنسان « خلق ليعمل . . . فعدم العمل وعدم الوجود سيان بالنسبة للإنسان »^(٢٤) .

وليس « ملاحظات على أفكار بسكال » أفضل ما كان يمكن أن تجود به قريحة فولتير . إنه لم يكن قد أعدها للنشر ، ولم يكن لديه الفرصة لمراجعتها وتنقيحها . وقضت الأحداث اللاحقة — مثل زلزال لشبونة — على نصارة تفاؤله القوي . وعلى الرغم من هذا الملحق غير المدروس وغير الجدير بالاعتبار ، فإن « الرسائل الفلسفية » كانت أحد المعالم البارزة في الأدب الفرنسي والفكر الفرنسي . فهنا لأول مرة ظهرت الجمل الموجزة الدقيقة والوضوح المبين والدكاء المرح والتهكم اللاذع ، وأصبح كل هذا منذ الآن طابعا أدبيا مميذا يتجاوز ويتجاهل الحرص على إنكار اسم المؤلف . إن هذا الكتاب ، وكتاب الرسائل الفارسية حددا أسلوب النثر الفرنسي من عهد الوصاية إلى عصر الثورة . وفوق هذا فانها أحكمت حلقة من أقوى الحلقات في الربط بين المفكرين الفرنسيين والإنجليز ، وهى كما قدر بكل « أهم حقيقة إلى حد بعيد في تاريخ القرن الثامن عشر »^(٢٥) إنها كانت بمثابة إعلان حرب ومخطط شن حملة . وقال روسو عن هذه الرسائل انها قامت بدور كبير في إيقاظ عقله . ولا بد أن آلافا من شباب فرنسا دانوا لها بمثل هذا الفضل . وقال عنها لافاييت انها صيرته جمهوريا وهو في التاسعة من عمره . ورأى هين « إنه لم يكن لزاما على رقيب المطبوعات أن يصادر هذا الكتاب حيث كان لا بد من قراءته بغير هذا الإجراء »^(٢٦)

وأحست الكنيسة والدولة والملك والبرلمان أنهم لم يعودوا يطبقون صبرا على مثل هذه الجراح الكثيرة في صمت ، فأرسل صاحب المطبعة إلى سجن الباستيل ، وصدر أمر سرى مختوم بالقبض على فولتير أينما وجد . وفى ١١ مايو ١٧٣٤ ظهر أحد رجال الشرطة يحمل أمرا بالقبض عليه . ولكن من

المحتمل أن موبرتوى ودار جنتال كانا قد حلوا فولتير فغادر فرنسا قبل ذلك بخمسة أيام . وبناء على أمر من البرلمان في ١٠ يونيو أحرق كل ما وجد من نسخ الكتاب بيد مأمور التنفيذ العام في فناء قصر العدل باعتباره عملاً شائناً يناهز الدين والأخلاق القومية ويتعارض مع الاحترام الواجب للسلطات العامة .

وقبل معرفة المركيزة دى شاتيليه بوصول فولتير سالما إلى اللورين كتبت إلى صديق لها : « أنا لا أطيع صبراً على مجرد علمي بأنه في السجن وهو في مثل هذه الصحة والعافية وقوة الخيال . وأنا لا أحب ذلك مطلقاً » . وأجمعت هذه السيدة والدوقة دى بشيليو وغيرهما من السيدات ذوات المكانة الرفيعة أمرهن على العمل معاً للحصول على عفو عنه . ووافق حامل الاختام على إلغاء أمر القبض إذا أنكر فولتير تأليفه للكتاب . لكن تلك كانت خدعة لأنه علم علم اليقين أن فولتير هو المؤلف . وكان حامل الاختام هذا أحد موظفي الحكومة الذين لطفوا من حدة الرقابة من آخر بالأعضاء عما في الكتاب من مأخذ . ووافق فولتير فوراً على إنكار أنه المؤلف . وهذه كذبة بيضاء من الممكن الصفح عنها بسهولة . فضلاً عن أن الكتاب الذي برئ من تأليفه وزع دون موافقة . وكتب فولتير إلى اللورقة دى ايجوبون :

يقولون إنه يجب على أن أراجع . . . بكل سرور . . . سأعلن أن بسكال على حق دائماً وأن القساوسة مهذبون وديعون متزهون من الغرض « وإن الرهبان ليسوا متعطرسين ولا منصرفين إلى تدبير النساء ، ولا حقراء وأن محاكم التفتيش المقدسة هي انتصار للإنسانية والتسامح (٣٧) .

والغبي أمر القبض على شرط أن يبقى فولتير بعيداً عن باريس . فتقل من قصر إلى قصر قرب حدود المدينة ورحب به النبلاء الذين لم يتمسكوا كثيراً بأهداف الدين ، كما لم يميلوا مطلقاً إلى الحكومة الملكية المركزية المستبدة وتلقى دعوة بالإقامة في بلاط هولشتين مع معاش قدره عشرة آلاف فرنك سنوياً ولكنه رفض^(٣٨) وفي يولييه أوى إلى قصر مدام دى شاتيليه في سبري

في شبانيا . وهناك وهو الضيف الذى يتحمل نفقات عشيقته وروجها بدأ
أسعد سنى حياته .

٣ - أنشودة الحب فى سبرى ١٧٣٤ - ١٧٤٤

سبرى الآن قرية عدد سكانها ٢٥٠ شخصاً فى مقاطعة المارن الأعلى فى
شمال شرق فرنسا على بعد بضعة أميال من اللورين ، وصفتها مدام دنيس
ابنة أخى فولتير ١٧٣٨ بأنها منعزلة موحشة على بعد أربعة فراسخ من
العمران فى منطقة لا يرى المرء فيها شيئاً غير الجبال والأرض غير المنزرعة^(٢)
وربما أحبها فولتير لأنها بقعة هادئة حيث يستطيع أن يتفرغ فيها لدراسة
العلوم وكتابة التاريخ والفلسفة ، وتنساه الحكومة الفرنسية . أما إذا لاحظته
فإنه يستطيع الانطلاق منها هرباً إلى اللورين فى ظرف ساعة واحدة .

وكان القصر طلالاً متهدماً من مخلفات القرن الثالث عشر . قلما أقام فيه
آل شاتليه ولم يكن يصلح للسكنى منذ أمد بعيد ، ولم يهتم المركز بإصلاحه ،
أو لم يكن لديه المال لهذا الغرض ، فأقرضه فولتير ٤٠ ألف فرنك بفائدة
قدرها ٥ ٪ للقيام بالإصلاحات اللازمة ولم يطالب المركز قط بسداد هذا
القرض . وأعدت بعض غرف شغلها فولتير ، وأمر ببناء جناح جديد ،
وأشرف على ترميم بقية القصر . وفى نوفمبر وصلت المركيزة ومعها مائتا
حقيبة من الأمتعة ، وعدلت من إصلاحات فولتير بما يتناسب مع ذوقها
الخاص ، وأقامت هناك - وهى التى كانت قضت معظم سنى شبانها بين
الحاشية الملكية أو قريباً منها - منصرفة إلى الدراسة مع زوجها وعشيقتها
فى وقف معا . وأقام المركز اللطيف معها ومع فولتير بين الحين والحين
حتى ١٧٤٠ ، محتفظاً لنفسه فى لباقة بشقة خاصة به وبمواعيد خاصة لتناول
الطعام وحده . وبعد ذلك قضى معظم وقته مع كتيبته . وكانت دهشة فرنسا
وإعجابها بكياسة الزوج أقل منها بإخلاص العشيقين .

وفى ديسمبر عادت مدام شاتليه إلى باريس وزارت الدوقة رويشيليو
فى معتقلها ، وأقنعت الحكومة بإلغاء الأمر باقصاء فولتير عن العاصمة
(٢ مارس ١٧٣٥) فقصده إلى باريس وأقام فيها عدة أسابيع مع خليلته ،

ولكن ماضيه لاحقته . فإن أجزاء من شعره الفاجر كان يتناقلها الناس . ولم يتالك هو نفسه قراءة بعض قطعه القوية على أصدقائه . كما نشر أحد الناشرين للصوص « رسالة إلى أورانيا » . وكان فولتير قد كتبها قبل ذلك بخمس عشرة سنة . وقد هاجم فيها المسيحية ، فأنكر أنه مؤلفها بطبيعة الحال ولكنها كانت تحمل بصمات أسلوبه وفكره . ولم يصدق إنكاره أنه المؤلف ، فهرب ثانية إلى اللورين ، ومنها في حيلة وحذر إلى سبرى . وتلقى من الحكومة تأكيدات عن طريق غير مباشر بأنه إذا ظل هناك دون أن يرتكب أية مخالفة أخرى فلن يعكر صفوه أحد . ولحقته به مدام دي شاتيليه مع ابنتها وابنها ومعلمهما ، وكان طفلها الثالث قد مات . وهنا أخيراً بدأ شهر غسل فلسفى .

وكان لكل من الفيلسوفين مجموعة غرف خاصة به على جانبي القصر . وكانت شقة فولتير تتكون من حجرة انتظار ومكتب ، مكتبة وحجرة نوم وكسيت الجدران ينسجج من المخمل الأحمر المنقوش ، وازدانت باللوحات التي اقتنى منها فولتير مجموعة ثمينة منها لوحة من رسم تيشيان وعدة لوحات من رسم تنيير . كما كان هناك تماثيل فينوس وكوبيد وهركوليز . ولوحة كبيرة لصديقتها الجديد الأمير فردريك ولي عهد بروسيا . وعلى حد تعبير مدام جرافيني . كانت النظافة تامة في هذه الحجرات إلى حد « يمكن معه تقبيل الأرض » (٣١) أما جناح المراكزة فكان مختلفاً عن هذا ذوقاً: اللون الأصفر الفاتح واللون الأزرق الباهت مع لوحات من رسم فيرونيز وواتو . وصورة السقف وإرضيته من الرخام . ومائة من الصناديق والزجاجات الصغيرة واللواتم والمجوهرات وأدوات الزينة متناثرة هنا وهناك في حجرة ملابسها الصغيرة . وبين مجموعتي الغرف كانت هناك قاعة كبيرة أعدت لتكون محملاً للفيزياء والكيمياء . فيها منضخات هواء ومقاييس حرارة وأفران وبوتقات ومنظار مقرب (تلسكوب) ومجهر (ميكروسكوب) ومنشورات وبوصلات وموازين . وكان هناك عدة غرف للزوار . لم تكن مؤثثة تأثيثاً جيداً . وعلى الرغم من القماش المنقوش على الجدران كانت رياح الغابات

تتسأل إلى القصر من خلال الشقوق والنوافذ والأبواب . وكان لزاما لتدفئة هذا القصر إلى حد مقبول وجود ٣٦ مدفأة تستهلك في اليوم الواحد ستة (كوردات) من الخشب (النكور = ٢٨ قدما مكعبا من الخشب) . ويمكن أن نتخيل عدد الخدم اللازمين له ، أضف إلى ذلك مسرجا لأن فولتير كان يحب أن يمثل وبخاصة في رواياته هو وإنه ليؤكد لنا أن المركيزة كانت ممثلة بارعة ، وكان الضيوف والمعلم والخدم يحيطون بشخصيات الرواية ، ويمتوا بالأوبرا ، أخيانا لأن المركيزة (كما يؤكد فولتير مرة أخرى) كان موتها ملائكيا . كما كان هناك عروض لمسرح العرائس وعروض بالفسانوس السحري ، قرنها فولتير بتعليقات أغرقت الحاضرين في الضحك .

ولكن اللهو كان طارئا أما العمل فكان نظاما يوميا . وكان العاشقان عادة ، يعملان منفصلين كل في نطاقه ، ولو أنهما تعاونتا أحيانا في العمل ، وقلما كان الواحد منهما يرى الآخر في أثناء النهار إلا في وجبة الطعام الرئيسية عند الظهر تقريبا . وكان المركيز يترك المائدة قبل أن يبدأ الحديث . وغالبا ما انسل فولتير أيضا إلى مكتبه تاركا الآخرين يتسامرون . وكان له هناك أدوات مائدته الخاصة به لأنه يتناول طعامه وحده أحيانا . وإننا نرى فيه بحق محدثا ممتازا بالحياة ، ويمكن أن يكون محط الأنظار ومبعث الحياة في أى اجتماع يشهده ، ولكنه كان يكره الحديث التافه . وكان يقول « هذا الوقت الذى نقضيه في الحديث يزعجنى كثيرا ويجعل بنا ألا نضيع دقيقة واحدة ، إن أكثر ما نضيع هو الوقت ^(٣١) » وكان يخرج أحيانا لصيد الغزال حبا في الرياضة .

وجدير بنا ألا ننسى الرقيقين الفلاسوفين على أنهما ملاكان ، فيمكن أن تكون السيدة جافة مستبدة بل قاسية بخيلة بعض الشيء عنيفة مقتررة مع خدمها وكانت تمتج إذا تقدم فولتير أجرا أكبر ، ولم يكن بها استحياء من شيء في جسمها ، فلم تكن تأبه كثيرا بلطع ملابسها جميعا أمام مسكرتيهما لو نبحشامب ، أو تكليفه بصب الماء الساخن عليها وهى في الحمام . وكانت

تطلع خفية على الرسائل التي يكتبها ضيوفها أو ترد إليهم ، وليس لدينا دليل على هذا إلا شهادة سيدة أخرى ^{٣٣} أما فولتير فكان له مئات الأخطاء التي ستكشف في الوقت المناسب . كان شاعرا مزهوا وكان سريع الغضب والتجهم كأنه طفل ، وكثيراً ما هاجم عشيقته وتشاجر معها ، وما كان هذا الشجار على أية حال إلا سحب سيف تؤكد سادة أيامهما ، وسرعان ما كان فولتير يعود إلى هدوئه وابتسامته وابتهاجه . وما كان يمل الحديث عن سعادته وعن حبه لرفيقته بطريقته المأدبة . ونظم لها مائة قصيدة حب قصيرة كل منها تصوير بارع في فن محكم . وكانت إحدى هذه اللور الأدبية مع نخاتم من حجر كريم نقشت عليه صورته : « بنقش يبرز هله القسمات ليقع عليها بصرك . أنظري إليها لتقرى عينا بها . أما صورتك فهي منقوشة في أعماق قلبي بيد صناع أكثر حذقا وبراعة . » ^{٣٤} .

أما هي فقالت لا أطيق فراقه لمدة ساعتين دون أن يمزقني الألم ^{٣٥} . ومن بين العشيقين الفيلسوفين كانت هي أكثر انصرافا إلى العلم وانكبابا عليه منه . ونفذت قانون سيادة المرأة غير المسطور في إخفاء مخطوطة كتاب فولتير « قرن لويس الرابع عشر » الذي لم يكمل بعد ، ووجهته بشدة إلى دراسة العلوم بوصفها الدراسة الحقة لرجل العصر الحديث . ووصفتها مدام دي جرانيني ، وكانت ضيفاً عليها في ١٧٣٨ ، بأنها أكثر مثابرة على أبحاثها العلمية من فولتير ، حيث كانت تقضي معظم النهار وجزءاً كبيراً من الليل في مكتبها . وفي بعض الأحيان حتى الساعة الخامسة أو السابعة صباحاً ^{٣٦} . وكان موبرتوى يأتي من حين لآخر إلى سبرى ليتابع دووسه لها في الرياضيات والفزياء . وربما كانت هذه الزيارات بالاضافة إلى إهجاب المركيزة السافر بسعة علم موبرتوى ، هي التي أثارت الغيرة في قلب فولتير الشديد الحساسية ، فأدت إلى الملائكة والشجار بينهما في برلين .

وهل كانت دي شاتيليه عالمة باحثة حقاً ، أم أنها اتخذت من العلم سبيلاً للأناقة ومجارة مقتضيات العصر . ورأت مدام دي ديفان وبعض سيدات أخريات أن دراستها وأبحاثها كانت مجرد مظهر كاذب ، وزعمت المركيزة

دى كريكي « أن الجبر والهندسة اقتربا بها من حافة الجنون ، على حين أن تحذلقها وكلفها الشديد بموضوع دراستها جعلها لا تحتمل . والواقع أن ذهنها تشوش بكل ما تعلمته أو عرفتة (٣٧) ولكن استمع إلى مدام دى جرافيني وهي تصف لنا جلسة في سيري .

« في هذا الصباح قرأت علينا ربة البيت عملية هندسية لمؤلف إنجليزي حالم ... وكان الكتاب باللغة اللاتينية ؛ وقرأته علينا بالفرنسية ، وترددت لحظة عند كل عبارة ، وكأني بها تفهم العمليات الهندسية ، ولكن لا ، لأنها ترحمت بسهولة المصطلحات الهندسية والأرقام والألفاظ الغريبة ، ولم تتوقف في شيء . ألا يثير هذا الدهشة حقاً ؟ (٣٨) .

وأكد فولتير لتيريو أن مدام دى شاتيليه كانت تعرف الإنجليزية جيداً ، وأنها عرفت كل مؤلفات شيشرون الفلسفية ، وكانت مولعة جداً بالرياضيات والميتافيزيقا (٣٩) . وذات مرة بزت العالم الفيزيائي وعضو الأكاديمية دى ميران في مناقشة عن الطاقة الحركية (٤٠) وقرأت شيشرون وفرجيل في الأصل اللاتيني وأريستو وتاسو بالإيطالية ، ونيوتن بالإنجليزية ، وعندما زار الجاروتي سيري تحدثت معه بالإيطالية . وكتبت ولكن لم تنشر كتابا من ستة مجلدات عن دراسة « سفر التكوين » ، مبنية على أعمال الربوبيين الإنجليز عرضت فيه للمتناقضات والأشياء البعيدة الاحتمال والأعمال غير الأخلاقية والأفعال الظالمة في الكتاب المقدس . وكانت رسالتها عن السعادة بحثاً أصيلاً عن أسس السعادة ، حيث رأت أن هذه الأسس هي الصحة والحب والفضيلة والانغماس الذاتي العقلاني ، ثم طلب العلم والمعرفة . وترجمت قوانين نيوتن من اللاتينية إلى الفرنسية ، وأشرف على طبعها كليرو ، ونشرت بعد وفاتها بست سنوات (١٧٥٦) . وألفت عرضاً موجزاً لنظام العالم لشر في ١٧٥٩ وأعلن فولتير ربما من قبيل الشهامة والود ، أنه يفوق كتابه « مبادئ فلسفة نيوتن » (١٧٣٨) (٤١) وعندما أعلنت أكاديمية العلوم (١٧٣٨) عن جائزة لأحسن بحث عن طبيعة النار وانتشارها ، ودخل فولتير المسابقة كتبت هي مرا البحث وقدمته دون ذكر اسمها ، وكتبته في الليل لتخفيه عن فولتير (حيث أتى في بحثي عارضت كل آرائه تقريباً (٤٢) ولم يفز أى منهما بالجائزة التي حصل

أولر . ولكن الأكاديمية طبعت مقالهما ، وامتدح كل منهما مقال الآخر في نشوة الحب العقلي .

ومن أجل موضوعه هو . قام بعدة تجارب بعضها في معمله وبعضها في مسنك في شومون المجاورة ^(٤٣) ودرس فولتير التكلس وكان قلب قوسين أو أدنى من اكتشاف الأوكسجين ^(٤٤) . ونراه في مايو ١٧٣٧ يكتب إلى الراهب موسينو في باريس يطلب إليه كيميائيا للحضور إلى سيري لقاء مائة جنيه سنويا مع الإقامة الكاملة . ولكن كان على هذا الكيميائي أيضا أن يتلو القداس في أيام الآحاد والعطلات في كنيسة القصر ^(٤٥) . أنه من جانبه آمن الآن بالعلم وحده . وكتب في ١٧٤١ ينبغي أن نعتقد في صحة ما تكشف عنه لنا عيوننا وما تكشف عنه الرياضيات . أما فيما عدا هذا فيجدر أن نكتفي بالقول بأننا لا نعرف ^(٤٦) . فالفلسفة كانت تعنى عنده آنذاك خلاصة العلم :

وبهذا المعنى استخدم فولتير هذا الاصطلاح في مؤلفه « مبادئ فلسفة نيوتن » أملا في الترخيص الملصقي بنشره ، ولكنه لم يجب إلى طلبه ، وظهرت منه طبعة في أستر دام (١٧٣٨) دون موافقته . وصدرت طبعته هو هناك في عام ١٧٤١ ، وكانت عبارة عن مجلد ضخيم يضم ٤٤٠ صفحة ، نموذجاً رائعاً لما يسميه الفرنسيون «دون تعتمد الانتفاض من قدره» تبسيطاً ، أى محاولة لتيسير فهم العويص الصعب منه إلى أكبر حد ممكن . وأضاف المشرف على الطبع عنواناً فرعياً وضع ليكون في متناول الجميع . وغير الراهب ديفونتين هذا العنوان الفرعي في نقد غير ودى إلى « عويص على كل الناس » وعلى النقيض من ذلك امتدح الجميع الكتاب بل أن اليسوعيين تقبلوه بقبول حسن في صحيفة تريفيو ^(٤٧) . وهنا طردت الجاذبية التكوينية التي كشفها نيوتن دوامات ديكارت من أذهان الفرنسيين . وشمل كتاب فولتير عرضاً لبصريات نيوتن ، وتحقيق من التجارب في معمله الخاص ، وحاول لإجراء تجارب أخرى من عندياته ، وحاد عن طريقه قليلاً ، ليؤكد اتساق فلسفة

نيوتن مع الإيمان بالله . وفي نفس الوقت أكد شمولية القانون في العالم المادى .

وعلى الرغم من كل هذه الجهود لم يكن لقولنير روح رجل العلم ولا تحديداته وقيل أنه أخفق في أن يكون رجل علم . وينبغى بنا أن نرجح القول بأنه كان شخصا ثريا متعدد الجوانب إلى حد لا يستطيع معه أن ينصرف إلى العلم كل الانصراف بصفة نهائية . أنه استخدم العلم وسيلة لتحرير العقل ، حتى إذا تم له ما أراد انصرف إلى الشعر والمسرحية والفلسفة بأوسع معانيها ، والانهماكات الانسانية في الشؤون الأساسية في عصره «يجب أن نهى الطريق في حياتنا لكل أساليب المعرفة والوجدان ونفتح أمامها الأبواب لتنقلد إلى نفوسنا، فإذا لم تبدد هذه شذوذا فإن هناك مكانا فسيحا لكل شيء»^{٤٨} وهكذا كتب في ذلك الوقت (١٧٣٤) بحث في الانسان ردد فيه إلى حد كبير آراء بوب في نفس الموضوع ، حتى إلى درجة أجازة فكرة غير فولتيرية «كل شيء صواب»^{٤٩} . ونظم في هذه السنوات معظم غادة أورليان (جان دارك) . وربما كان هذا انتجاعا لبعض الراحة من عناء نيوتن . وشرح فلسفته في رسالة في الميتافيزيقا ، وقد رأى من الحكمة أن يحجم عن نشرها .

وكانت رسالة غدة مثل سائر انتاجه ، وبدأها بأن تخيل نفسه زائرا وافدا من كوكب المشترى إلى كوكب المريخ ، ومن ثم رأى أنه لا يتوقع منه أن يوفق بين آرائه وبين ما جاء به الكتاب المقدس . وخط رحاله بين كفار جنوب أفريقية . وينتهى إلى أن الانسان حيوان أسود الجلد شعره شبيه بالصوف ، ثم يتقل إلى الهند ليجد أناسا صفر اللون ذوى شعر بسيط غير مجعد ، فيستنتج أن الانسان جنس يتألف من عدة أنواع متميزة لا تتحلل كلها من أصل أو سلف واحد^{٥٠} ويحكم من مظاهر النظام في العالم ومن التركيب المادى المعنى في أعضاء الحيوان بأن هناك ربا ذكيا يصمم أو يركب صور الجميع . ولا يرى دليلا على وجود نفس خالدة غير فانية

فى الانسان ، ولكنه يشمر بأن ارادته حرة . وقبل هبوم وآدم سمىث يزمن
طويل نرى فولتير يستمد روح الأخلاق من التعاطف بين الناس بعضهم مع
بعض ، وقبل هلفشيوس وبنتام يزمن طويل أيضا نرى فولتير يحدد
الفضيلة والرذيلة بما هو مفيد وغير ضار بالمجتمع ^(٥١) وسنعود إلى هذه
الرسالة فيما بعد .

وكم اختلفت هذه الرسالة عن الشعر المرح الذى نظمه فولتير فى تاريخ
جان دارك وأنا إذا فتحنا هذه الملحمة الساخرة اليوم فلا بد لنا أن يقفز
إلى ذاكرتنا أن الكلام الفرنسى والأدب الفرنسى كانا أكثر تحمورا آنذاك
منهما فى النصف الأول من القرن الثرين . رلقد رأينا نموذجاً فى الرسائل
الفارسية للحاكم مونتسكيو ، بل أن ديدرو كان أكثر حرية لافى الجواهر
المنظومة فحسب ، بل فى جاك المؤمن بالقضاء والقدر كذلك . فإذا
قورنت جان دارك بهذين الكتابين كما نشرها أخيراً فولتير فى ١٧٥٦ ،
لوجدناها معتدلة بشكل محمود . ومن المحتمل أن الأصل الذى جرى تداوله
مرا كان أقرب إلى أسلوب رابيليه ، ودافع كونتروسيه الوقور الرزين عن
القصيدة وروى أن مالشرب وهو أحد كبار موظفى الحكومة الفرنسية حفظها
عن ظهر قلب ^(٥٢) ، ووجد فى القسم الحادى والعشرين من القصيدة بعد
بحث مجهد ، بعض أبيات معتدلة فى فسقها وشهوانيتها يمكن التجاوز عنها
مثل الصور الشبيهة بها عند آريوستو ، وقد عوض عنها بقطع كثيرة تقدم
وصفا رائعا وسردا بارعا ، وكان فولتير مثل كثير من الفرنسيين فى زمانه
يرى فى جان دارك بنتا فلاحية بريئة ساذجة ، وربما كانت ابنه غير شرعية
استسلمت للخرافات واعتادت سماع (الأصوات) ، وارتاب فى أن فرنس
كان لا بد أن تنقل من الغزو الانجليزى حتى ولو لم تولد هى قط . وفيه
عدا هذا ومع التسامح فى بعض الأخطاء التاريخية ، فإنه روى القصة بأمانة
مع تمليحها ببعض الدعاية ومال الملك يرأسه نحو جان الباسلة التى لا تهاب
شيئا ، وقال فى صوت مهيب يرهبه الجميع إلا هى وحدها ، أنصت إلى
ياجان ، إذا كنت عذراء حقا فأقسمى اليمين ، فأجابت : مولاي العظيم ،

أصدر أوامرك الآن إلى الأطباء الحكماء الخبيرين بأسرار النساء ونظاراتهم على أنوفهم ، ورجال الدين والصيادلة وكبيرات الممرضات الخبيرات ليجتمعوا على الفور للفصل في الأمر ، فليدققوا النظر ويروا ومن هذا الجواب الحكيم عرف شارل أنها لا بد أنها ملهمة تلقت وحيا ، وأنها تتمتع بنعمة العذوية ، المقدسة المباركة ، ثم قال الملك حسنا يا ابنة السماء ، ما دمت تعرفين كل شيء فأخبريني ماذا حدث بيني وبين زوجتي في الفراش في الليلة الماضية؟ تبوسل إليك تحدثي بصراحة ، فقالت جان لا لم يحدث شيء . فدهش الملك وركع وصاح بصوت عال : أنها معجزة ، ثم رسم علامة الصليب وانحنى احتراما واجلالا (٥٣) .

وقرأ فولتير على ضيوفه مقطعا أو مقطعين من جان دارك رغبة في تسليتهم ، وليبعث الدفء في أمنيات الشتاء الباردة . وكانت مدام دي شاتيليه تحتفظ بالمخطوطة الضخمة في خزر أمين ، وسمح فولتير في استخفاف وإهمال بتداول بعض الأجزاء بين أصدقائه ونسخ بعضها وتناقلها المجتمع غير المهذب على نطاق أوسع مما كان من الحكمة أن يكون . وكان الخوف من أن تقاضيه الحكومة الفرنسية — لا بسبب فحش القصيدة بل بسبب الهجاء اللاذع في بعض أجزائها للربان واليسوعيين والأساقفة والبابوات ومحاكم التفتيش — من بواعث القلق والهموم التي أقضت مضجعه وعكرت عليه صفو حياته .

وكان فولتير أكثر جدية ووقارا في الزير Alzire « التي بدىء بعرضها بشكل يدعو إلى السعادة والابتهاج على المسرح الفرنسي في ٢٧ يناير ١٧٣٦ . وحققت التاريخ المسرحي بارتداء الممثلين الثياب التي كانت سائدة في الزمان والمكان المحددين لأحداث الرواية — الفزو الأسباني لدولة بيرو وسلها ونهبها . وتبوسل الفاريت الحاكم الأسباني للبلد المغلوب على أمره إلى المنتصرين أن يضعوا حداً لقسوتهم وجشعهم فيقول « نحن سوط العذاب الذي انصب على هذه الدنيا الجديدة ، نحن عابثون جشعون ظالمون . . . نحن المتبريرون وحدنا هنا أما المتوحشون السذج البسطاء ، ولو أنهم عنيفون

بطبيعتهم . فانهم شجعان بواسل مثلنا ، ولكنهم يفوقوننا في الميل إلى الخير وطيبة النفس ^(٥٤) . وصفقت باريس لهذه الرواية لمدة عشرين ليلة متوالية ودفعت ٥٣٦٤٠ جنيهها . وتنازل فولتير عن نصيبه من دخل الرواية للممثلين .

وفي ٨ أغسطس ١٧٣٦ تلقى فولتير أول رسالة من فردريك ملك بروسيا ، ومن هنا بدأت مراسلات مشهورة وصداقه فاجعة . وفي نفس العام نشر قصيدة « الرجل الدينوى » وكأنما كانت ردّاً مسبقاً على رسالة روسو « بحث في الفنون والعلوم » (١٧٥١) أن فولتير ضاق ذرعاً بالخالطين الواهمين الذين يصفون المثالية على الإنسان البدائي غير المتمدن الودود الصاعد « أو يجبلون الرجوع إلى الطبيعة » هرباً من الانفعال وتوتر الأعصاب والنفاق والخداع في الحياة الحديثة . إنه هو نفسه كان مستريحاً وسط ما يعاني من بلايا ومحن ، ورأى أنه كان لزاماً عليه أن يقول كلمة طيبة في المدنية انصافاً لها . إنه لم يجد أية فضيلة أو ميزة في الفقر ، أو أي انسجام بين الجرائم والحب وربما كان البدائيون شيوعيين ، وهذا فقط لأنهم لم يكونوا يملكون شيئاً . وإذا اتسموا بالاعتدال والقصود والرزانة فما ذاك إلا لأنهم لم يكن لديهم نهمور « وأنا من بجانب أحمد للطبيعة الحكيمة أنها من أجل سعادتي أنجبتني في هذا العصر الذي يحط من قدره نقادنا الذين تعرفهم الكآبة والانقباض . إن هذا الزمن الدنس ملائم كلى الملاءمة لحياى فأنا أحب الترف والبدخ بل الحياة الناعمة وكل الملذات والفنون على اختلاف أنواعها ، والنظافة والذوق والزينة والزخرفة وبدا له كل هذا مفضلاً لديه بشكل واضح على جنات عدن « أبي العزيز آدم ، اعترف أنك ومدام حواء كانت لكما أظفار طويلة سوداء بما فيها من أقدار ، وإن شعره كما كان أشعث أغبر إلى حد ما وعبثاً حاول العلماء أن يعينوا مكان جنة عدن . . . إن جنة الأرض هي التي أعيش فيها أنا الآن .

ولم ترق في أعين رجال الدين الصورة التي رسمها فولتير لآدم وحواء ، وأصرروا على أن سفر التكوين تاريخ صحيح ، ولم يقرأ فولتير على ما جاء

به عن أظافر آدم وشعر حواء ، وتعالى الأصوات مطالبة بالقبض على
شيطان سبرى الكافر . وحذره الأصدقاء مرة ثانية ، فاعتزم الرحيل .
وفى ٢١ ديسمبر ١٧٣٦ غادر سبرى وامبلى ، قاصدا بروكسل متنكرا فى زى
التاجر ريقول . وسخر المعجبون به هناك من تنكره ومثلوا مسرحية آلزير
تكريماً له . وحذر جان بابتست أهل بروكسل من أن فولتير حاء إليهم
ليبشر بالإلحاد ، فانتقل إلى ليدن حيث احتشدت الجماهير لرؤيته ، ثم إلى
امستردام حيث أشرف على طبع كتابه عن نيوتن ، وساور المركيزة آنذاك
الخوف من أنه لن يعود إليها مطلقاً ، فكتبت إلى دار جنتال : « منذ اسبوعين
فقط كنت أتعذب لعدم رؤيته لمدة ساعتين اثنتين ، وكنت أكتب إليه من
غرفتي إلى غرفته ، ومضى الآن أسبوعان لا أعرف أين هو ولا أعرف
ماذا يفعل . . . أنا فى حالة يرثى لها ^{٢٥} » وأخيراً عاد (مارس ١٧٣٧)
وهو يقسم أنه لولا حبه لها لما أتم فى فرنسا التى تلاحقه وتطارده على
هذا النحو .

وفى مايو ١٧٣٩ عاد العشيقان إلى بروكسل حيث استخدم فولتير كل
موامبه القانونية وغيرها فى قضية تتعلق بممتلكات المركيزة . ثم قصد هو
وزوجها إلى باريس حيث قدم فولتير روابى محمد وميروب إلى مسرح
الكوميدي فرانسيز ، وحيث رأت السيدة شاتيليه فى المطبعة مجلداتها الثلاثة
عن « قوانين الفيزياء » وفى هذه الدروس « تهربت من فولتير ونيوتن
كليهما مؤثرة عناصر الوجود الأولية فى فلسفة ليدنتز . وفى سبتمبر عادوا
إلى سبرى ، ثم فصلوا بعدها إلى بروكسل لاقامة طويلة ، ومنها فى سبتمبر
١٧٤٠ أسرع فولتير إلى كليف Cleves لأول لقاء له مع فردريك ، وكان
قد أصبح ملكاً ، ورفض أن يدعو إمبلى معه . وفى نوفمبر قطع مسافة
١٥٠ ميلاً مرهقة قاصداً برلين ليقوم بمهمة دبلوماسية للكاردينال فليرى ،
ومنعود إلى تفصيل هذه المهمة فيما بعد . وذهبت إمبلى فى نفس الوقت
إلى فونتنبلو حيث بذلت جهداً كبيراً فى الحصول على إذن لفولتير بالإقامة
فى باريس ، وواضح أن سبرى أصبحت عبئاً لا يطاق . وفى ٢٣ نوفمبر

كتبت إلى دارجتال : لقد لقيت جزاء صنار على كل ما فعلت في فونتنبلو ، لقد ذلت كل العقبات ، وحصلت لفولتير على حق العودة إلى بلده دون قيد أو شرط ، ووفقت بينه وبين الوزارة ، ومهدت الطريق لقبوله في الأكاديمية ، وصفوة القول أني في ثلاثة أسابيع أستطعت أن أعيد إليه كل ما فقدته في ستة أعوام . فهل تعلم كيف كافاني على مثل هذا الانحلاص والغيرة ؟ أنه أبلغني في رسالة جافة أنه قصد إلى برلين ، وهو يعلم علم اليقين أنه يحطم قلبي ويعذبني عذابا لا يوصف ... لقد انتابني الحمى . . . وآمل أن أفارق الحياة وشيكا ... وهل تصدق أن الفكرة التي تستبد بعقلي حين أحس بأن الحزن سيقطنني ، هي فكرة الأسمى العميق الذي ينتاب فولتير لموتى ؟ ... أني لا أطيق أن أفكر في أن ذكرائى سوف تسبب له يوما الشقاء والألم ، ويجلد بكل الذين أحبوه أن يكفوا عن لومه .

وانزع فولتير نفسه من جو النفاق الملكي ليلحق بعشيقته ، وفي طريق عودته بعث إلى فردريك برسالة يوضح فيها وجهة نظره في الموضوع :

« إنني أترك ماسكا عظيما يكرم ويشجع فنا أعجب به إلى حد التأليه ، لألحق بسيدة لا تقرأ شيئا إلا ميتا فزيقا وولف المسيحي (شارح ليبنتز) . أني أنتزع نفسي من أعظم حاشية أمتاعا وإيناسا في أوروبا من أجل قضية قانونية . أني لم أترك حاشيتك الفاتنة الجديرة بالحب لأتهدد واقؤه مثل أحق معنوه بين يدي امرأة ، ولكن هذه المرأة يا مولاي هجرت من أجل كل شيء ، مما يتخلى سائر النساء عن أصدقائهن من أجله . أنني أسير فضلها في كل شيء أن الحب غالبا ما يكون سخيها مضحكا ، ولكن الصداقة الخالصة والود الصافي لهما حقوق يرتبط المرء أكثر مما يرتبط بأوامر الملك (٥٦) .

والتقى ثانية باميل في بروكسل التي أصبحت بلدهما الثاني بسبب طول الاجراءات في قضيتها . وفي مايو ١٧٤١ شهدا العرض الأول لرواية محمد في ليل ، ولقيا ترحيبا حماسيا . وعادا إلى بروكسل مزهوين مبتهجين ، ولكن عكس صفوهما شعور بأن جنوة الغرام قد بدأت تنطفئ . وكان حبهما

لا يزال قويا . ولو أن جوهر هذا الحب كان الرغبة في التسلط والسيطرة . ولكن شعلة الحب عند فولتير بدأت تتحول إلى قلمه . وفي يولية ١٧٤١ اعتلر لها عن غيرته التي أخذت تلوى وتذبل : « إذا وددت أن أستمع على الحب فعليك أن تغيدى إلى مسافات من زمان الحبيبين ، أعيدى إلى إذا كان في مقدورك ، فجر الحياة ، وهى في غسق المساء ، نحن نموت مرقين ، وأنا ألحظ هذا جيدا . إنه موت لا يطاق أن نتوقف عن الحب ونحن جديران به ، أما توقف الحياة نفسها فهو أمر تافه لا قيمة له » .

وفي أغسطس ١٧٤٢ قصدا إلى باريس ليشهدا العرض الأول لرواية « محمد » فى المسرح الفرنسى . وكان فولتير قد سعى للحصول على إذن رسمى من الكاردينال فلبرى بتمثيلها ، فأجابه إلى طلبه .. وكان هذا العرض الأول (١٩ أغسطس) الحدث الأدبى لذاك العام ، وشهده كثير من الحكام ورجال الدين والشعراء بالإضافة إلى الجمهور الذى اكتظ به المكان . وبدا أن الجميع راضون عن المسرحية باستثناء نفر من رجال الدين الذين زعموا أن الرواية ليست إلا « هجوما عنيفا على المسيحية » وانضم فريرون وديفونتين وغيرهم إلى هذه الشكوى . وعلى الرغم من أن الكاردينال أحس بأن هؤلاء النقاد يسيثون إلى قضيتهم ، فإنه بعث إلى فولتير برسالة سرية ينصحه فيها بسحب الرواية ، وتم هذا بعد العرض الرابع من إقبال شديد على الرواية . وعاد فولتير واميلى أدراجهما إلى بروكسل ، وقد استبد بهما الغضب لخبية أملهما .

وهل كانت رواية « محمد » هجوما على المسيحية ؟ ليس الأمر إلى هذا الحد . أنها كانت تهاجم التعصب الأعمى والتزمت ولكنها صورت الرسول فى صورة غير ودية ربما أثلجت صدور المسيحيين الأبرياء من التاريخ ومن سوء النية فيه . أنه صور الرسول مخادعا تعمد أن يدرس دينه الجديد إلى عقول قوم سذج ويستغل أيمانهم فى استثارة همهم فى القتال ، ويغزو مكة ، بإصدار أمره إلى نصيره المتعصب سعيد بقتل الشيخ زبير الذى يقاوم هذا الغزو وعندما يتردد سعيد يؤذيه محمد فى عبارات بدت

لبعض المنتقمين وكأنها تعريض لرجال الدين المسيحيين : فهو يقول :
« وأنت أيضًا تتردد ؟ أنها الشباب الحرى ، إنه لما يتنافى مع الدين أن
تتردد ؛ إن الدين يستعملون عقولهم لا يميلون إلى الأيمان . بمحمد ، إن عليك
أن تمثل . إن إرادة الله تقضى بذلك . ألا تعلمون أن إبراهيم الخليل ولد
هنا وأن جثمانه الطاهر يرقد هنا ، وهو الذى امتثل لصوت الله وأحمد
صميمات الطبيعة بين جنبيه ، وتخلّى عن ولده العزيز !! أن الله العلى القدير
نفسه هو الذى يطلب إليكم أن تضحوا ، ويهيب بكم أن تنفروا إلى القتال ،
ومن ذا الذى يتجرأ فيتردد فى تنفيذ أمر الله إذا دعاكم إلى القتال ؟ فاضربوا
إذن فوق الأعناق . أن دم الشيخ زبير يحوّلكم النعيم المقيم فى الدار
لآخره ^(٥٨) » (*) .

ويقتل سعيد الشيخ العجوز الذى يتبين وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة
أن القاتل ابنه . وهذا بطبيعة الحال هجوم من فولتير على استخدام الدين
ذريعة لسفك الدماء واشعال نار الحرب . وهذا ما قصد إليه فولتير .
وفى رسالة إلى فردريك ضرب أمثلة لجرائم ارتكبت بأسم الدين ، منها
قتل وليم أورانج وهنرى الثالث وهنرى الرابع ملكى فرنسا . ولكنه أنكر
أن المشرحة هجوم على الدين ، بل أنها دعوة إلى استمساك المسيحيين
بمبادئ المسيحية الحقة .

وفى سبتمبر ١٧٤٢ واساه الكردينال فليرى بإيفاده إلى فردريك ليحاول
توجيه سياسته إلى الصداقة مع فرنسا . وقصد فولتير مزهوا بدبلوماسيته
لزيرة الملك فى آخن . وتبين الملك أهدافه ومراميه ، فرد على حديثه
السياسى شعرا ، وأعاد فولتير إلى باريس مع عشيقته أميلى والمسرحية .
وفى ٢٠ فبراير ١٧٤٣ أخرجت على الكوميدي فرانسيز أعظم رواياته ميروب
حيث لاقت نجاحا أخرس أسنة أعدائه بعض الوقت .

(١) أثبتنا هنا ما ورد فى الأصل الانجليزى من رواية فولتير . وواضح أنه أبعد
ما يكون عن جوهر الإسلام وتاريخه الصحيح ومشروعية القتال . ولكننا حرصنا على الأمانة
فى النقل . (المترجم)

وكانت عدة مسرحيات قد كتبت بالفعل في نفس الموضوع ، منها مسرحية يوربيدس التي لم يبق منها إلا شذرات قليلة وفي خطاب تمهيدى أقر فولتير بالفضل والعرفان لمركيز فرانشسكو مبيون دى مافى (وهو من فيرونا) الذى كان قد أخرج ميروب في ١٧١٣ . وكانت هذه المسرحيات تتميز بتحول الاهتمام فيها إلى حب الوالدين لا إلى الحب الجنسى ويروون أن معظم الحاضرين سالت دموعهم في المشهد الأخير . ولأول مرة في تاريخ المسرح الفرنسى تعالت الأصوات تنادى بظهور المؤلف على خشبة المسرح ، وقيل إنه وافق وبذلك أوجد سابقة أسف لها لسنج أشد الأسف . وطبقاً لبعض المصادر الأخرى يقال أن فولتير رفض الظهور على المسرح على الرغم من حث الدوقتين اللتين جلس في مقصورتها ، وكل ما فعله أنه نهض واقفاً في مكانه لحظة رداً على التحية^(٥٩) ، وحكم فردريك بأن هذه المساة من أحسن ما كتب من مسرحيات^(٦٠) . وذهب جييون إلى أن الفصل الأخير يضارع أى فصل في مسرحيات راسين^(٦١) .

وقل من قيمة نجاح « ميروب » اخفاق فولتير في الفوز بمقعد في الأكاديمية الفرنسية . إنه سعى له سعياً متواصلاً إلى حد أنه أعلن نفسه كاثوليكيًا حقاً ومؤلف عدة أبحاث أقرتها الكنيسة^{٦٢} . وأيده اويس الخامس عشر في بداية الأمر ولكن وقف في طريقه وزيره الجلديد مورياس الذى احتج بأنه لا يليق أن تشغل نفس شربة دنسة المقعد الذى خلا بوفاة الكاردينال فليرى . وشغل المقعد أسقف ميربوا . واستحث فردريك فولتير أن يترك البلد الذى لا يلقى فيه عباقرته سوى هذا القدر الضئيل من التكريم ، ويحضر ليقم معه في بوتسدام . فاعترضت مدام دى شاتيليه وأشارت عليه الحكومة الفرنسية بقبول الدعوى لبعض الوقت والقيام بعملية التجسس في برلين . وهفت نفسه إلى الاشتغال بالسياسة ، فقبل الدعوى وقام ثانية بالرحلة المرهقة راكباً عبر فرنسا وبلجيكا وألمانيا ، وقضى في هذه المغامرة ستة أسابيع (٣٠ أغسطس - ١٢ أكتوبر ١٧٤٣) ومرة أخرى سخر فردريك من سياسته وامتدح شعره ، وعاد فولتير إلى اميل

في بروكسل . وفي أبريل ١٧٤٤ استأنفا مقامهما في سبى محاولين بعث غرامهما الميث إلى الحياة من جديد .

وفي «رسالة السعادة» كانت المركبة ترى أن الرغبة في المعرفة هي إحدى الرغبات التي تسهم أكبر اسهام في سعادة الإنسان لأنها تجعلنا أقل اعتمادا بعضنا على بعض ومع ذلك تقول عن الحب : « إنه أعظم الأشياء الطبيعية التي هي في متناول أيدينا ، وهي الشيء الوحيد الذي نضحى من أجله بلذة الدرس والتحصيل . والمثل الأعلى في هذا المجال شخصان يفتن الواحد منهما بالآخر إلى حد لا تفتر معه عواطفهما ولا تصاب بالتخمة أبدا ، ولكن لا يمكن لإنسان أن يأمل في مثل هذا التآلف والانسجام بين شخصين ، لأن هذا شيء يفوق حد الكمال . فالقلب الأهل لمثل هذا الحب والنفس الوقية بالهبة إلى هذا الحد يجوز أن تخلق مرة واحدة كل قرن من الزمان (٦٣) .

وفي رسالة مؤثرة لخصت نخلها عن هذا الأمل :

« قضيت عشرة أعوام سعدت فيها بحب الرجل الذي غزا قلبي . وقضيت هذه الأعوام العشرة في ارتباط وثيق به وعندما انتقص امتداد العمر والمرض من تعلقه بي لم ألحظ هذا إلا بعد مرور فترة طويلة . إنى أحبيته لسببين ، قضيت حياتي كلها معه واستمتع قلبي الواصل بنشوة الحب ، بالإضافة إلى توهي أنني أيضا جديرة بالحب ، وأظلت من يدي هذا الظرف السعيد (٦٤) .

وماذا حول فولتير من الحب والهيام إلى هذا الوفاء المتقطع ؟ ويبدو أنه كان صادقا في التذرع باعتلال صحته . ولكننا سنجده في بحر عام واحد يتأوه ويتنهد كالمعتوه بين يدي امرأة « والحق أنه كان قد استنزف جانبا من حياته واهتمامه — مدام دي شاتيليه والعلم . إن العزلة في سبى ربما أورتت السأم والملل بسرعة ذهنا يافعا . ولم تكن نعمة وبركة إلا عند ملاحقة الشرطة له ؛ وعند ما كان يدعوه العلم إلى التفرغ له ، ولكنه كان آنذاك قد تلوق ثمانية ملذات باريس ومباهجها ، واستمتع بمشاهدة افتتاح

مسرحياته . بل كان يلعب دورا في السياسة القومية ، وأحس بسحر الحاشية ولو من بعيد . وأصبح صديقه المركيز دارجنسون الوزير الأول ، كما أصبح صديقه ومدينه الدوق دى ريشيليو الأمين الأول للملك . وكان لويس قد رق له ولأن جانبه . وفي ١٧٤٥ كان الدوفن على وشك أن يتزوج من الأميرة الأسبانية ماريا تيريزا رافاييلا . ولا بد أن تقام احتفالات ضخمة لهذا الغرض ، فكلف ريشيليو فولتير بكتابة مسرحية لهذه المناسبة . وكان على رامو أن يكتب الموسيقى ، فيتعاون الملحن والشاعر في العمل معا ، وكان لزاما أن يحضر فولتير إلى باريس ، وفي سبتمبر ١٧٤٤ ودع العاشقان سبرى وانتقلا إلى العاصمة .

٤ - رجل البلاط : ١٧٤٥ - ١٧٥٨

بلغ فولتير آنذاك سن الخمسين وكان لوقت غير قصير يحضر في كل عام مرة . وكتب إلى تيريو في ١٧٣٥ « من المؤكد أنه ليس أسمى إلا سنوات قليلة أعيشها »^(٦٥) . وكان قد بلغ آنذاك الحادية والأربعين ، وكان أمامه ثلاث وأربعين سنة أخرى ، فكيف تسنى له هذا ؟ عندما انتابته علة خطيرة في شالون في أعالي المارن (١٧٤٨) ، ووصف له أحد الأطباء بعض الأدوية ، قال فولتير ، كما يروى سكرتيه ، إنه لن يتبع شيئا من هذه التعليمات ، لأنه يعرف كيف يعالج نفسه في أيام الصحة والمرض على حد سواء . وسيظل طبيب نفسه كما كان دائما . وفي مثل هذه الأوقات كان فولتير يصوم لبعض الوقت ، ثم يأكل قليلا من الحساء الرقيق والخبز المحمص والشاي الخفيف والشعير والماء . ويستطرد سكرتيه لو نجشامب فيقول : « تلك هي الطريقة التي عالج بها فولتير نفسه فبرء من سقمة الذي ربما أدى به إلى نتائج خطيرة لو أنه أسلم نفسه إلى أطباء شالون . كان مبدؤه أن صحتنا تتوقف علينا نحن ، وركائزها الثلاث هي القصد في الطعام والشراب وضبط النفس والاعتدال في كل شيء ، والتمارين والرياضية البسيطة . ففي كل الأمراض التي لا تكون نتيجة لأحداث خطيرة أو تكون لخلل أسامى في أعضاء الجسم الداخلية ، يكفي أن تساعد الطبيعة التي

تسمى جاهدة في شغائنا ، وأن نلتزم في الغذاء بنظام دقيق لفترة طويلة إلى حد ما ، فتغذى على السوائل المناسبة والأغذية الخفيفة الأخرى . ورأيت أنه دائما يلتزم بهذه القاعدة طيلة وجودى معه^(٦٦) .

وكان بارعا مثل رجال المصارف في إدارة أماله واستثمارها . وكان مستوردا وشاعرا ومقاولا وكتابا مسرحيا ورأساليا وفيلسوبا ومقرضا للنقود وصاحب معاش ووارثا . وساعده صديقه دارحسون على جمع ثروة من تموين الجيش^(٦٧) ، وكان قد ورث جزءا من ثروة أبيه وترك له موت أخيه أرمان (١٧٤٥) دخل بقمة أملاك أبيه . وأقرض الدوق ريشيليو ودوق دى فلبار والأمير دى جيزوسيرهم مبالغ كبيرة ، ووجد عناء كبيرا في استرداد الديون ، ولكنه عوض عنها بالأرباح^(٦٨) . وفي ١٧٣٥ كان ريشيليو مدينا له بمبلغ ٤١٧ ٤٦٠ من الجنيهات دفع عنه الدوق أرباحا سنوية قدرها ٤٠٠٠^(٦٩) جنيه « وفي حالة مسيودي بريزي غير الموثوق به كان فولتير يطلب فائدة قدرها ١٠ / ، واستثمر فولتير أكثر أمواله في سندات مدينة باريس التي تدر ربحا قدره ٥ / أو ٦ / ، وكثيرا ما أعطى تعليماته إلى وكيله للحاح على مدينيه بالسداد : « أنه من الضروري يا صديقى أن تطالب مرة ومرتين وتلح وتراقب وتلحف في الطلب—ولكن لا تعذب المدينين من أجل إيرادى السنوى ومتأخراتى^(٧٠) » وفي ١٩٧٩ قدر سكرتير فولتير أن دخله السنوى بلغ ٨٠ ألف جنيه^(٧١) . ولم يكن فولتير ينبش الأرض بحثا عن المال ، ولم يكن بخيلا مقترا ، وكثيرا ما منح الأموال وقدم سائر المساعدات لشباب الطلبة ومد يد المعونة قولاً أو فعلاً إلى فوفينارج ومارمونتل ولا هارب . وقد رأيناه يتنازل عن عائدات رواياته للممثلين ، وعند ما ضاع عليه أربعون ألف جنيه بسبب افلاس ملتزم عام كان قد أقرضه المبلغ واجه الأمر في هدوء ، ولم يثر أو يغضب . وذكر العبارات التي تعلمها في صغره « أعطانا الله ، وأخذ الله فليتيقدس اسم الله » .

ولو أن فولتير أوتى مالا أقل ليستغله ويعنى به ، وكان أكثر بدانة أو أكثر لحما أكثر فوق عظامه ، فلربما كان أثقل حساسية وعصبية وأقل نزقا (م ١٤ — قصة الحضارة)

وانفعالا . وكان كريما حذرا حريصا على مشاعر الناس وحقوقهم . وكان عادة مرحا ودودا طلق المحيا مفعما بالحيوية والنشاط ، وكان أهلا للصدقة الحميمة الوثيقة . وما أسرع ما كان يغتفر أية اساءة لا تجرح كبريائه ، ولكنه لم يكن يحتمل في صبر أى نقد أو عمل عدائى (وكان يقول أئى أحسد الحيوانات على شئئين ، جهلها بما قد ينتابها من مصائب بما يقال عنها^(٧٢)) وأثار ذكاؤه الحاد حفيظة كثير من الأعداء ، فحمل عليه فريرون ويرون وديفونتين وهاجموا أراءه فى عنف أشد من عنف رجال الدين فى مهاجمته . ولسوف نسمع منهم شيئا فشيئا . ورد عليهم فولتير الضربات بمثلها على الرغم من نصيح مدام شاتيليه له بالتزام الصمت ، ووجه إليهم أقذع السباب والشتائم، وجند أصدقاءه لشن الحملات عليهم . وكـم وجدت المركيزه مشقة فى منعه من الذهاب إلى باريس ليعنف ديفونتين أو يتحداه ، بل أنه فكر فى مناشدة الرقابة أن يحظر نشر ما يكتبه ألد أعدائه . لقد كان فى فولتير كل شوائب مناقبة ومزيد من الشوائب .

ووجد فولتير فى رامو (الموسيقار) شخصا نزقا مزهوا سريع الغضب مثله . وكان تعاونهما فى العمل امتحانا قاسيا لكل منهما : ولكن أخيرا اكتمل نص الأوبرا والموسيقى وقام الممثلون والموسيقيون بعمل تجربة للرواية . و ٢٣ فبراير ١٧٣٥ تعرضت « أميرة نافار » - واقيت ما كان مقدرها لها من نجاح . وبعد ذلك بشهر خصصت لفولتير حجرة فى فرساي تقارب ما وصفه فى رسائله الخاصة بأنها « أقذر حجرة فى فرساي » وتبوأَت مركيزة شاتيليه من جديد فى الحاشية مكانها الذى كانت قد ضحت به من أجل فولتير . وحصلت آنذاك على الامتياز المذهل وهو الجلوس فى حضرة الملكة . وكان فى صعود نجم مدام دى بمبادور تدعيم لمركز فولتير ففد تعرف عليها حين كانت مدام دتوال ، وزارها فى دارها ، وكتب فى مديحها شعرا ثافها ، وبناء على الحاح منها عينه الملك (أول ابريل) مؤرخ الملك برائب قدره ألفى جنيه فى العام .

وسرعان ما اقتضت الظروف أن يثبت جدارته ووجوده . ذلك أنه فى ١١ مايو ١٧٤٥ هزم الفرنسيون الانجليز فى فونتنوى فطلب دار جنسون قصيدة

غنائية تخلد هذا الانتصار . ونظم فولتير ٣٥٠ بيتا من الشعر في ثلاثة أيام طبعت خمس طبعات على مدى أسبوعين . وأحب الملك فولتير افترة وجيزة ، وأصبح فولتير شاعر حرب . وزيادة في تخليد ذكرى النصر كلف فولتير ورامو باعداد أوبرا المهرجان . وأبرزت أوبرا « معبد المجد العظيم » أى تراجان - أى لويس الخامس عشر - عائدا من المعركة ظافرا منتصرا ، وخصص لفولتير في تلك الأمسية مكان على مائدة الملك ، وأكلا معا طعاما شهيا ، ولكن فولتير سأل ريشيليو في لهفة : هل تراجان راض ؟ ولكن الملك سمعه مصادفة ورأى أنه وقح جرىء بعض الشيء فلم ينبس إليه ببنت شفه .

وتمثل فولتير بمزيج من الشهرة والانتساب إلى الحاشية الملكية ، فبدأ حملة جديدة للانضمام إلى مجمع الخالدين (الأكاديمية الفرنسية) ولم يأل أى جهد في تحقيق مأربه . وفي ١٧ أغسطس ١٧٤٥ أرسل نسخة من رواية « محمد » إلى البابا بندكت الرابع عشر ، يسأله أن يهديها إليه . وفي ١٩ سبتمبر رد البابا اللطيف : سعدت الليلة الماضية بروايتك « محمد » التي قرأتها بشغف وسرور عظيم . وإنى لأقدر مواهبك أكبر التقدير ، وهذا أمر يعترف به الجميع ... وإنى لأكبر كل الأكبار فبك واخلاصك ... وإنى هنا أمنحك بركتي الرسولية (٧٣) .

واغتبط فولتير بهذا الوسام أيما اغتباط حتى أنه كتب إلى البابا تقديرا حارا ختمه بقوله : بكل اجلال وتقدير واحترام أقبل قدميك المقدستين (٧٤) وأعلن إلى باريس تمسكه بالمذهب الكاثوليكي وإعجابه باليسوعيين ، وأطنب في مدائحه لمدام بمبادور والملك . وتوسلت بمبادور إلى الملك وقبل الملك رجاءها . وأخيرا في ٩ مايو ١٧٤٦ وافقت الأكاديمية على انضمام أمير الشعراء في هذا العصر والكتاب المسرحيين فيه إليها . وزيادة في تكريمه وتدعيم مركزه عين في ٢٢ ديسمبر موظفا في الحاشية الملكية مخصصا للقيام على شئون الملك .

وربما تسنى له في أيام النضاح والعيش الرخيد هذه أن يكتب رواية « بابوك أو الدنيا كما هي » وبابوك رجل من سكيزيا (إقليم قديم في جنوب شرقي أوروبا. وجنوب غربي آسيا) يحول ليرى الدنيا ، وبخاصة كيف تسير الأمور في فارس (أي فرنسا) وأصابه الدهول والقرح لما رأى من الحروب والفساد السياسي وشراء الوظائف وجباية الضرائب وثراء رجال الدين . ولكن ترحب به سيده (مدام دي بمبادور) استماله جمالها وثقافتها وكياستها إلى « المدنية » ويرى بابوك هنا وهناك بعض مظاهر الكرم ونماذج للأمانة . ثم يزور رئيس الوزراء (تذكرنا بالكاردينال فليري) ويجده يعمل جاهدا لانقاذ فارس من الفوضى والهزائم ، ويخلص إلى أن الأمور تسير سيرا حسنا بقدر ما تسمح به الظروف الراهنة للطبيعة البشرية للتعليم ، وأن الدنيا بوضعها الحاضر لا تستحق التدمير بعد ، وأن الإصلاح خير من الثورة ، أما بالنسبة لشخصه هو على أية حال فإنه سيقلد الحكماء الحقيقيين الذين يعيشون بينهم وبين أنفسهم في عزلة وهدوء^(٧٥) . فهل شعر بالوحشة والشوق إلى سيرته فعلا ؟

إنه على أية حال لم يكن لائقاً لعمل في البلاط . فإنه بطريقة تعوزها اللباقة إلى حد لا يصدق احتفل بانتصار الفرنسيين في برجن آوب زوم بقصيدة صور فيها الملك لويس الخامس عشر طائراً من ميدان المعركة إلى أحضان بمبادور ، وعهد إليهما معا بمهمة الاحتفاظ بالفتوحات واستبد الغضب بالملكة وبأبنائها ، واستنكر نصف أفراد البلاط وقاحة الشاعر ، وفي الوقت عينه كانت دي شاتيليه قد انغمست في لعب الميسر ، وفي ليلة واحدة خسرت ٨٤ ألف فرنك ، وأنلرها فولتير بالإنجليزية وهو واقف إلى جوارها بأنها تغش في اللعب . وفهم بعض اللاعبين ذلك واحتجوا وترامت أنباء هذه الصراحة المخزية إلى أفراد الحاشية ، فلم ترك الشاعر صديقاً في فرساي أو فوتنبلو ، وهرب فولتير واميل إلى سكو (١٧٤٧) ليقبها لدى الدوقة دي مين التي ما زالت على قيد الحياة ، وهناك بقي لمدة شهرين في جناح منفرد (معزل) بعيد عن أنظار الناس ، وهناك حاول أن ينسى وطرته

ومعنته بالانصراف إلى كتابة بعض القصص الرومانسية المريحة التي ساعدت على أن تجعل منه أعظم المؤلفين شعبية في الأدب الفرنسي . وواضح أنه قرأها ذات يوم على الضيوف المقربين الذين تألفت منهم حاشية النوبة الخاصة . ومن هنا كان إنجاز هذه القصص وما فيها من هجاء مرع وسخرية لطيفة .

وأطول هذه القصص التي كتبت فيما بين عامي ١٧٤٦ ، ١٧٥٠ هي « زاديج أو سر القدر » وزاديج شاب بابلي لطيف غني تلقى أحسن تعلم ، عاقل قدر ما يمكن أن يكون الإنسان عاقلا واسع الاطلاع على علوم قدامى الكلدانيين . فهم أصول ومبادئ الفلسفة الطبيعية ، وعرف من الميتافيزيقا ما يمكن أن يعرف في أي عصر ، أي القليل منها أو لا شيء على الإطلاق^(٧٨) . وكان على وشك أن يزوج من سمينا الجميلة حين هاجمه بعض قطاع الطرق ، وأصابوه بجرح تحول إلى خراج في عينه اليسرى ، واستدعى هرمز الطبيب المشهور من ممفيس وفحص الجرح ، ثم أعلن أن زاديج لا بد أن يفقد عينه ، ولو أنه في العين اليمنى لأمكن علاجه بسهولة ، ولكن الجروح في العين اليسرى غير قابلة للشفاء . وأعلنت سمينا أنها تنفر نفورا لا سبيل إلى مقاومته من الرجال ذوى العين الواحدة ، ومن ثم هجرت زاديج وتزوجت من غريمه . وفي ظرف يومين التأم الجرح من تلقاء نفسه وشفيت العين تماما ، ويؤلف الطبيب هرمز كتابا يثبت فيه أن هذا مستحيل ، ويدخل زاديج السرور على قلب الملك موابدار بنصائحه الغالية ، وعلى قلب الملكة آستارت بنظراته الحانية فتقع في شرك غرامه ، ويهرب زاديج إلى مدينة نائية . وفي الطريق يرى رجلا يضرب امرأة ، ويستجيب في شجاعة لصرخاتها طلبا للمساعدة ، فيتدخل بينهما ويهاجم الرجل بعنف ولكنه يرد به قتيلا . وتسبه المرأة بالفاظ جارحة لأنه قتل عشيقها . ويمضى زاديج في طريقه ويؤخذ ويبيع ويباع الرقيق . عندئذ تصور زاديج « الناس كبا هم في حقيقة أمرهم حشرات يفتك بعضها ببعض من أجل قطرة من طين » .

وقص « ممنون الفيلسوف » حكاية رجل اعتنق يوما الفكرة الجنونية بأنه متعل كل التعقل ولكنه وجد نفسه قاصرا قصورا يائسا عاجزا يواجه مئات الكوارث ، فيقرر أن الأرض مستشفى كبير للأمراض العقلية تقوم الكواكب الأخرى بترحيل المجانين فيها إليه (٧٧) .

أما رحلات سكارمنتادو فهي تطوف بشاب من كريت من بلد إلى بلد حيث يتكشف له في كل يوم مشاهد جديدة من التعصب أو الخداع أو القسوة أو الجهل . ففي فرنسا تجتاح الحروب الدينية المقاطعات ، وفي إنجلترا تحرق الملكة ماري حمسائة من البروتستانت ، وفي اسبانيا ينشق الشعب في لذة رائحة المهرطقين الذين ألقى بهم في النار ، وفي تركيا ينجو سكارمنتادو من الختان بأعجوبة ، وفي فارس يتورط في الصراع بين طائفتي السنة والشيعة من المسلمين ، وفي الصين يتهمة اليسوعيون بأنه شخصية بارزة من طائفة الدومنيكان ، وأخيرا يعود إلى كريت « ولمذ رأيت الآن كل ما هو نادر أو خير أو جميل على الأرض ، فقد وطدت العزم على ألا أرى في المستقبل شيئا غير بلدي ، وتزوجت وسرعان ما داخلني الشك في خيانة زوجتي ، ولكني على الرغم من هذا الشك وجدت أن هذه هي أسعد ظروف الحياة » (٧٨) .

وتوسع ميكرو ميغاس في أفكار النسبية التي استخدمها سوفيت في رحلات جليفر . والسيد ميكروميغاس رجل يصلح للاقامة في نجم الشعري اليمانية ، وطوله ١٢٠ ألف قدم وعرض صدره خمسون ألفا ، وطوله أنفه ٦,٣٣٣ قدما . وعند ما بلغ ٦٧٠ عاما من العمر ذهب ليستزيد من النعائم . وبينما هو يحوم في الفضاء هبط على كوكب زحل فسيخر من الأفراام هناك ، حيث بلغ طول الناس هناك ستة آلاف قدم أو نحوها ، وتعجب كيف يتسنى لسكان زحل المعدمين هؤلاء الذين ليس لهم إلا ٧٢ حاسة فقط أن يعرفوا الحقيقة وسأل أحد السكان إلى أي حد من العمر تعيشون ؟ فصاح ساكن زحل واحسرتاه ! قليل جداً منا يعيشون لأكثر من ٥٠٠ دورة حول الشمس (وهي بحسابنا نحن تصل إلى نحو ١٥ ألف سنة) وهكذا نرى أننا بشكل ما نموت في اللحظة التي نولد فيها . . . وما أقل ما نتعلمه

حين ينزل بنا الموت قبل أن نستفيد من خبرتنا^(٧٩) . ويدعو ساكن الشعري
اليمانية ساكن زحل إلى مصاحبته لزيارة كواكب أخرى ، فتتعرأقدامهما
على كوكب الأرض ، وتبتل قدما ساكن الشعري ، ويكاد ساكن زحل
يغرق وهما يسيران فوق البحر المتوسط . فلما وصلا إلى البر رأيا حشودا
من الأهالي صفار الأجسام يتمركزون هنا وهناك في احتياج شديدا ،
وعندما يتضح لساكن الشعري اليمانية أن مائة ألف من سكان الأرض هؤلاء
يلبسون القبعات وعددا مساويا يضعون العمام ، يقتلون ويطيح بعضهم برؤوس
بعض في صراع (الحروب الصليبية) حول ركام من التراب (فلسطين)
لا يكاد يعلو على عقبه بصيح ساخطا . مستاءا : أيها الكفار الأوغاد . . .
قلبي يحدثنني أن أتقدم بخطوتين أو ثلاثا لأمسح تحت قدمي وكر السفاحين
الحقيقي بأمره^(٨٠) .

وكل هذا كان عاما ساراهيجا ، وكان يمكن أن يمر دون أن يحرك
أحد ساكنا . ولكن فولتير في ١٧٤٨ عكر صفو باريس بنشرة صغيرة
« صوت الحكماء وصوت الشعب » هاجم فيها كنيسة فرنسا في نقطة حساسة ،
تلك هي « أملاك الكنيسة في فرنسا » ، حيث ينمو العقل ويتطور يوما
بعد يوم ، فإن العقل يعلمنا انه يجدر بالكنيسة أن تسهم في نفقات الأمة
بنسبة مواردها ، وأن الهيئة التي نصبت نفسها لتلقين مبادئ العدالة يجدر
بها أن تبدأ بنفسها لتكون قدوة للعدالة ونموذجا لها ورغم أن الأديار تضيع
أقوات الشعب وموارد الأرض في نحول عقيم ، واتهم « الحزاقة » بقتل
الحكام وارقة بحور من الدماء في الاضطهادات والحروب ، وذكر الملوك
بأن أحدا من الفلاسفة لم تمتد يده على ملكه ، وإذا اتحد الملوك مع العقل
وجردوا أنفسهم من الخرافة فكم يكون الناس أسعد وأهنا بالآ^(٨١) . وقل
أن أثارت رسالة موجزة مثل هذه العاصفة الهوجاء . ونشرت خمس عشرة
رسالة مضادة للرد على رسالة « صوت الحكماء وصوت الشعب » التي
لم يذكر اسم مؤلفها .

وإثناء إقامة فولتير في فصل الشتاء في سكو سددت مدام دي شاتيليه

ديون القمار . وهدأت من روع الراجحين . وخففت من استيائهم لما نعتهم به فولتير ، وأعادته إلى باريس حيث أشرف على نشر قصصه الصغيرة ، ووجد من الحكمة على الرغم من المشقة والتعب أن يلبي دعوة ستانلاس لتركز نسكى لزيارة بلاطه في لوفيفل - على بعد نحو ١٨ ميلا من نانسى عاصمة اللورين . وبعد رحلة مرهقة وصل الحبيب إلى لوفيفل (١٧٤٨) ولكن بعد أسبوعين وصل كتاب من دارجتال ينبيء فيه فولتير بأن ممثلى الكوميدي فرانسيز على استعداد لتجربة روايته سميراميس ، وأنهم فى حاجة إليه لمعاونتهم فى تفسير أبياتها . وكانت هذه الرواية تعنى الشيء الكثير لديه ، وكانت بمبادور من طيبة نفسها الآثمة قد أعادت إلى المسرح كريبون (الأب) الفقير المعدم وهيات له سبيل النجاح . وكان ماريغو قد نجح سرفا عتبر مسرحيات الشيخ الهرم أعلى مرتبة من مسرحيات فولتير . وكان الشاعر النحيل الجسم قد اعتزم أن يثبت تفوقه بكتابة روايات فى نفس الموضوعات التى كان كريبون قد طرقتها . ومن ثم أسرع فولتير إلى باريس تاركا امبلى فى حرية مهلكة فى لوفيفل . وفى ٢٩ أغسطس ١٧٤٨ عرضت سميراميس لأول مرة عرضا ناجحا . وبعد العرض الثانى أسرع متنكرا إلى مقهى بروكوب واستمع إلى تعليقات من شهدو المسرحية . وكانت ثمة تعليقات امتدحت للرواية وأطرتها ، تقبها فولتير على أنها من حقه ، وثمة آراء أخرى انتقصت من قدرها وهاجتها . وقد آلمته هذه أيما آلام ، حيث كان عليه أن يحتملها صامتا ، ولكنه استفاد مما وجه إلى المسرحية من نقد ، فنقحها واستمر عرضها طويلا . وهى تعد الآن من أحسن مسرحياته .

وأسرع ثانية فى جو سبتمبر العاصف عبر فرنسا إلى لوفيفل ، وكاد يموت فى الطريق عند شالون ، ولما استحثه فرديك الأكبر على المضى إلى بوتسدام اعتذر بأن المرض أفقده نصف سمعه وعدة أسنان من أسنانه . إلى حد أنه لن يكون إلا مجرد هيكل فى برلين . فأجاب « تعال بلا أسنان وبلا أذنين . إذا لم يكن بد من الحضور على هذه الصورة ، ما دام أن هذا الشيء الذى يتعذر تعريفه ، والذى يمكنك من التفكير ، والذى يوحى بكل ما جميل ، سيحضر معك » (٨٢) ولكن فولتير آثر المقام مع إمبلى .

٥ - موت الحبيسة

أحب الملك الصالح ستانيسلاس الأدب ، وكان قد قرأ فولتير وأصابته عدوى عضو الاستنارة ، وفي ١٧٤٩ كان الملك بصدد نشر بيان « الفيلسوف المسيحي » الذي كانت ابنته ملكة فرنسا قد قرأته في استياء حزين . وحذرتة من أن آراءه يشتم منها أنها تابعة من آراء فولتير إلى حد كبير . ولكن الشيخ الهرم استساغ آراء فولتير كما أعجب بذكائه . وكما أنه كان له أيضا محظية (هي المركيزة دي بوفلرز) فإنه لم يجد تناقضا في أن يتخذ من الشاعر محظيا له في بلاطه . كما عين . فوق ذلك ، زوج اميلي المتحرر الواسع الأفق كبير مديري قصره براثب قدره ألفا كراون سنويا .

وكان ثمة موظف آخر في بلاط ستانيسلاس ، هو المركيز جان فرنسوا دي سانت لامبرت ، قائد الحرس . وكانت مدام دي شاتيليه قد التقت به لأول مرة في ١٧٤٧ . وكان هو في الحادية والثلاثين وهي « في الحادية والأربعين . وكانت تلك من خطيرة لامرأة لم يعد عشيقها إلا مجرد صديق حميم . وفي ربيع ١٧٤٨ بدأت تكتب للضابط الوسيم رسائل غرام تكاد تنسم بحماسة البنات الضغيرات وخلاعتن : « نعال إلى بمجرد أن ترتدي ملابسك » سأطير إليك بعد أن أتناول العشاء . « وأستجاب سانت لامبرت مغازلا مترددا . وذات مرة في أكتوبر فاجأها فولتير في خلوة مظلمة يتبادلان أحاديث الحب والهيام . إن أعظم الفلاسفة هو وحده الذي يتقبل هذه لفظة الكراء ، الخيانة . في هدوء وتسامح . ولم يتر فولتير لهذا الوضع على الفور . وأنهما في شيء من الهدر والمزاج ، ولكنه أوى إلى غرفته حين عرض سانت لامبرت تسوية الأمر معه - أي بقتله عند الفجر . وقصبت اميلي إلى فولتير في الثانية صباحا ، وأكدت له حبها الخالد ، ولكنها ذكرته في رفق « بأنك لزم من طويل شكوت . . . من قواك أن تنهار . . . فهل بسئ إليك أن يحل أحد أصدقائك محلك ؟ » وعانقته ولاطفته ودلته بأسماء الدلال التي كانت تناديه بها ، فخفضت سورة غضبه وقال « آه أنت على حق دائما ياسيدتي . ولكن طالما كان لزاما أن تجري الأمور على هذا النحو فلا

أقل من ألا تجرى تحت سمعى وبصرى » وفى الليلة التالية قصد سانت لامبرت إلى فولتير واعتذر له عن تحديه . وعانقه فولتير وقال له « أى بنى ، لقد نسيت كل شئ . إني أنا المخطئ ، أنت فى زهرة عمر الشباب والحب والمتعة ، فاستمتع بهذه اللحظات ، فانها قصيرة . إن هذا العاجز المريض مثلى لا يصلح لهذه الملذات » وفى الليلة التالية تناول ثلاثتهم العشاء معا (٨٣) .

واستمر هذا الثلاثى « حتى ديسمبر حين اعتزمت السيدة دى شاتيليه الذهاب إلى سرى لتدبير شؤونها المالية . وصحبها فولتير ، وجدد فرديريك دهوته . وكان فولتير يميل الآن إلى تلييتها . ولكن المركيزة فور وصولها إلى سرى أسرت إليه بأنها حامل ، وأنها فى مثل هذه السن وكانت آنذاك فى الثالثة والأربعين ، لا تتوقع أن تعيش بعد الولادة . وكتب فولتير إلى الملك فرديريك ألا ينتظر قدومه . كما طلب إلى سانت لامبرت أن يحضر إلى سرى . وهناك اتفق العشايق الثلاثة على خطة لتأمين شرعية الطفل واستحثت السيدة زوجها على القدوم إلى سرى للتعجيل بانجاز بعض المهام . ولم ينزعج الزوج لوجود عاشقين آخرين إلى جانب زوجته يكملان شخصه ، بل سعد كل السعادة حين استقبلوه بالترحيب وأكرموا وفادته . وازدانت المركيزة بأبهى زينة وأزهى خلة ، ولاطفته أعظم ملاطفة ، وشرب وثلل حتى كان ما كان (مما لست أذكره) وبعد بضعة أسابيع أبلغته أنها قد ظهرت عليها أعراض الحمل . واحتضنها فى زهو وفرح . وأعلن عن الحادث السعيد المرتقب إلى كل الناس ، وتقدم إليه الجميع بالتهنئة . ولكن فولتير وسانت لامبرت اتفقا على « أن يعد الطفل من بين أعمال مدام شاتيليه المتنوعة » (٨٤) وعاد المركيز (الزوج) وسانت لامبرت إلى عملهما .

وفى فبراير ١٧٤٩ عادت اميلى وفولتير إلى باريس وانصرفت هى إلى ترجمة قوانين نيوتن بمعاونة كليرو . وثمة رسالتان إلى سانت لامبرت (١٨ ، ٢٠ مايو) تكشفان عن شخصيتها : « كلا : إنه ليس فى مقدورى أن أعبر عن تقديسى وحبى لك حب عبادة . لا تلمنى على نيوتن . ويكفينى

عذابي بسببه . وما ضحيت قط بشيء قدر تضحيتي للعقل ببقائي هنا لانهجازه . .
أنا استيقظ في التاسعة . وأحيانا في الثامنة صباحا . وأتناول القهوة ، واستأنف
العمل في الرابعة ، وأتوقف عنه في العاشرة . . . وأتجاذب أطراف الحديث
مع فولتير حتى منتصف الليل وهو يتناول معى العشاء . وفي منتصف الليل
أعود إلى العمل في نيوتن واستمر حتى الخامسة صباحا . إنى أنجز هذا الكتاب
من أجل العقل والشرف ولكنى أحبك أنت وحدك » (٨٥) .

وفي ١٠ يونيو جدد فردريك بسرعة دعوة فولتير إلى الحضور إلى
بوتسدام فلما من الملك أن سانت لامبرت قد أعفى فولتير من أية مسئوليات
أخرى يلتزم بها تجاه دى شاتيليه ، فأجاب فولتير « حتى فردريك الأكبر
نفسه لا يستطيع أن يحول بينى وبين القيام بواجب لا يمكن أن يحلنى منه
أى شيء . . . لن أتخلى عن سيدة قد تعاجلها المنية في سبتمبر . والأرجح
أن عملية الوضع ستكون خطيرة جداً عليها ، ولكن إذا كتبت لها النجاة ،
فلانى أعدك يا مولاي أى أحضر في أكتوبر وأقدم ولانى لجلالتكم » (٨٦) .

وفي يولييه صحبها إلى لونفيل لتكون تحت رعاية طبية خاصة . إن خوف
الموت أزعجها كل الازعاج — يخطفها الموت في الوقت الذى وجدت فيه
الحب من جديد ، وفي الوقت الذى كانت فيه سنى دراستها وبحبها على وشك
أن تتوج بنشر كتابها . وفي ١٠ سبتمبر أنجبت طفلة . وفي اليوم العاشر من
سبتمبر فارقت الحياة بعد أن عانت كثيراً . واستبد الحزن والأسى بفولتير
فزلت قدمه وهو يغادر غرفتها وسقط على الأرض ، وظل فاقد الوعي
فترة من الوقت . وساعده سانت لامبرت على الافاقة من غشيته . وقال
فولتير عندئذ : « آه يا صديقى أنت الذى قتلها . . . يا إلهى ! ما الذى
أغراك بأن تصل بها إلى هذه الحالة ؟ ! » وبعد ذلك بثلاثة أيام طلب فولتير
من لونجشامب الخاتم الذى خلعه من يد السيدة المتوفاة . وكانت صورته
منقوشة عليه يوما ما ووجدته السكرتير في يد لامبرت ، وتعجب فولتير قائلاً :
« هكلدا النساء . لقد خلعت صورة ريشيليو من هذا الخاتم ، ثم جاء سانت
لامبرت فطردنى . . . هذا هو نظام الطبيعة . . شخص ينزع مكان آخر .

وهكذا تير الأمور في هذه الدنيا ^(٨٧) . ووريت مدام دي شاتيليه التراب في لوتفيل في أزوع مظاهر المهابة والجلال في بلاط ستانسلاس ، وسرعان ما تبعها طفلتها .

وعاد المركيز وفولتير إلى سيري ومن هناك رد على بعض رسائل التعزية التي تلقاها من باريس : « أنتم عزائي ، يا ملائكة الرحمة أنتم تجعلوني أحب بقية أيامى التعسة . لأننى أعترف لكم أن البيت الذى أظلمها على الرغم مما يثير فى نفسى من أشجان ، ليس كريها عندى . . . أنا لا أهرب من أى شىء يحدثنى عنها ويذكرنى بها . لى أحب سيري . . . والأماكن التي زرتها عزيزة على أنا لم أفقد سيدة ، بل فقدت نصف نفسى . فقدت نفسا خلقت لها نفسى ، فقدت صديقة عشرين عاما ، عرفتها فى طفولتها . لأن أكثر الآباء عطفًا وحنًا لا يحب ابنته الوحيدة إلا كما أحببت أنا هذه السيدة . وبودى أن أجد فى كل مكان ما يذكرنى بها . وأحب أن أتحدث مع زوجها ومع ابنها ^(٨٨) .

ومع ذلك أدرك فولتير أنه سيد بل ويلدوى إذا هو بقى مترملا فى سيري الموحشة المنعزلة . وأرسل كتيبه وأجهزته العلمية ومجموعته الفنية إلى باريس ، وسافر فى أثرها فى ٢٥ سبتمبر ١٧٤٩ . وفى ١٢ أكتوبر استقر به المقام فى العيصمة ، فى قصر واسع الأرجاء فى شارع ترافرسبير .

٦ - مدام دنيس

كان من اليسير على فولتير أن يقنع ابنة اخته بالحضور لتكون ربة البيت حيث كانت لفترة من الوقت خليلته .

ولدت ماري لويز ميجنو Mignot (١٧١٢) وهى ابنة كاترين أخت فولتير . وعندما توفيت كاترين (١٧٢٦) تكفل فولتير برعاية أولادها . وفى ١٧٣٧ . عندما بلغت ماري السادسة والعشرين ، دفع لها خالها صداقا محترما حيث تزوجت من الكابتن نقولا شارل دنيس ، وكان موظفا صغيراً فى الحكومة .

ويتوفى الزوج بعد ست سنوات من زواجه . فى نفس الوقت الذى انتقل فيه فولتير والمركيزة دى شاتيليه إلى باريس . والتبست الأرملة بعض السلوى والعزاء بين ذراعى فولتير ، ووجد هو بعض الحرارة والدفء بين ذراعىها . وواضح أن حب النحال سرعان ماتحول إلى شئ غير مشروع . وفى رسالة مؤرخة فى ٢٣ مارس ١٧٤٥ خاطب فولتير ابنة أخته بقوله « محبوبتى ، عزيزتى »^(٨٩) (*) وقد تكون هذه عبارة حب برئ ، ولكن فى ديسمبر ، أى قبل عامين من لقاء المركيزة بسانت لامبرت كتب فولتير إلى الأرملة الطروب رسالة يجسدر اقتباسها حرفياً حتى يمكن تصديقها : « أقبلك ألف قبلة . روحى تقبل روحك ، إن قلبى مفتون بك . أقبل كل شئ فىك »^(٩٠) .

وحذفت مدام دنييس بعض الألفاظ تواضعاً وتحجلاً ، ولكن المفروض أنها أجابت برسالة غرامية ، لأن فولتير كتب لها من فرساي فى ٢٧ ديسمبر ١٧٤٥ : « عزيزتى ، تقولين إن كتابى إليك بعث السرور والنشوة حتى فى حواسك كلها . وأنا مثلك تماماً . فلم أكد أقرأ العبارات الممتعة التى جاءت فى كتابك حتى التهب مشاعرى من الأعماق . وأوليت كتابك كل الإجلال الذى أحب أن أوليه لشخصك كله ، سأحبك حتى الممات »^(٩١) . وفى ثلاث رسائل بعث بها إليها فى ١٧٤٦ « إني أقبلك ألف قبلة »^(٩٢) . بودى أن أعيش عند قدميك وأموت بين ذراعىك . .^(٩٣) « متى يكون فى مقدورى أن أعيش إلى جوارك وينسانى العالم بأمره ؟ »^(٩٤) وفى ٢٧

(*) هذه العبارة والمتطفلات التالية مأخوذة عن رسائل خطية اكتشفها تيودور بسترمان فى ١٩٥٧ ، واشترتها مكتبة بيبربونت مورجان فى نيويورك من أعقاب السيدة دنييس . ونشر الدكتور بسترمان « مدير معهد ومتحف فولتير فى دلييس فى جنيف » ، النص الأصل ، مع ترجمة فرنسية تحت عنوان « رسائل غرامية من فولتير إلى ابنة أخته (باريس ١٩٥٧) وترجمة انجليزية (لندن ١٩٥٨) . وكل الرسائل ، فيما عدا أربعة من بين ١٤٢ رسالة بخط فولتير ، وبعضها مكتوب بالاطالية التى كالت مدام دنييس ملية بها . وكتبت هذه الرسائل فيما بين عامى ١٧٤٢ - ١٧٤٥ . وثلاث منها مؤرخة على وجه التحديد . ومن ثم لا يمكن أن يكون تسلسلها التاريخى مؤكداً . والتواريخ التى أوردناها هنا هى التى حددها دكتور بسترمان .

يوليه ١٧٤٨ كتب يقول : « سأحضر إلى باريس من أجلك أنت إذا سمحت ظروفي السيئة . وسألقى بنفسى عند قدميك ، وأقبل كل مفاتنك . وفي نفس الوقت أطبع ألف قبلة على كل موضع في جسمك الذى غمرنى بفيض من اللذة والبهجة » (٩٧) .

فى عمر الرجال ، مثلما هو فى عمر النساء ، فترة خطيرة ، وهى عندهم أطول ، ويرتكبون فيها حماقات لا تصدق . وكان فولتير ألمع شخصية فى القرن الذى عاش فيه ، ولكن لا يجدر بنا أن نعهده من بين الفضلاء الحكماء ، فكثيراً ما اقترف هذه السخافات والأعمال الطائشة وتردى فى هذه التصرفات المتطرفة ونوبات الغضب الصيبانية ، مما سر أعداءه وأزعج أصدقاءه . إنه وضع نفسه تحت رحمة ابنة أخته التى كان واضحاً أنها مغرمة به ، ولكنها أحبت نقوده حبا متزايداً . إننا نجدها تستغل سيطرتها عليه لتزيد من ثروتها ، حتى يوم وفاته . إنها لم تكن امرأة رديئة بمقاييس العصر . ولكنها ربما تجاوزت حدود عمرها باتخاذها سلسلة من العشاق — باكولار دارنو ، مارمونتيل ، مركز دى اكسيمين — لتستكمل رعاية خالها . (٩٨) ووصفها مارمونتيل مادحا فى ١٧٤٧ « إن هذه السيدة مقبولة بكل ما فيها من قبح . إن شخصيتها البسيطة غير المتكلفة تشرى مسحاً من شخصية خالها . وكان فيها كثير من ذوقه ومن مرحه وأدبه الجلم ، ومن هنا كان السعى إلى الاجتماع بها والتودد إليها » (٩٩) .

وفى يوم وفاة مدام دى شاتيليه كتب فولتير إلى ابنة أخته :

« ابنتى العزيزة ، فقدت اليوم صديقة عشرين عاماً . ولوقت غير قصير — كما تعرفين . لم أكن أنظر إلى مدام دى شاتيليه على أنها امرأة (هكذا) . وأنا واثق أنك ستشاطرينى الحزن الشديد عليها . إنه من المؤسف حقاً أن أراها تفارق الحياة فى مثل هذه الظروف ولمثل هذا السبب ، وأنا لا أتخلى عن المركز دى شاتيليه فى هذه المحنة المتبادلة سأحضر من سبرى إلى باريس لأحتضنك بين ذراعى ، والتمس فيك عزائى وأملى الوحيد فى الحياة » (١٠٠) .

وطوال الشهور الثمانية التي قضها في العاصمة ، تلقى فولتير من فرردريك الأكبر رسائل كثيرة يستحثه فيها على الحضور ، وكان هو يميل إلى قبول الدعوة . وعرض عليه فرردريك أن يشغل وظيفة كبيرة في البلاط ، مع دار خاصة بالمجان براتب قدره ٥٠٠٠ تالر في العام .^(١٠١) ولكن فولتير الذي كان من رجال المال مثلما كان فيلسوفا ، طلب إلى ملك بروسيا أن يقرضه بعض المال لتسديد نفقات الرحلة : ووافق الملك في تأنيب مكرر ، حيث شبه الشاعر بهوراس الذي رأى من الحكمة أن يمزج النافع بالمقبول^(١٠٢) . وطلب فولتير الاذن بالرحيل من ملك فرنسا ، ووافق لويس على الفور ، قائلا لخلصائه المقرين : « هذا سيزيد من جنون رجل مجنون في بلاط بروسيا وسيخفف من جنون رجل في فرساي^(١٠٣) » . وفي ١٠ يونيو ١٧٥٠ غادر فولتير باريس إلى برلين .

المراجع

CHAPTER VII

1. Sée, H., *Economic and Social Conditions in France during the 18th Century*, 87.
2. *Ibid.*, 84.
3. Sumner, W. G., *Folkways*, 165.
4. Sée, 104; Goodwin, A., *The European Nobility in the 18th Century*, 36.
5. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 107.
6. Ducros, L., *French Society in the 18th Century*, 158, 207; Wolf, A., *History of Science . . . and Philosophy in the 18th Century*, 558.
7. Palmer, R. R., *Catholics and Unbelievers in 18th-Century France*, 131.
8. Lacroix, P., *Eighteenth Century*, 138.
9. *Camb. Mod. History*, VIII, 53.
10. Lacroix, 138.
11. Ducros, 24; Herbert, S., *Fall of Feudalism in France*, xvii.
12. Taine, *Ancient Regime*, 130.
13. Goodwin, *European Nobility*, 31.
14. Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 32.
15. Sée, 61.
16. Taine, *Ancient Regime*, 20, 41.
17. Tocqueville, 34.
18. Taine, 15.
19. *Camb. Mod. History*, VIII, 53.
20. *Ibid.*, 51, Sée, 3.
21. Palmer, R. R., 25; Lacroix, 157.
22. Taine, 42 f.
23. Voltaire, *Works*, XVIa, 261.
24. Martin, H., XV, 439.
25. *Ibid.*, 439-40.
26. Lacroix, 157.
27. *Ibid.*, 169.
28. Taine, 34.
29. *Ibid.*, 119-20.
30. Goncourt, *Woman of the 18th Century*, 10, 15, Montalembert, *Monks of the West*, II, 86.
31. Martin, Kingsley, *Rise of French Liberal Thought*, 70.
32. Taine, 62; Michelet, *Histoire de France*, V, 288.
33. Martin, H., XV, 441.
34. *Ibid.*, 442.
35. Taine, 63.
36. Lecky, *History of England*, V, 329.
37. Desnoiresterres, VIII, 248.
38. Lacroix, 170.
39. Guizot, *History of France*, V, 48.
40. Sée, 4.
41. Herbert, *Fall of Feudalism*, 56.
42. Taine, 23-24, Ducros, 256-57.
43. Herbert, 37.
44. Sée, 15.
45. Herbert, 4-5.
46. Sée, 28.
47. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 395 (Oct. 10, 1718).
48. Taine, 330.
49. Martin, H., XV, 216.
50. Sée, 38.
51. Voltaire, *Works*, XIXa, 94.
52. *Philosophical Dictionary*, article "Lent."
53. Cobban, *History of Modern France*, 42.
54. Sée, 182.
55. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 193.
56. Mantoux, *Industrial Revolution*, 409.
57. Sée, 165.
58. Taine, 334.
59. Mornet, *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 28.
60. Parton, II, 184.
61. Lacroix, 228.
62. *Ibid.*, 311.
63. Nussbaum, *History of the Economic Institutions of Modern Europe*, 124.
64. Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 67.
65. Sée, 151-53.
66. Martin, H., XV, 213.
67. *Ibid.*, 305.
68. Sée, 93.
69. Ducros, 160.
70. Toth, *Woman and Rococo in France*, 179.
71. Lacroix, 206.
72. *Ibid.*

73. Goncourts, *Madame de Pompadour*, 5-7.
74. Desnoiresterres, III, 241
75. Grimm, *Correspondance*, VIII, 131-33, in Buckle, I, 539.
76. Saint-Simon in Lacroix, 302.
77. Lacroix, 199.
78. Ducros, 53.
79. Stryjenski, *Eighteenth Century*, 57
80. Lanfrev, *L'Eglise et les philosophes au XVIII^e siècle*, 129
81. Michelet, V, 277, Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 445
82. Voltaire, *Works*, XVIa, 157
83. Stryjenski, 79
84. *Works*, XVIa, 158.
85. Martin, H., XV, 156n.
86. Stryjenski, 85
87. Desnoiresterres, II, 336
88. Martin, H., XV, 151.
89. Saint-Simon, *Mémoires*, III, 283.
90. Michelet, V, 248
91. Martin, H., XV, 116n., Ercole, *Gay Court Life*, 88.
92. Bearn, *Court Painter*, 85
93. Guizot, *History of France*, V, 78
94. Goncourts, *Pompadour*, 9.
95. Michelet, V, 325
96. Ercole, 167
97. Lewis, D B Wyndham, *Four Favorites*, 42
98. Stryjenski, 140-41
99. *Observer's Biographical Dictionary*, 833.
100. Brandes, I, 224
101. Voltaire, *Works*, XVIIb, 224.
102. Carlyle, Thos., *History of Friedrich II*, IV, 438, *Enc Brit.*, IX, 454a.
103. Voltaire, XVIIb, 238, Martin, H., XV, 282, Stryjenski, 148
104. Voltaire, XVIIb, 239
105. Stryjenski, 149.
106. Martin, H., XV, 411n.
107. Lichtenberger in Martin, K., *Rise of French Liberal Thought*, 238
108. Martin, H., XV, 356-58.
109. Lecky, *England*, V, 327.
110. Goncourts, *Pompadour*, 12
111. Michelet, V, 349.
112. Ercole, 197
113. Goncourts, 117.
114. Ercole, 203.
115. Lewis, *Four Favorites*, 48
116. Taine, *Ancient Regime*, 82
117. Goncourts, 71
118. *Ibid.*, 348.
119. Sainte-Beuve, I, 450.
120. *Ibid.*, 451
121. Michelet, V, 354
122. Martin, H., XV, 416
123. Goncourts, 131
124. Lewis, 50.

125. *Ibid.*, 209.
126. Toth, 165.
127. Goncourts, 127.
128. Du Hausset, Mme., *Memoirs of Mme de Pompadour*, 65.
129. Ercole, 220.
130. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 149

CHAPTER VIII

- 1 See, *Economic and Social Conditions*, 48 f
- 2 Funck-Brentano, *L'Ancien Régime*, 422
- 3 La Fontainerie, *French Liberalism and Education*, 6.
4. Lacroix, 252.
- 5 *Ibid.*, 151
- 6 242.
- 7 144.
- 8 Desnoiresterres, III, 133
- 9 Créqui, *Souvenirs*, 57, 121.
- 10 Ducros, *French Society*, 83.
11. Chesterfield, *Letters*, I, 348.
- 12 Brandes, I, 147.
- 13 *Ibid.*, 141.
14. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 187.
- 15 *Ibid.*, 188.
- 16 Morner, *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 53
17. Funck-Brentano, 50.
- 18 Ducros, 61
- 19 Quoted in Funck-Brentano, 60
20. Taine, *Ancient Regime*, 134
- 21 Walpole, *Letters*, I, 309 (Oct. 28, 1752)
- 22 Toth, 135.
23. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 25.
24. D'Argenson, *Mémoires*, in Martin, H., XV, 341.
25. Ducros, 342.
26. Mossner, *Hume*, 91.
27. Kohler, Carl, *History of Costume*, 340.
- 28 Créqui, 123.
29. Lacroix, 370
30. Ducros, 35.
31. *Philosophical Dictionary*, art. "Lent," in *Works*, VIa, 108.
32. Mousnier and Labrousse, *Dix-huitième Siècle*, 166.
33. Michelet, V, 189.
34. Ling, P. H., *Music in Western Civilization*, 441
35. Burney, C., *General History of Music*, II, 965, 969.
- 36 *Grove's Dictionary of Music and Musicians*, IV, 320d
- 37 Burney, II, 970.
- 38 Diderot, *Le Neveu de Rameau*.
- 39 Duclos, C., *Considérations sur les moeurs*, 13

40. Goldsmith, O., *Miscellaneous Works*, 430.
41. Mme. Vigée-Lebrun, *Mémoires*, I, 156, in Taine, *Ancient Regime*, 141n.
42. Goncourts, *Woman*, 317.
43. Marmontel, *Mémoires*, I, 181.
44. Batiffol, *Great Literary Salons*, 131.
45. Walpole to Gray, Jan 25, 1766.
46. Batiffol, 208.
47. Kavanagh, *Woman in France during the 18th Century*, I, 168.
48. Diderot, "On Women," in *Dialogues*, 196.

CHAPTER IX

1. Faniel, S., *French Art of the 18th Century*, 36.
2. *Ibid.*, 91.
3. Funck-Brentano, 180.
4. Louvre.
5. See the great commode in the Wallace Collection.
6. Dilke, Lady E., *French Architects and Sculptors of the 18th Century*, 77.
7. *Ibid.*, 81.
8. Louvre.
9. Turner and Baker, *Stories of the French Artists*, 181.
10. Dijon Museum.
11. Versailles Museum.
12. Louvre.
13. Bearné, *Court Painter*, 164.
14. Diderot, *Salons*, I, 9, 114-19.
15. Bearné, 43.
16. Turner, 193.
17. Goncourts, *French 18th-Century Painters*, 61.
18. Turner, 197.
19. Louvre.
20. Block, *François Boucher and the Beauvais Tapestries*, 26.
21. Goncourts, *French Painters*, 69. Seven are in the Huntington Library and Gallery at San Marino, Calif.
22. *Ibid.*
23. Wallace Collection.
24. Goncourts, *French Painters*, 91.
25. *Ibid.* 84.
26. Block, 11.
27. Ridder, *Chardin & Goncourts, French Painters*, 117.
28. Louvre.
29. Louvre.
30. Louvre.
31. Goncourts, 141-42, Havens, *Age of Ideas*, 321.
32. Diderot, *Salons*, III, 4.
33. Goncourts, 177n.
34. *Ibid.*
35. *Ibid.*
36. *Ibid.*
37. *Ibid.*, 164n.
38. Louvre.
39. St.-Quentin Museum.
40. Dresden.
41. St.-Quentin.

CHAPTER X

1. Duclos, *Considerations*, 217.
2. Grimm, *Correspondance*, III, 73.
3. Parton, I, 509.
4. Voltaire, essay "Ancient and Modern Tragedy," in *Works*, XIXa, 134.
5. "Discourse on Tragedy," in *Works*, XIXb, 181 f.
6. Parton, II, 325.
7. Brandes, I, 72.
8. Edwards, H. S., *Idols of the French Stage*, 83, Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 170.
9. Michelet, V, 303.
10. Sainte-Beuve, I, 180.
11. Michelet, V, 304.
12. Mitford, N., *Madame de Pompadour*, 126.
13. Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 260.
14. Marivaux, *Vie de Marianne*, 3.
15. Crebillon fils, *Le Sopha*, introd.
16. *Le Sopha*, 65.
17. Palache, *Four Novelists of the Old Regime*, 4, 49.
18. Crebillon, *Le Sopha*, introd.
19. Saintsbury, G., introd. to Prévost's *Manon Lescaut*, clii.
20. *Manon Lescaut*, 220.
21. *Ibid.*, 10.
22. 57.
23. Faguet, E., *Literary History of France*, 489.
24. Saintsbury, introd. to *Manon Lescaut*, ix-xii.
25. Burv. J., *History of the Idea of Progress*, 115-16; Martin, K., 280.
26. Lichtenwarger, A., *Le Socialisme et la Révolution française*, 73, Martin, H., XV, 335; Martin, K., 62, Hazard, 197.
27. In Martin, K., 61.
28. In Crocker, *Age of Crisis*, 426-29.
29. Duclos, *Considerations*, 11-13.
30. *Ibid.*, 17, 21.
31. 27.
32. 25.
33. Forth, 38.
34. La Bruvère and Vauvenargues, *Sélections*, 189.
35. Vauvenargues, *Oeuvres choisies*, cxv.
36. La Bruvère and Vauvenargues, 179.
37. Vauvenargues, clxxxvii.
38. *Ibid.*, clxxxvii.

39. Crocker, *Age of Crisis*, 138-39.
40. *Ibid.*, 30.
41. Vauvenargues, CLIX.
42. La Bruyère and Vauvenargues, 173.
43. Vauvenargues, CL.
44. *Ibid.*, LVII.
45. CLXXX.
46. CLVII.
47. P. 158.
48. P. 173.
49. *Ibid.*
50. 310.
51. Voltaire, letter of Apr. 4, 1744, in Martin, H., XV, 407n.
52. Voltaire, XIXa, 43.
53. Sorel, A., Montesquieu, 125.
54. *Ibid.*, 9.
55. 23.
56. Montesquieu, *Spirit of Laws*, Book V Ch. xix.
57. *Persian Letters*, xiv.
58. In Sorel, 43.
59. Herodotus, *History*, IV, 183.
60. Aristotle, *Historia animalium*, VIII, 12.
61. *Persian Letters*, vii.
62. Letter XLV.
63. xvix.
64. cxviii.
65. cxiii.
66. cxviii.
67. xxxv.
68. LXXXVI.
69. Sorel, 49.
70. *Grandeur et décadence des Romains*, introd., vi.
71. *Ibid.*, Ch. xviii.
72. Ch. xii.
73. Ch. xviii.
74. Ch. vi.
75. Ch. xv.
76. Quoted in Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 195.
77. *Spirit of Laws*, preface.
78. *Ibid.*
79. Palache, 35.
80. Martin, K., 151.
81. *Spirit of Laws*, Book I, Ch. iii.
82. *Ibid.*, XIV, i-x.
83. XVI, i-iii.
84. *Ibid.*, x.
85. *Ibid.*
86. XIV, v.
87. VIII, xvi-xix.
88. Explanatory notes prefixed by Montesquieu to the second edition.
89. IV, vi.
90. In Sée, H., *Idées politiques en France au XVIII^e siècle*, 46.
91. *Spirit of Laws*, VIII, ii.
92. V, xiii.
93. V, x.
94. XI, vi.
95. *Ibid.*
96. *Ibid.*
97. XI, iii.
98. *Grandeur et décadence*, Ch. vii.
99. *Spirit of Laws*, XXIII, xxviii.
100. XV, v.
101. X, ii.
102. XIII, xvii.
103. *Pensées diverses*, in Hearnshaw, *Great Thinkers of the Age of Reason*, 116.
104. Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 173.
105. *Spirit of Laws*, XXIV, x.
106. I, i.
107. XII, xix.
108. In Havens, *Age of Ideas*, 121.
109. *Spirit of Laws*, XXIV, ii.
110. *Ibid.*, iii and xxvi.
111. XXIV, v.
112. XXV, v.
113. *Ibid.*, xiii.
114. *Ibid.*, x.
115. Quoted in Faguet, 195.
116. Sorel, 166.
117. Pappas, *Berthier's Journal de Trévoux*, 78 f., Martin, K., 153.
118. Sorel, 163.
119. Martin, K., 168.
120. Sorel.
121. Voltaire, XIXa, 138-39.
122. *Philosophical Dictionary*, art. "Climate," in *Works*, IVa, 104-9.
123. *Ibid.*
124. Art. "Laws," in *Works*, VIa, 104.
125. Art. "Laws, Spirit of," in *Works*, VIa, 106-8.
126. Morley, *Life of Voltaire*, 9.
127. Cf. Macaulay, *Critical Essays and Poems*, I, 226, Dunning, *History of Political Theories*, III, 428-31, Flint, *History of the Philosophy of History*, 172-76, Brunetière, 301, Stephen, L., *English Thought in the 19th Century*, II, 188, Sorel, 139-41.
128. *Spirit of Laws*, VII, iii.
129. Spencer, *Principles of Sociology* (3v., London, 1876-96).
130. Laski, H., *Political Thought in England*, 109.
131. Taine, *Ancient Regime*, 213.
132. Walpole, *Letters*, II, 187 (Jan. 10, 1750).
133. Sainte-Beuve, *Portraits*, I, 146.
134. Hearnshaw, *French Thinkers of the Age of Reason*, 116.
135. Havens, *Age of Ideas*, 127.
136. Sorel, 169.
137. Grimm, *Correspondance*, II, 491.
138. Gibbon, E., *Decline and Fall of the Roman Empire* (1779 ed.), II, 142.
139. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 91.

140. Sorel, 171.
141. Faguer, *Dix-huitième Siècle*, 188.

CHAPTER XI

- 1 Desnoiresterres, I, 410.
- 2 Bain, R. N., in *Voltaire, Charles XII*, introd. xxii.
3. E.g. Buckle, I, 577.
4. Voltaire, *Charles XII*, p. 11.
5. *Ibid.*, 334.
6. Letter of Aug. 25, 1732, in *Works*, XXIa, 216.
7. *Zaire*, I, 1, in *Works*, Xa, 27.
8. *Zaire*, II, iii.
9. Desnoiresterres, II, 2.
10. Créqui, *Souvenirs*, 35.
11. Brandes, I, 256.
12. *Ibid.*, 34.
13. *Letters on the English*, Letter 1, in *Works*, XIXb, 193-98.
14. Letter v.
15. *Ibid.*
16. Letter viii, translation in Havens, *Age of Ideas*, 168.
17. *Ibid.*, 169.
18. Letter x.
19. Letter viii, Hearnshaw, *French Thinkers of the Age of Reason*, 151.
20. *Works*, XIXb, 29.
21. Brandes, I, 203.
22. Voltaire, XIIb, 212.
23. *Ibid.*, 219.
24. 235.
25. Buckle, I, 517.
26. Parton, I, 215.
27. *Ibid.*, 303.
28. 343.
29. Desnoiresterres, II, 139.
30. Parton, I, 384.
31. Desnoiresterres, II, 239.
32. *Ibid.*, III, 113-15.
33. Françoise de Graffigny, *Vie privée de Voltaire et Mme du Châtelet à Cirey* (Paris, 1820), in Brandes, I, 400.
34. Brandes, I, 354.
35. Pomeau, *La Religion de Voltaire*, 190.
36. Parton, I, 391.
37. Créqui, 35.
38. Parton, I, 389.
39. Wade, Ira, *Voltaire and Mme. du Châtelet*, 14.
40. *Ibid.*
41. 37.
42. Brandes, I, 188.
43. Voltaire, XXIa, 197-201.
44. Desnoiresterres, III, 330.
45. Voltaire, XXIa, 193, 209.
46. Letter of Apr. 15, 1741, in Gay, *Voltaire's Politics*, 26.
47. Brandes, I, 365, Desnoiresterres, II, 53.
48. Voltaire, XXIb, 107.
49. Ia, 299.
50. Voltaire, *Traité de métaphysique* (*Oeuvres complètes*, XLIII), end of Ch. i.
51. *Ibid.*, p. 187.
52. Taine, *Ancient Regime*, 258.
53. *La Pucelle*, Canto II, in *Works*, XXa, 83 f.
54. Voltaire, *Alzire*, I, 1.
55. Brandes, I, 361.
56. Parton, I, 445.
57. Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 474.
58. *Mahomet*, III, vi, in *Works*, VIIIb, 55.
59. Brandes, II, 8.
60. Voltaire and Frederick the Great, *Letters*, p. 101.
61. Gibbon, E., *Journal*, 130.
62. Parton, I, 462.
63. Brandes, I, 405.
64. *Ibid.*
65. Mitford, N., *Voltaire in Love*, 75.
66. Parton, I, 542-45.
67. Martin, H., XV, 402.
68. Voltaire, XXIb, 98.
69. XXIa, 190, 193.
70. *Ibid.*, 195.
71. Parton, I, 575.
72. *Ibid.*, 352.
73. Voltaire, VIIIb, 12.
74. *Ibid.*, 14.
75. Voltaire, IIa, 282.
76. Ib, 6.
77. Ib, 41.
78. IIa, 63.
79. IIa, 26.
80. IIa, 44-45.
81. Parton, I, 581-82.
82. Voltaire and Frederick, *Letters*, 138, 191.
83. Longchamp in Parton, I, 553 f.
84. Longchamp in Desnoiresterres, III, 246 and Parton, I, 556.
85. Parton, I, 562.
86. Voltaire and Frederick, *Letters*, 197.
87. Desnoiresterres, III, 390.
88. Parton, I, 571.
89. Voltaire-Frederick *Letters*, 33.
90. Voltaire, *Lettres d'amour à sa nièce*, 53.
91. Voltaire, *Love Letters to His Niece*, 46. Dr. Besterman translates *cazzo* as "prick."
92. *Lettres d'amour*, 57, *Love Letters*, 48.
93. *Lettres d'amour*, 69, *Love Letters*, 54.
94. *Lettres d'amour*, 77, *Love Letters*, 57.
95. *Lettres d'amour*, 77, *Love Letters*, 58.
96. *Lettres d'amour*, 146.
97. *Love Letters*, 103.
98. *Lettres d'amour*, 15.
99. Marмонтel, *Mémoires*, I, 121.
100. Mitford, N., *Voltaire in Love*, 363.

01. Nicolson, *Age of Reason*, 110.
02. Voltaire-Frederick *Letters*, 212; *Gay, Voltaire's Politics*, 150
03. *Gay*, 151.

CHAPTER XII

1. Mossner, *Hume*, 210.
2. Richard, E., *History of German Civilization*, 326, de Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 27. Thompson, J. W., *Economic and Social History of the Later Middle Ages*, 483
3. Taine, *Ancient Régime*, 28
4. See Muhlhausen as described in Spitta *J. S. Bach*, I, 344
5. Lang, *Music in Western Civilization*, 608
6. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 255 (Nov. 21; 1716).
7. Tierze *Treasures of the Great National Galleries*, 137.
8. Burney, C., *General History of Music*, II, 943
9. Desnoiresterres, IV, 160.
10. In Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 334.
11. Francke, *History of German Literature*, 223.
12. Ausubel, *Superman: The Life of Frederick the Great*, 756.
13. Wolf, *History of Science . . . and Philosophy*, 778.
14. Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 40.
15. Lovejoy, *Essays in the History of Ideas*, 108
16. *Enc. Brit.*, XXIII, 697c.
17. *Enc. of Religion and Ethics*, VIII, 818b.
18. Schoenfeld, *Women of the Teutonic Nations*, 283.
19. *Ibid.*, 198
20. Text in Smith, P., *History of Modern Culture* II, 601.
21. Chesterfield, *Letters*, Sept. 5, 1748
22. Goldsmith, O., *Inquiry into the Present State of Polite Learning in Europe*, in *Miscellaneous Works*, 426.
23. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 63
24. Montagu, Lady Mary, letter of Dec. 17, 1716
25. Dillon, F., *Glass*, 5.
26. Bock, E., *Geschichte der Graphischen Kunst*, 477-84.
27. Berlin
28. Barockmuseum, Vienna.
29. Stowell, S., *German Baroque Art*, 94.
30. *Oxford History of Music*, IV, 4.
31. Lang, 450
32. Spitta, *Bach*, II, 46. *Enc. Brit.*, XVII, 896b.

33. Spitta, III, 18
34. Rolland, *Musical Tour*, 84
35. *Ibid.*, 211.
36. 207-8.
37. *Grove's Dictionary of Music*, II, 556.
38. Rolland, 211n
39. *Grove's*, V, 297.
40. Ebeling in Rolland, 119.
41. E.g. Concerto in D for trumpet, Suite in A Minor for flute, Don Quixote Suite.
42. Schweitzer, A., *J. S. Bach*, I, 103-4.
43. Spitta, I, 373.
44. *Grove's*, I, 158 On the Vivaldi transcriptions, see Pincherle, Marc, *Vivaldi*, 230-31.
45. Spitta, II, 147
46. Lang, 493.
47. *Grove's*, I, 161.
48. Schweitzer, I, 115.
49. Spitta, III, 161-64.
50. *Grove's*, I, 165.
51. Pratt, *History of Music*, 257.
52. Schweitzer, I, 338.
53. *Ibid.*, 337.
54. Spitta, II, 55.
55. Forkel in Schweitzer, I, 323
56. *Ibid.*, 404.
57. 292.
58. Lang, 499.
59. Davison, A., *Bach and Handel*, 56.
60. Schweitzer, I, 180.
61. Spitta, III, 252.
62. *Ibid.*
63. 263.
64. Weinstock, *Handel*, 4.
65. *Grove's*, I, 167
66. Rolland, 71
67. Spitta, II, 147.
68. McKinney and Anderson, *Music in History*, 407.
69. Words of the preacher at Bach's funeral, Spitta, III, 275
70. Letter of Karl Zelter in Schweitzer, I, 231
71. *Ibid.*, 230, Rolland, 219; Davison, 11.
72. Schweitzer, I, 238.
73. *Ibid.*, 242
74. 234

CHAPTER XIII

1. Carlyle, T., *Friedrich the Second*, IV, 171
2. Goodwin, *European Nobility*, 129.
3. Montagu, Lady Mary, *Letters*, I, 245.
4. Goodwin, 112
5. Mowat, R. B., *Age of Reason*, 264. *New Camb Mod History* VII, 401.
6. In 1714-14.
7. 1726-33.

8. 1715-56
9. 1722-32.
10. 1729-32.
11. Nawrath, *Austria*, 15. The church was built in 1733.
12. Sitwell, *German Baroque Art*, 37; cf. Baedeker, *Austria*, 46.
13. Barockmuseum, Vienna.
14. *Ibid.*
15. Montagu, Lady M., I, 238.
16. Burney, C., II, 942.
17. Garnett, R., *History of Italian Literature*, 325.
18. Frederick, *Mémoires*, I, 14.
19. *Enc. Brit.*, X, 274b.
20. Coxe, Wm., *History of the House of Austria*, III, 241.
21. *Ibid.*, 242.
22. *New Camb. Mod. History*, VII, 407.
23. Monroe, Paul, *History of Education*, 435.
24. Macaulay, *Essays*, II, 121; Acton, *Lectures on Modern History*, 188.
25. *Camb. Mod. History*, VI, 110.
26. *Ibid.*, 113.
27. 214.
28. Carlyle, *Friedrich*, I, 335.
29. Wilhelmine, Margravine, *Memoirs*, 31, 34, 52, 204.
30. *Ibid.*, 13, 63.
31. Carlyle, I, 377.
32. Wilhelmine, 91.
33. *Ibid.*, 84, 91.
34. Carlyle, II, 95.
35. *Camb. Mod. History*, VI, 111.
36. Wilhelmine, 109.
37. *Ibid.*, 164.
38. Carlyle, II, 317.
39. *Ibid.*, 339.
40. 349.
41. Wilhelmine, 130.
42. Carlyle, III, 64-66.
43. *Ibid.*, 66-68.
44. Voltaire-Frederick *Letters*, Nov. 4, 1736.
45. Apr. 7, 1737.
46. Jan. 20, 1737.
47. Frederick to Voltaire, Nov. 4, 1736, Feb. 8, 1737.
48. Dec. 3, 1736.
49. Dec. 25, 1737.
50. June, 1738.
51. Dec. 25, 1737.
52. Mar. 18, 1738.
53. Carlyle, III, 98.
54. Parton, I, 240.
55. Frederick, quoted in Villari, P., *Life and Times of Niccolò Machiavelli*, II, 201.
56. In Francke, *History of German Literature*, 230.
57. Carlyle, III, 142.
58. Valori in Ausubel, 435.
59. Frederick to Voltaire, June 6, 1740.
60. June 27, 1740.
61. Lea, H. C., *Superstition and Force*, 575.
62. Carlyle, III, 161.
63. *Ibid.*, 163.
64. Smith, P., *History of Modern Culture*, II, 571.
65. Carlyle, III, 175.
66. Goldsmith, O., *Miscellaneous Works*, 427.
67. Carlyle, III, 233.
68. *Ibid.*; Desnoiresterres, II, 290.
69. Voltaire-Frederick *Letters*, 143.
70. Fleury to Voltaire, Nov. 14, 1740, in Parton, I, 438.
71. *Ibid.*
72. Carlyle, III, 278.
73. Ausubel, 443.
74. Lutzow, Count von, *Bobemia*, 317.
75. Frederick, *Mémoires*, I, 94.
76. *Ibid.*, 103.
77. Coxe, *House of Austria*, III, 270; Macaulay, *Essays*, II, 126.
78. *Enc. Brit.*, XIV, 881d.
79. Carlyle, IV, 70.
80. Coxe, III, 309.
81. Carlyle, V, 36.
82. Voltaire to Frederick, March, 1742, in Voltaire-Frederick *Letters*, 159.
83. Frederick to Voltaire, Feb. 12, 1742.
84. Frederick, *Mémoires*, I, 5.
85. *Enc. Brit.*, IX, 718c.
86. In Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 313.
87. Carlyle, V, 201.
88. *Ibid.*, III, 260.
89. Carlyle, V, 197, hody repudiates any sodomitic implications.
90. *Enc. Brit.*, IX, 718c.
91. Carlyle, V, 65.
92. *Ibid.*, VII, 462; Mowat, *Age of Reason*, 101.
93. Letter of Aug. 31, 1750, in Parton, I, 611.
94. Desnoiresterres, IV, 108.
95. Taine, *Ancient Regime*, 281n.
96. Voltaire, *Works*, XXIa, 221.
97. Parton, I, 610.
98. *Ibid.*
99. Carlyle, V, 137.
100. *Ibid.*, 246.
101. Gay, *Voltaire's Politics*, 154.
102. Voltaire, XXIa, 213.
103. Lanson, *Voltaire*, 112-13.
104. Parton, I, 340.
105. Chesterfield, letter of Apr. 13, 1752.
106. Parton, II, 59.
107. *Ibid.*, 59-60, Desnoiresterres, IV, 196.
108. Morley, *Life of Voltaire*, 184.
109. Carlyle, V, 182.
110. *Ibid.*, 180.
111. 209.

112. 113.
113. 114. Surachey. *Books and Characters*, 191.
4. Voltaire, XIXa, 184f.
115. *Ibid.*
116. Parton, II, 126.
117. *Ibid.*, 103.
118. Carlyle, V, 223.
119. Parton, II, 108.
120. *Ibid.*, 138.
121. Voltaire, *Lettres d'Alsace*, 135-36 (Dec. 14, 1753).
122. Parton, II, 167-69.
123. Montesquieu, letter of Sept. 18, 1753, in Landfrey, *L'Eglise et les philosophes*, 161.
124. *Philosophical Dictionary*, article "Quakers."
125. Bertrand, J. *D'Alembert*, 91.

CHAPTER XIV

1. Letter of May 17, 1756, in Chaponnière, *Voltaire chez les Calvinistes*, 18.
2. Epinay, Mme. d', *Memoirs and Correspondence*, III, 178.
3. Marmontel, *Memoirs*, I, 317.
4. Morley, *Life of Voltaire*, 200.
5. Boswell, *Life of Samuel Johnson*, 87.
6. Oechsli, W., *History of Switzerland*, 260.
7. *Ibid.*, 272.
8. In Herold, *The Swiss without Halos*, 161.
9. Oechsli, 164.
10. Coxe, *Travels in Switzerland*, II, 225.
11. *Ibid.*, 179.
12. Oechsli, 265.
13. Coxe, *Travels*, I, 304.
14. Oechsli, 243.
15. *Ibid.*, 245.
16. Coxe, II, 261.
17. Casanova, *Memoirs*, I, 392, 407.
18. Coxe, II, 292.
19. *Ibid.*
20. Francke, *History of German Literature*, 220.
21. Lough, J., *The Encyclopédie*, 50.
22. Epinay, *Memoirs*, III, 199.
23. Coxe, II, 357.
24. Epinay, III, 173-75.
25. Masson, P., *La Religion de Rousseau*, I, 10-11.
26. In Naves, *Voltaire et l'Encyclopédie*, 158.
27. *Ibid.*, 39.
28. 40.
29. Lough, 94.
30. Desnoiresterres, V, 179-81.
31. Lough, 92.
32. Geneva, Musée d'Art et d'Histoire.
33. Jean Gaberel in Parton, II, 228.

34. Voltaire, *Essai sur les mœurs*, Ch. lxviii.
35. Morley, 184.
36. *Ibid.*, 290.
37. Flint, *History of the Philosophy of History*, 254.
38. Letter to Thieriot, Oct. 31, 1738.
39. Parton, I, 465.
40. Buckle, I, 580.
41. *Phil. Dict.*, art. "History," in *Works*, Vb, 64.
42. *Ibid.*
43. Voltaire, *Works*, XVIa, 137.
44. XIVa, 230.
45. *Essai sur les mœurs*, Ch. xx.
46. *Ibid.*, Ch. cxxix.
47. Lanson, *Voltaire*, 123-24.
48. Robertson, Wm., *History of the Reign of Charles V*, I, 290.
49. "Observations on History," in *Works*, XIXa, 269.
50. *Essai*, Ch. cxvii.
51. Ch. lxviii.
52. *Works*, XVIa, 133-36, 144.
53. Chateaubriand, *The Genius of Christianity*, III, iii, 6, p. 430.
54. Voltaire, XVIa, 250-51.
55. Michelet, V, 274.

CHAPTER XV

1. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 307 f.
2. Smith, P., *Modern Culture*, II, 543; Nicolson, *Age of Reason*, 294.
3. Frederick to Voltaire, June 29, 1771.
4. Voltaire, *Works*, VIIb, 143.
5. Lecky, *History of Rationalism*, 145.
6. Blackstone, *Commentaries* (Oxford, 1775), IV, 60, in Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, IV, 247.
7. Clark, G. N., *The 17th Century*, 246.
8. Voltaire's estimate, in *Works*, XXIa, 250.
9. Mark xvi, 26.
10. Smith, P., *Modern Culture*, II, 533.
11. *Ibid.*, 556.
12. 550.
13. Putnam, G. H., *Censorship of the Church of Rome*, II, 255.
14. Wilson, A., *Diderot*, 121-22.
15. Brandes, II, 107.
16. Bertrand, *D'Alembert*, 92.
17. Brandes, II, 50.
18. Morner, *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 258.
19. Cf. *Catholic Enc.*, III, 189.
20. Voltaire, *Notebooks*, II, 351.
21. Faguet, *Literary History of France*, 361.
22. Smith, P., II, 268.

23. Schweitzer, A., *Quest of the Historical Jesus*, 23.
24. Quoted in Lovejoy, *Essays in the History of Ideas*, 103.
25. *Ibid.*, 103 f.
26. Hsin-hai Chang, in private correspondence with the authors.
27. In Lovejoy, *Essays*, 105.
28. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 455.
29. In Lovejoy, 105-6.
30. Maverick, L. A., *China, a Model for Europe*, 126.
31. Fulop-Miller, R., *Power and Secret of the Jesuits*, 485.
32. Reichwim, A., *China and Europe*, 124.
33. Voltaire, *Works*, VIIIa, 176.
34. Pinot, V., *La Chine et la formation de l'esprit philosophique en France*, 425.
35. *Ibid.*, 315, 181.
36. Maverick, 242.
37. *Ibid.*, 113.
38. *Philosophical Dictionary*, art. "Glory," in *Works*, Va, 208.
39. *Works*, XVIa, 119; XVIIb, 278.
40. XIIIa, 29.
41. Montesquieu, *Persian Letters*, xlv.

CHAPTER XVI

1. Buckle, I, 66on.
2. Fuss, N., in Smith, D. E., *History of Mathematics*, I, 512.
3. Bell, E. T., *Men of Mathematics* 148.
4. *Ibid.*, 156.
5. 159.
6. Wolf, *History of Science*, 70.
7. Whitehead, A. N., *Science and the Modern World*, 91.
8. Bell, 170.
9. *Ibid.*
10. 171.
11. 185.
12. Whitehead, 90.
13. In Crocker, *Age of Crisis*, 8.
14. Bertrand, *D'Alembert*, 31.
15. Morley, J., *Diderot*, I, 123.
16. Bertrand, 143, 153, 164, Ségur, *Julie de Lespasse*, 113-14.
17. Wolf, 217.
18. Williams, *History of Science*, II, 175.
19. Smith, P., *Modern Culture*, II, 73.
20. Williams, II, 186.
21. *Ibid.*, 189.
22. 290.
23. 195, Wolf, 232.
24. Gibbon, *Essai sur l'étude de la littérature*, in *Miscellaneous Writings*, 2.
25. Williams, IV, 11.
26. Scheele, *Treatise on Fire and Air*, in Wolf, 358.
27. *Ibid.*, 350.

28. *Enc. Brit.*, XX, 62c.
29. *Ibid.*, 62b.
30. Moore, F. J., *History of Chemistry*, 37-38.
31. French, S. J., *Torch and Crucible: The Life and Death of Antoine Lavoisier*, 80.
32. In Wolf, 353.
33. Moore, 44.
34. *Ibid.*, 42.
35. Huxley, T. H., *Science and Education*, 23.
36. In Willey, *Eighteenth-Century Background*, 177.
37. Priestley, J., *Essay on the First Principles of Government*, in Willey, 195.
38. Priestley, *History of the Corruptions of Christianity*, in Willey, 170.
39. *Essay on the First Principles of Government*, in Huxley, 27.
40. *Ibid.*, in Willey, 197.
41. Schuster, M. Lincoln, *Treasury of the World's Great Letters*, 187.
42. French, S. J., 215.
43. Dakin, *Turgot and the Ancien Régime in France*, 166.
44. Moore, 40.
45. McKie, *Antoine Lavoisier*, 225.
46. *Ibid.*, 293.
47. 325.
48. 319.
49. 412 f.
50. 404.
51. 407.
52. French, 267.
53. Williams, III, 11.
54. Langer, W. L., *Encyclopedia of World History*, 435.
55. Berry, *Short History of Astronomy*, 325.
56. Burney, Fanny, *Diary*, 161 (Dec. 30, 1786).
57. Williams, III, 21.
58. *Enc. Brit.*, XI, 520d.
59. Bertrand, *D'Alembert*, 45.
60. Martin, H., XV, 397.
61. Bell, *Men of Mathematics*, 173.
62. *Ibid.*
63. 172.
64. Laplace, *Système du monde*, V, vi, in Berry, 322.
65. Laplace, *Théorie analytique des probabilités*, preface, in Nagel, *Structure of Science*, 282.
66. Quoted by Cajon in Newton, *Mathematical Principles of Natural Philosophy*, 677.
67. Sedgwick and Tyler, *Short History of Science*, 332.
68. Mousnier and Labrousse, *Dix-huitième Siècle*, 31.

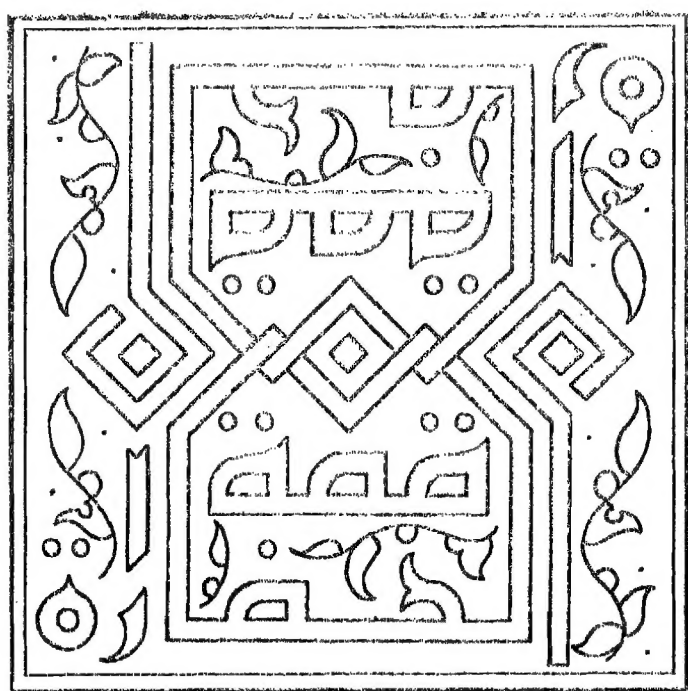
- 69 In Bell, 181.
- 70 Berry, 307.
- 71 Wolf, 199.
- 72 Buffon, *Oeuvres*, IX, 455.
- 73 *Ibid.*, 388.
- 74 XI, 454.
- 75 Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 169.
- 76 Buffon, *Oeuvres*, IX, 454.
- 77 Trittner, *Architects of Ideas*, 66.
- 78 Gourlie, *Prince of Botanists: Carl Linnaeus*, 3.
- 79 *Ibid.*, 34.
- 80 In Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 354.
- 81 Locy, *Biology and Its Makers*, 122.
- 82 Sainte-Beuve, II, 263.
- 83 Lecky, *History of . . . Rationalism*, II, 16.
- 84 Osborn, H. F., *From the Greeks to Darwin*, 7, 130.
- 85 Beattie, *A Court Painter and his Circle*, 272.
- 86 Rousseau, letter of Sept. 21, 1771.
- 87 Gourlie, 170.
- 88 Wolf, 455.
- 89 *Ibid.*, 456.
- 90 457.
- 91 *Enc Brit.* XVIII 3a.
- 92 Locy, 199.
- 93 Wolf, 349.
- 94 *Ibid.*, 450.
- 95 Jardine, Wm., *The Naturalist's Library*, 24.
- 96 *Ibid.*, 331.
- 97 Sainte-Beuve II, 164.
- 98 Osborn 136.
- 99 In Butterfield, *Origins of Modern Science*, 175.
- 100 Buffon, *Discours sur la nature des animaux*, in Martin, II, XVI, 37.
- 101 Goncourt, *Madame de Pompadour*, 145.
- 102 Osborn, H. F., *Men of the Old Stone Age* 3.
- 103 Osborn, *From the Greeks to Darwin*, 134, and Martin, K., *Rise of French Liberal Thought*, 99-100.
- 104 In Smith, P., II, 518.
- 105 In Buffon, *Oeuvres complètes*, I, introq xiii.
- 106 Rousseau, letter of Nov. 4, 1764.
- 107 Sainte-Beuve, II, 208.
- 108 Buffon, I, introq. xiii.
- 109 *Ibid.*, XII, 324-30.
- 110 *Ibid.* 324n.
- 111 Hazard, 134.
- 112 Voltaire, letter to Helvetius, Oct. 27, 1740.
- 113 Sainte-Beuve, II, 254.

- 114 Jardine, 32.
- 115 *Ibid.*, 39.
- 116 In Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 588n.
- 117 Garrison, F., *History of Medicine*, 334.
- 118 Lovejoy, A., *The Great Chain of Being*, 233.
- 119 Réaumur, *Mémoires*, in Smith, P., *Modern Culture*, II, 101.
- 120 Vartanian, A., *Diderot and Descartes*, 176.
- 121 Osborn, *From the Greeks to Darwin*, 118.
- 122 Maupertuis in Crocker, *Age of Crisis* 81.
- 123 Osborn, 114-15.
- 124 *Ibid.*, 122.
- 125 Lovejoy, *Essays in the History of Ideas*, 147.
- 126 Turberville, A. S., ed., *Johnson's England*, II, 245.
- 127 Osborn, 119.
- 128 *Ibid.*, 145.
- 129 146.
- 130 *Ibid.*
- 131 149.
- 132 Brett, G. S., *History of Psychology* 423.
- 133 Condillac, *Traité des sensations*, 38.
- 134 *Ibid.*
- 135 *Ibid.*, 70.
- 136 Wolf, 689.

CHAPTER XVII

1. Osler, *Evolution of Modern Medicine*, 187.
2. Sigerist, *Great Doctors*, 235.
3. Castiglioni, A., *History of Medicine*, 602.
4. Williams, H. S., *History of Science* IV, 78.
5. Garrison, *History of Medicine*, 346.
6. *Ibid.*
7. Vartanian, *Diderot and Descartes*, 270.
8. Wolf, 263.
9. Locy, *Growth of Biology*, 443.
10. Castiglioni, 613.
11. Voltaire, *Philosophical Dictionary*, art. "Good."
12. Garrison, 402.
13. Besant, *London*, 180.
14. Himes, *Medical History of Contraception*, 187.
15. *Ibid.*, 191.
- 16 198.
17. Chesterfield, *Letters*, Feb. 5, 1750.
18. Voltaire, *Works*, XIXb, 24.
19. Goncourt, *The Woman of the 18th Century*, 11.

20. See, *Economic and Social Conditions in France in the 18th Century*, 42.
21. Garrison, 321.
22. Traill, *Social England*, V, 425.
23. Chamousset in Lacroix, *Eighteenth Century in France*, 272.
24. *Ibid.*
25. Garrison, 400.
26. *Ibid.*
27. Castiglioni, 657.
28. Ducros, *French Society in the 18th Century*, 179.
29. Ercole, *Gay Court Life*, 421.
30. Harding, T. S., *Fads, Frauds, and Physicians*, 151.
31. Castiglioni, 641.
32. Traill, V, 51.
33. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 308.
34. Halsband, *Life of Lady Mary Wortley Montagu*, 111.
35. White, A. D., *Warfare of Science with Theology*, II, 55.
36. *Ibid.*, 57; Garrison, 373.
37. Voltaire, *Works*, XIXb, 20.
38. Garrison, 351.
39. Besant, 377-78.
40. Garrison, 343.
41. *Ibid.*, 110.
42. La Mettrie, *Man a Machine*, dedication.
43. *Phil. Dict.*, art. "Physicians."
44. Ford, Boris, ed., *From Dryden to Johnson*, 311.
45. Havens, *The Age of Ideas*, 345.
46. Garrison, 353; Sigerist, 237.
47. Aldis, *Madame Geoffrin*, 191; Herold, *The Swiss without Halos*, 85.
48. Brandes, *Voltaire*, II, 111.
49. Mme. d'Épinay, *Memoirs*, III, 200.



لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد - حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفة من أفضل الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل في شئون البشر الدنيوية. ولقد علمتنا أن نقيم حكومة عادلة قادرة وأن نوفق بين جهود الساسة والفلاسفة الديموقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية. ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك والفن الكلاسيكي المحدث وانتصارات الموسيقى. واستمتعنا أيضاً استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والفن والتكنولوجيا والحكم. لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه. ومع أننا كررنا معظم حياتنا لهذا العمل فإننا عليمون بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين يطمو نهر المعرفة ويتعاضم. غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ازددنا يقناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً كما كان يعاش في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة.

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً. وإننا لشاكر فإننا للقارئ الذي صاحبنا هذه لسنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها. لقد كنا على الدوام واعين بحضوره. والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع ...

